تصدير..

الشاعر مرآة عصره ومجتمعه بما أوتي من رهافة الحس، وصادق الإلهام، يعكس الآمال والآلام، التطلعات والإنجازات، ويغنّي لليوم والغد، ويذكر الأمس، كل ذلك ليؤدي من خلال الشعر والإبداع، رسالة الشاعر إلى بني قومه وللإنسانية جمعاء.

وبما أن مجتمع الشاعر وعصره هما المصدر الذي يلهمه ابداعه في شكله وموضوعه فمن الطبيعي والحال هذه، أن يكون الشاعر الحق، موضع تفاعل مع معاصريه من الشخصيات الأدبية والفكرية والعامة، ومجايليه من الشعراء والمبدعين.

ولم يكن الأخطل بدعاً في ذلك، غير أن تميزه الشعري وتفرده الصحفي منذ مطلع القرن وحتى أوائل الثلاثينات منه، جعله الناطق الأصدق بلسان قومه، وجمع حوله القلوب والعقول. فكتبوا عنه شاعراً وناثراً وصحفياً بلسان صدق وحق، يشاكل ما أبدعه الأخطل الصغير بصدق وحق.

وكان من يمن طالع هذه الدورة من دورات مؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري، وهي الدورة التي تحمل اسم «الأخطل الصغير»، أن يتوافر لديها من ضمن المواد التي تجمعت عن الشاعر، مادة غزيرة لما قاله الآخرون في الأخطل الصغير، من نقد لشعره، ولمقالاته الصحفية، ولتوجهاته الوطنية والقومية، سواء أكان هذا النقد بالسلب أم بالإيجاب.

وتضمنت هذه المادة - الشهادة، قصائد وكلمات قيلت في الأخطل الصغير يوم مبايعته أميراً للشعر العربي عام ١٩٦١، وفي وفاته عام ١٩٦٨، وتأبينه عام ١٩٦٩ في الذكرى الأولى لرحيله.

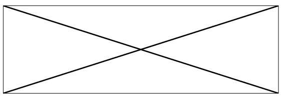
ولمزيد من الاطلاع على حياة الأخطل الصغير وإبداعاته، ذُيِّل هذا الكتاب بثبتٍ مفصّل يتضمن مصادر دراسة الأخطل الصغير من كتب ودوريات ومراجع (عربية وفرنسية) مع توسع في الدوريات من مجلات وصحف زادت عن (٣٨ دورية) إضافة إلى جريدة «البرق».

وإذ تسعد مؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري أن تكون هذه الشهادات في الأخطل من بين إصداراتها لهذه الدورة في كتاب بعنوان «الأخطل في عيون معاصريه» تشكر الدكتورة سهام أبو جودة على جهودها في جمع مادة الكتاب.

لقد كان تبويب هذه المادة ومراجعتها موضع جهود كبيرة نهض بها الأستاذ عدنان جابر فله الشكر.

ويبقى القول أننا سنواصل على هذا الدرب ما اختطته المؤسسة منهاجاً لها في خدمة الحركة الثقافية العربية والشعر والشعراء بصورة خاصة، وليعلم الشاعر المجيد والملهم أن شمسه وقمره لا يغيبان بغيابه وأنه خالد خلودهما وأن وَتَره سيبقى صادحاً وإن رحل.

ولله المنة والحمد من قبل ومن بعد،



القسم الأول

ابيض

الأخطل الصغير

استعراض أدبي

فؤاد الشايب

إن حق لي أن أستعرض حوادث أيام خلت وأشباح سنين انصرمت، فلأضع حدا لطلائع تلك الحوادث التي تلاها الكثير وتوالى بعدها ما ليس باليسير، إذ لا أعد نفسي إلا حديث عهد في ما أستعرضه، ويحق لي أن أقول أن العهد الذي شعرت به في الحياة هو مذ حق لي استعراض ماض أدبي أي منذ سبع سنين أي قبيل الثورة السورية – وكنت إذ ذاك بين الرابعة والخامسة عشرة – وفي أيام الثورة قرأت ديوان الثورة السورية وفي أيام الثورة والدخان قرأت العذراء «لخير الدين» وتلمظت بنكهة طيبة في غزليات «شفيق» وفيما عدا ذلك فقد رددت كثيراً من شعر أستاذي يومئذ الذي يقول:

يريدون مني غير طبعي تخنثا
وما أنا والشعر البليد المخنث
يريدون قولا أعجمياً مفككاً
يعيث بذات الضاد جهراً ويعبث

وقلت للأستاذ الشاعر ذات يوم: في أي كتاب يجب أن استهل حياة الأدب؟ فأشار علي بالبحتري، ثم أردف وهو يبتسم بألم! – وكنت أعهده متألماً – : لا تشغل نفسك بالأدب، «حرام عليك» وأجاهر بالحقيقة لم أستوعب أحجية الأستاذ «حرام عليك» فرحت أنحت من صخور البحتري وغيره وغيره. هكذا ابتدأت وياالأنحس الحظوظ، كلما استعرضت شيئاً من جحافل الماضي تذكرت قول الأستاذ «حرام عليك».. وأخيراً فهمت.

كان في الغوطة، وقاسيون وبردى وجلق، من أولئك الرجال حاملي «الربابة» ومنشدي الهوى والصبابة ومستحلي الأسى والكآبة. كان.. وكنت أصيخ إليهم كثيراً

■ جريدة الشام – العدد ١٤ – سنة ١٩٣١.

وأكرع بكل حواسي، أنفاسهم، في الماء والهواء وفي مجاهل الأرض، ومناحي الفضاء. واليوم... «سكنت ضوضاء من في الحي لا حي تراه»[1]

ولبنان الجميل كنت أسمع عنه شيئاً ولكن أول ما فتح عيني بوله وشوق، نحو غياض لبنان وأرزه وهضابه ووديانه هو «أ. ص» مع أنني كنت أسمع شيئاً «لبدوي الجبل» ذي الروح الثائرة – وهو كما أجابني رفيق لي يوم سألته عنه: «موظف يا أخي».

«أ.ص»؟! من هو صاحب ذاك اللقب؟ الأخطل الصغير، ومن هو الأخطل الصغير؟ هكذا كنت أسائل نفسي إلى أن ظهرت «الأحرار» المصورة وكان فيها صفحة أدب رائعة، فقرأت يوما قصيدة تحت عنوان:

«**عش أنت إني مت بعدك**» والإمضاء «أ.ص».

وطلبت «الأحرار »المصورة من قرائها معرفة صاحب الإمضاء. فجاءت الردود الكثيرة والأجوبة العديدة واكتشف «أ.ص».

وكان المتسابقون أكثرهم ينطلقون في التحليل كأن الأخطل يحضرهم ويملي عليهم فأدركت اهتمام الرجال برجلهم، وعرفت ما للشاعر من اجلال وتقدير في قلوب الجميع، فحل وشعره قلبي وكان القلب بعد رحباً خالياً تقريباً.

ما كان ضرك لو عدلت
أما رأت عيناك قدكْ
وجعلت من جفنيَّ متكأً
ومن عينيَّ مهدك
ورفعت بي عرش الهوى
ورفعت فوق العرش بندك
وأعدت للشعراء سيدهم
وللعشاق عبدك

---

(١) من قصيدة لخير الدين الزركلي.

... تلك فلذة حمراء من صميم تلك المقطوعة الشعرية للأخطل الصغير وكانت ختام عهده بحياة سياسية وافتتاح عهد شعري رائع.

ما كان ضرك لو عدلت؟! فأعدت للشعراء سيدهم، وللعشاق «عبدك»... أترى كيف ينشد «الأخطل» كلا السيادة والعبودية؟! ومن أين؟!

وتنقّلْ في فسيح ذاك البساط السحري الذي قده من حشاشته وليوف فؤاده، تر في كل خطوة، جديداً مستجداً بليغاً في جماله عميقاً في روعته وجلاله.

وحـــيـــاة عـــيـــنك وهي عـــنـــدي
مـــثـــلـــمـــا الإيمـــان عـــنـــدك
مـــا قـــلب أمك إن تـــفـــارقـــهـــا
ولـم تـــبـــــلـــغ أشـــــدك
فـــهـــوت عـــلـــيك بـــصـــدرهـــا
يـــوم الـــفـــراق لـــتـــســـتـــردك
فـــتـــشم صـــدرك والـــدمـــوع
بـــعـــيـــنـــهـــا وتـــشـــد زنـــدك
بـــأشـــد من قـــلـــبي انـــصـــداعـــاً
يـــوم قـــيل خـــفـــرت عـــهـــدك

وفي تلك الواحة المزهرة من جنان الخلد، دموع وندى ونسمات وزفرات، ودماء كحمرة الشفق، ولهثات كنسيمات الأصيل فانظر كيف ينضدها وينظمها عقداً رائعاً لجيد الشعر.

... كـــانت بـــقـــايـــا لـــلـــغـــرام
بمـــهـــجـــتي فـــخـــتـــمت بـــعـــدك
أنـــقى من الـــفـــجـــر الـــضـــحـــوك
فـــهل أعـــرت الـــفـــجـــر خـــدك
وأرق من طـــبـــع الـــنـــســـيم
فـــهل خـــلـــعت عـــلـــيه بـــردك

وألـــــــذ مـن رشـف الـــــــكــــــــؤوس

فـــــهل أبــــحت الـــكــــأس شـــــهـــدك

عش أنت، إني مت بعدك!!! أترى كيف يدب اليأس في قلب الشاعر فبشطر واحد يلقي بنفسك الروعة ويستجدي من مآقيك الدمعة..؟!

انظر كيف يبكي الأخطل في قطعة شعرية نسيت أكثرها ولم يبق عالقاً في هذه المخيلة البالية سوى هذين البيتين:

الــهــوى والــشــبــاب والأمل المــنــشــود

تــوحي فــتــبــعث الــشــعــر حــيــا

الــهــوى والــشــبــاب والأمل المــنــشــود

ضـــاعت جــمــيــعــهــا من يــديــا

هذا ليس شعر بين شطريه فراغ، هذه فلذ نفسانية قطعها الأسى فكانت شعراً. هي ليست فلسفة ولا أحاجي معماة. كلا! تظن أنها ليست بشيء وهي كل شيء.

وهكذا يكون من يَحزن فيُحزن ويَبكي فيُبكي. في هذين البيتين يموت كل شيء في الشاعر. فينشدك بعد الموت. إذاً فالموت هو الذي يوحي اليوم للشاعر وهكذا الشاعرية تستجدي حتى العدم.

بهذه القصيدة الخالدة وبأمثالها كان أول عهدي بالشعر الرقيق، شعر العاطفة والوجدان والألم والقلب المكلوم فتعلمت من ذاك اليوم أن في العربية غير مدائح البحتري ومراثي المتنبي ومقامات الحريري في دولة الشعر، إمارة مترامية الأطراف هي إمارة الغزل والنسيب الرقيق، بشارة أفندي الخوري هو حامل لوائها ورافع منارها. مع كل هذا الإيجاز لا بد أن نذكر شيئاً عن صفات الشاعر وهي أشياء وقفنا عليها بين أوراق صفراء قديمة في دبور «١٩٢٧».

قال الدبور في باب «في المرآة»: أبو عبدالله وإذا أردت، قل بشارة البرق، أو الأخطل الصغير. وجه يجمع دزينة من الأخاديد، عينان غائرتان. لولا العوينات لصح فيهما القول: كوخ نصف متقد.

رأس من الأهوال شاب قبل الأربعين، نغمة واطية تحتاج معها إلى «بوق» ليساعدك على سماع حديثه.

حذار من الاقتراب منه حين يكتب ولكن لا تبتعد كثيراً فإنه سيناديك عندما ينتهي لتشاركه في انتقاد نفسه.

كل ما نظم الأخطل الصغير تتناقله ألسنة العشاق ويتغنى به المغنون، ولو كان للشعر جمهورية لكان صاحب البرق زميلا لشبيهه الدباس.

إذا سألته النظم أجابك بلا شك:

كـــيف تـــرجـــو الـــنـــظم ممن

زود الـــعـــشـق سلامـــا

وإن تكن صلاة الوالدات في ليلة القدر بنافعة وواقية كان رأس صاحب البرق القديم سالماً بفضلها وهي وحدها قد أعمت عيون جمال باشا عنه أيام كانت ولا تسل كيف كانت وإدارة البرق «ملفى» أبناء السياسة والأدب و«وكراً» للمخابرات والسياسات وجرنال البرق ينشر ما يُخشى التفوه به حتى في الخفاء.

وبين الأدغال والأشواك كان ينظم وفي مهاوي الأودية كان يكتب عين في الدمع وعين تتقي الرقباء.

هذه هي صورة الأخطل الذي يتشوق الكثيرون الى معرفة شيء عنه تجاه معرفة الأشياء الكثيرة عن شعره، على أننا لو حدقنا في مرآة شعره لوجدنا أكنَّ دفائن نفسه.

.. وبين الأدغال والأشواك كان ينظم وفي مهاوي الأودية كان يكتب: «**عين في الدمع وعين تتقي الرقباء**». «هذه هي نفسية صاحب البرق» عين دامعة أبداً، غريب والله! هي السنة الثالثة بعد العشرين تمر على «البرق» وكان ومايزال رأس مجلات

الأدب عندنا. تزوج الأخطل الصغير، ومرت بعد الزواج فترة سكون ورجع ثانية، فشغلته السياسة، ثم واصل الأدب ثم هجر، ثم عاد ثم نفر، وهكذا بين الكر والفر، والإقبال والإدبار، يعجم عود الشاعرية، فيزداد مرونة، ويتطاير عبيراً ذاك لأن للشاعر قلباً – مهما فقد منه لا يفقد – فقلبه في صحافته، وقلبه في سياسته. وقلبه في شعره، وقلبه في عقله.

... وكلما غام أفق الحياة وتجهم وجهها، يعود «البرق» فيخط ومضة بارقة في حواشي الفضاء ويصيح «الأخطل الصغير» والحنين يفلذ حشاشته من وراء تلك الحجب المكفهرة: «ما تهدمه السياسة يبنيه الأدب». حسناً...

ليكن ذلك يا سيدي، هدِّم ما شئت وابنِ ما شئت فنعم الهادم الباني.

فؤاد الشايب

****

خطاب الكيالـي
فــي تكـريــم الخــوري

أرسل الينا حضرة الطبيب الوطني العلامة عبدالرحمن بك الكيالي ملخص الخطاب الذي ألقاه يوم الجمعة في حفلة تكريم الشاعر بشارة الخوري.

أيها السادة!!

إن ليلة في الشهباء يتجدد فيها عهد الأدب فيكرم فيها شاعر طالما تغنى بمجد أمته وماضيها، وشدا في حبها وحب حسانها وعلمائها وحب أبنائها وبلادها، وطالما أسمعها صدى نفسها المتوجعة وصدى نفسه المتألمة، وطالما ألقى على مسامعها من وحي قلبه وإلهامات عاطفته شعراً، سامي الديباجة، حلو التشبيه، بديع الاستعارات محكم الألفاظ دقيق المعاني، منسجم النظم متين المبنى، شعراً حلّى آدابها وأثار إعجابها. وأذاقها عذوبة التشبيب وفصاحة الوصف، وحلاوة الوطنية ومتعها بعلو الخيال، وإن ليلة كهذه لا شك بأنها ليلة من ليالي العمر، فطبت يا شهباء بما تمايزت به من حب للعلم والأدب وليت ميزتك هذه وسواها لم تقيدها القيود بل تركت حرة طليقة انطلاق الحسناء في رياض الخلود عارية من كل ستار زائف ومصونة من كل تعد ظالم فيعلم العالم أن التقصير ليس في بنيك ولا في بني قومهم سجية، بل هو الدهر الخؤون إذا استضعف أمة سلبها محاسنها ليلبسها غيرها.

هذا وللمحتفى به نظم عقد هذه الليلة – ولمن أسمعنا وأنشدنا وشدا لنا ولمن غذانا بعلمه وأدبه وفنه ولمن نشطنا بسعيه ألف شكر وتقدير.

■ الاتحاد الحلبية ، ٢٢ تشرين الأول ١٩٣٥ ، السنة ١١ ، العدد ٥٥٩.

وبعد فمن البديهي وأنا ألمس تذوقكم الشعر ومدلولات الفكر واستعدادكم لمعرفة الحقيقة من تأثركم العميق، وما يطفو على ملامحكم من علائم الارتياح والتحمس والغيرة أن أجعل موضوع حديثي [تأثير الشعر في نهضة الأمم].

ما هو الشعر وما هي النهضة وما علاقة الأول بالثانية؟

يعرّف الشعراء والأدباء معنى الشعر بتعاريف مبنية على الشعور والخيال، ولكن التحليل العلمي يقول [بأنه العاطفة إذا تأثرت وتكلمت، والكوامن الغريزية إذا اندفعت وانسكبت واللاشعورية إذا وعيت] وبعبارة أخرى هو تجلي الروح ورمز الهواجس، وصدى النفس الباطنة وقل هو جسر الاتصال بين عالم الشعور وعالم الأدب وهذه المدلولات بأجمعها «أنا وأنت» فوق الحيوانية والمادة مصوغة في ألفاظ يسكبها الفن ويصيغها مجسمة تجسم الجمال والمثل العليا، حصولاً للذة الروح ودواماً لنشاط الحياة.

خذ الشعر من الأدب فما يبقى من أركانه؟ وخذ الفن من الحياة فما يبقى من جمالها؟ أين الحسن، أين الذوق، أين المدنية أين العمران!!!

هو ذا الإنسان إن فقد الذهن فقد العلم وإن فقد العاطفة فقد الفن وإن فقد الإرادة فقد العمل وإن فقد الجميع فقد الحياة بل عماء وجمود وموت، وفناء!!!

هذا معنى الشعر ومقامه. وأما النهضة فالمقصود منها الحركة بعد الجمود واليقظة بعد الغفلة لتدارك ما فات واستكمال ما يلزم من الحاجات بأنفع الطرق وأسهلها وتهذيب الطبائع والدوافع والأطوار حتى لا تطغى عليها الغرائز، وإنماء القوى الروحية والعقلية حتى لا تسقط وتنحط تحت ضغط المؤثرات الخارجية المادية والعوامل الداخلية المعنوية وهذا لا يتم إلا باشتراك قوى العقل وقوى الأدب وقوى الروح.

فهل من هذه المقدمة الوجيزة يتراءى لكم أثر الشعر في الأمم.

قال أحد علماء السياسة والفلسفة الاجتماعية الأستاذ [هو كينغ] إن مقاييس التمدن ثلاثة. «الأولى» في الأمور العملية وهي [مقدرة الأمة على استخدام قوى الطبيعة بتطبيق مبادئ العلم والاقتصاد والعمل.

ثم الأخلاق العامة التي تحفظ الترابط الاجتماعي وتضمن الاطمئنان والهدوء الروحي ثم حالة الشعب من حيث صيانته من الأمراض والعلل ومداواته من الآلام ومنعه من البؤس والشقاء].

«والثانية» في الأمور العلمية وهي [المقدرة على حكم الشعوب الأخرى ثم يكون المشاريع الكبرى وحسن ادارتها واستثمارها، ثم الاختراع والاكتشاف].

«الثالثة» في الأمور الأدبية والمعنوية وهي [نبل الأفكار والمبادئ وسمو اللغة وسعتها وحسن الآداب وعذوبة المحادثة وكرم الضيافة والذوق والرقة وبداهة الشعر والشعور في ما وراء الطبيعة].

فإذا صدقت هذه المقاييس وعدت عوامل في نهضة الأمة وتقدمها فهل يبقى إبهام لفهم تأثير الشعر وعلاقته؟.

وزيادة في الحجة يجب أن نبرهن فيما إذا كان الإنسان في حاجة للشعر دائما وهل ضرورته في جميع أدوار رقيه؟.

لا شك بأن الشعر حاجة ضرورية كبقية الحاجات الآيلة لتغذية القوى الأدبية والمعنوية وإشباع العواطف والغرائز، كما بينا وحيث إنه أحد أركان الفن، والفن بأنواعه متمم وضروري لها وحيث إن الغرائز ومنها غريزة الجنس وغريزة حفظ الذات كما يقول «فرويد» سببا وجود الدين والمدنية والعمران والاجتماع، والقوانين حتى الأحلام، وحيث إن الشعر من أقوى الوسائل لتصويرهما وإرضائهما فهو لذلك ضروري وسائر مع الرقي في جميع الأدوار.

والشعر مهما يكن فقد نطق به الإنسان منذ أقدم العصور ورافق الغناء والموسيقى وتقدم جميع مظاهر الفن وثبت أنه موهبة تنمو في البعض كثيراً وتقل أو تنعدم في البعض الآخر وتتوارث، ويؤثر في نموها عامل المحيط وتجلوها التربية،

والزمن والعادة. ومن كانت فيه قوية أبعدته عن مجهودات الذهن والتعمق في المعرفة والاستنباط والقياس لأنها تستفز العاطفة وتستنفذ قوى العصب والدماغ وتبدو شاذة ويكون لشذوذها أثر في تطور الخلق، ولهذا كان الشعراء في كل واد يهيمون وكانوا أكثر الأفراد شذوذاً في طبائعهم، وأطوارهم، وعلاقاتهم وحوادثهم.

والشعر كسائر الفنون الأدبية والجميلة إن لم يتوافق مع طبيعة المحيط وذوق الأفراد والشعب ويتلاءم مع الحاجة ورقي الفكر وتقدم العصر قلَّ تأثيره ونفعة، إذ الحركة والجمود والتقدم والتأخر أضداد لا تجتمع ولكل مجال مقال، ولكل مقال زمان.

ولكي يؤدي الشعر غايته السامية كما تؤدي الأحلام الصحيحة غايتها، والشعر من نواح عديدة (حلم اليقظة) ومن نواح قليلة «يقظة الحلم» ويكون موطناً للإلهام. ومداراً لإرضاء النفوس، وقوة لإثارة العواطف يجب أن يكون ناقلاً صادقاً للمشاعر والعواطف والأفكار عندما تتأثر بصوت الطبيعة وتلمس أثرها، وتمس جمالها وتلاحظ صورها وصور الكون البديعة وعندما تشاهد الحوادث وتكثر فيها الهواجس وتزدحم عليها الأهوال والمصائب والآلام أو تنهال عليها اللذات والأفراح.

والشعر لا يصدق التعبير ولا يحسن الدخول إلى القلوب التي لها لغتها القائمة على الذوق السليم ولم يصور ألوان المروج وانعكاسات النور وينقل ما يعلمه البدر وأخواته الشمس والنجوم، إذ هي تشرق على الأكوان وتظهر في وحي الليل وترى ما يعمله المحبون والعشاق بين الأشجار وفي الغابات وفي القصور أو ما يرتكبه المنتحرون ويعمله المجرمون ويصف ما يكون على الشواطئ أو في قاع البحار أو في صحارى اللانهاية – وأن يحمل تباريح الجوى، وأحاديث النجوى وأسرار الغرام والهوى وما تتناقله الأعين وما تؤديه الشفاه وما يجري من همسات وغمزات وإشارات لاسلكية وأن يترجم ما يشعر به الطفل والولد والأم والوالد والأمم والجماعات والطبقات، وما تحويه نغمات الأطيار، وأصوات البلابل، وهدير المياه، وحفيف الأشجار ورعود السماء

وبروقها، وما تشير إليه قطرات الندى وجيوش الغمام وما تكتبه يد القدرة في سفر التكوين وعلى قمم الجبال وسفوحها وفي الوديان والسهول والغابات والفراديس والرياض والقفار، وما تعانيه البشرية من لذات الحياة وبؤسها وخيرها وشرها ويجب أن يتحدث للأجيال عما للأجداد وأن يستظهر التاريخ وصوره والحوادث ومعانيها، وأن يجسم الحب والجمال وينقش وحي الأفكار وينظم كوامن النفس وقراراتها ويقوم مقام الكهربائية في نقل الأفكار ومقام العقل في قراءتها ويحرك العواطف ويشحذ الهمة ويخلق القوة ويوجد العمل.

فإن كان كما يجب وكانت ألفاظه مصوغة من الرقة، والتناسب، والانسجام وحافظة لتمام المعنى ومطابقة للإفهام للطفل والعامة والخاصة ومطابقة للواقع وموافقة للحال وإيقاع الموسيقى وسار حيثما تتطلبه الحاجة في التراتيل والعبادات والحروب والأفراح والأحزان والرقص والتمثيل والحركة واللهو والسفر والحل والترحال والركوب والطيران، فأثره في تهذيب الأمة ثابت ولا يتقدمه أي عامل آخر مادام هو أقرب المقربين إلى العواطف والمشاعر.

وحيث إنه فن والفنون لا حدود لها ولا قيود تقيد متسعها ومرماها بل هي قيد النسبة، والزمن والذوق والاعتبار والحاجة، فتقييده الشعر بأحكام محدودة واعتبارات لا تتغير ولا تتبدل يجردانه من الروح التي تحرك الفن وتسير به إلى الكمال، وإذا أدركنا هذه الحقيقة عللنا جمود الشعر العربي في عصرنا الحاضر ومنذ ثلاثمائة سنة حتى الآن.

إن الشعر العربي الغني في مواده الصناعية ولغته الشعرية وبلاغته وفصاحته قد رافق الأدوار التي مرت بهذه الأمة وخدمها أيام جاهليتها وأيام فتوحاتها وأيام حضاراتها وأيام علمها وصناعاتها وتفوقها، خدمها في جميع النواحي وكان يتكيف بحسب الحاجة وطبيعة المحيط، ولما توقفت الأمة عن التقدم وقضي على استقلالها

وطغى عليها الجهل توقف الشعر وقصر في مهمته.

واليوم وان بدأ يستعيد نشاطه ويجدد قواه فالحاجة إليه ليست في كثرة قائليه ولا بكثرة منتوجاتهم ولا بالرجوع إلى ما كان عليه الأقدمون ولا بتخصيصه بطراز واحد ولا لطبقة واحدة مع أن الشعر للجميع، بل بتثقيفه وتهذيبه وتلوينه بألوان الحضارة وإملائه بعناصر القوة ومولدات الحركة وقاتلات الجراثيم، ومكثرات الفيتامين ومهدمات القيود، ومهشمات الاستعباد، وباعثات الهمم وموقدات النار، وبتنويعه وبتوسيعه حتى يملأ جميع القلوب وتهضمه جميع الأفكار وتستسيغه جميع الأذواق.

وكما هذا شأن الشعر العربي فشأن الموسيقى لا يقل عنه، كلاهما يحتاجان لجمال الفن وتطور الزمن.

وفي الختام إن صح قولي فتأثركم مما قيل وسمعتم وأثره في نفوسكم لخير دليل والسلام عليكم.

عبدالرحمن بك الكيالي

****

هنيئاً لك

أبا عبدالله إمارة الشعر

بدوي الجبل

نشرنا في العدد الماضي من «الصياد» رأي الشاعر الكبير «بدوي الجبل» في شعراء سورية ولبنان وقد جاء فيه أن أمين نخلة هو أشعر شعراء هذا البلد، وأن بشارة الخوري لم يعد ذلك الفارس المجلي!

ويظهر أن هذا الرأي لم يرق لأديب معروف في لبنان فجاءنا غاضباً محتجاً ثم دفع إلينا بأحد أعداد جريدة «البرق» وقال: خذوا اقرأوا، بل وانشروا على الناس رأي بدوي الجبل في بشارة الخوري...

وقد قرأنا في «البرق» كتابا كان أرسله بدوي الجبل إلى بشارة الخوري بمناسبة نشر قصيدته الخالدة «عمر ونعم» ونزولا عند رغبة الأديب الغاضب ننشر في ما يلي نص هذا الكتاب(*)، قال بدوي الجبل:

أخي... الله أكبر، ما هذا يا رجل؟ والله إن قصيدتك في عمر ونعم لأخلد من عمر ونعم.

وقسم آخر: والله لم ينظم في العربية كقصيدتك هذه. لا أستثني شاعراً ولا أستثني شعراً لا في قديم التاريخ واللغة ولا في حديثهما.

هنيئاً لك أبا عبدالله إمارة الشعر. من غلمانك عمر، من حجّابك المتنبي، ومن حراسك شوقي، ومن ندمائك ولي الدين.

أمتع الله بك لبنان، بل الجزيرة بأسرها بل العبقرية والخلود.

بدوي الجبل

محمد سليمان الأحمد

****

■ الصياد ، السنة الأولى العدد ٣، ص٩، سنة ١٩٤٣.

(*) انظر نص هذا الكتاب وصورته في «رسائل إلى الأخطل» من إصدارات مؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود

ابيض

شاعر الهوى والشباب

محمود تيمور

خلوت الى «ديوان الهوى والشباب» ساعة، أسائله عن صاحبه، وأزداد من تعرف به، فأنست وطابت لي النجوى معه، واستروحت منه متاعاً وسلوة، طويت الكتاب في إكبار له، وانثنيت الى نفسي أسائلها: لطالما نعى النقاد على الشعر العربي أنه غنائي كله، ولطالما أهابوا بشعراء العربية أن ينزعوا تلك المنازع التي يحفل بها شعر الغرب، فهل قصد النقاد في نعيهم على ذلك الشعر وإهابتهم بأولئك الشعراء، أن يحرموا أدب العروبة هذا اللون الذي نستشرف أطيافه الخلابة في قصائد الشاعر «بشارة الخوري»؟، يحضرني هنا قول شاعر الهوى والشباب:

الصوت موهبة السماء فطائر
يشدو على غصن وآخر ينعب
يا هند إني كالهزار فإن يكن
هو مذنباً فأنا كذلك مذنب

في هذه الهتفة الصادقة مفتاح الجواب الصادق.. فإن ألوان الشعر ومنازعه، توزن ويفاضل بين بعضها وبعض، بما يكمن فيها من قوة الموهبة، وأصالة الفن وصدق التعبير، قبل مختلف القيم والاعتبارات وبذلك يدين شاعرنا في قوله:

إن لم يكن لك حسن الوجه تعرضه
فقد ظلمت به أثوابك القشبا

على أن الشعر الغنائي باق ما بقي الكائن البشري نَزَوعاً إلى التغني بما يجيش في وجدانه، ولوعاً بالتعبير عن مباهجه وأحزانه، تخالجه تلك المشاعر

■ الأديب – السنة ١٢ – م٢٥ – ص٧١ – عام ١٩٥٣.

الرقاق، كأنها نبضات القلب الحساس، هادئة لا تكاد تبلغ الأسماع، ولكنها هي السر كل السر في ضجيج الحياة وجلبة الكون جميعاً.

ولعل شاعرنا كان ينظر الى هذه القضية الأدبية حين قال في تحيته «للمتنبي» :

لم ألق كالشعر مظلوماً فقد حشدوا
لحربه حسد الحساد والنُوَبا
يرمى بكل قبيح من مثالبهم
ويرفعون له الأنصاب إن ذهبا
مثل المسيح تغالوا في أذيته
وألّهوه ولكن بعد أن صُلبا

هذه نفس شاعرة، توهجت فيها العاطفة أكبر ما تتوهج، ورقّ إحساسها بالحياة والمجتمع وحلقت في آفاق من الأخيلة رحاب، فرفَّ تعبيرها نغماً جميلاً يترسل على السمع كأنه رقية ساحر..

وصاحب «الهوى والشباب» يعرف ذلك من نفسه حين يقول:

قسمت فؤادي بين بؤسي والهوى
فهذا له شطر وهذا له شطر

لقد توافر له أجمل ما يتوافر للشاعر العربي من خصائص البيان العربي، فاللفظ منتقى، والنسج رقيق، والقوافي ميسورة عليه لا يتكلف لها، ولا يعيا بها، وإن امتد نفس القصيد.. ولكن هذه المزايا تحتشد من ورائها عبقرية التصوير والأداء، تلك العبقرية التي تسفر بها الأخيلة والمعاني جديدة الطابع، طريفة الإطار، تسجل لصاحبها طرازه الخاص بين شعراء عصره بل شعراء الأدب العربي منذ العصور المواضي الى يومه الحاضر.

أعجب العجب في ديوان «الهوى والشباب» ذلك الشعر الذي نسميه «شعر المناسبات» فقد احتوى الديوان قصائد من نحو المرثيات والاجتماعيات، ولو أننا أغفلنا

عنوانات هذه القصائد، وأنشدنا أبياتها نستجلي ما فيها من المعاني، لراعتنا منها صور شعرية، لا ترتبط بالمناسبة، ولا تستمد منها ما فيها من قيمة فنية.

هذا مطلع قصيدة له:

حكمة الدهر أن نعيش سكارى
فاجمعا لي الكؤوس والأوتارا
واجلواها دنيا ممتعة الحسـ
ـن كما تجلوان إحدى العذارى
فانهب العيش لا أبا لك نهباً
واطرح عنك وجهك المستعارا
لست مهما عمرت غير جناح
حط في الدوح لحظة ثم طارا

ليس هذا مطلع قصيدة لهو ومجون، وإنما هي أبيات تمثل لك فلسفة الحياة وحكمة الوجود، وتصور لك في مجراها الى منتهاها نفساً شاكية تلتاع أسى لما يلقى النابغون من ظلم الدهر وجحود المجتمع ..إنها قصيدة في تأبين الشاعر «جبران خليل جبران».

واستمع الى قوله:

أيها الجدول الوديع الذي يـنـ
ـشر سر الحياة في جريانه
أيها المدمع الحنون الذي لولاه
ما افتر مبسم عن جمانه
أيها المنشد الكئيب الذي تسـ
ـمر زهر الدجى على تحنانه
أمن العدل أن تعفر في التـ
ـرب ويزهو ورد على أغصانه
أمن العدل أن تنام على الصـ
ـخر ويغفو قطر على ريحانه

أمن الـــعـــدل أن تـــنـــوح عـــلـى الـــعـــشـ
ـب ويــــشــــدو طـــيـــر عــــلـى أوكـــــانه
هـــكـــذا الـــشـــاعـــر الـــشـــقي يـــغـــني
فـــــيــــــغـــــذي الأفـــــراح من أحــــــزانه

بهذه الصورة الشعرية الشاجية يرثي الشاعر صديقه «الياس فياض».

وفي قصائده: «الجبل الملهم» و «تحية فلسطين» و «زاهرة الربى» أمثلة من شعر المناسبات، تريك منهجه في استيحاء موضوعه، واستلهام مناسبته، بروح الشاعر وطبعه، فهو لا يجرد من نفسه خطيب محفل، ولا واعظ منبر، ولا فيلسوف صومعة، ولا صواغ قافية، وإنما هو شاعر هيمان الروح يتصيد بشاعريته روائع من الصور الفنية تحمل في ثناياها سريرة الحياة وجوهر الوجود.

لقد خلص «بشارة الخوري» بشاعريته للحب والجمال والخير، فهو وصاف الجمال في المعاني والصور، وهو يتغنى بالحب أروع التغني، فلا غرو أن يحنو على ذكرى المحبين يصور وجدهم وأشجانهم في قصائده: «عروة وعفراء» و «عمر بن أبي ربيعة» و «سلفين وجيروم».

وإنه ليبث آلامه لمآسي الحياة في قصص شائق، كما في قصائده «الريال المزيف» و «المسلول» و «عذراء لبنان». ولست أدري وقد آنس الشاعر من نفسه هذا التوفيق في صياغة القصة الشعرية، وعرض الشخصيات في ذلك المعرض الجميل، كيف ضن على الأدب العربي بالتمثيليات المطولة وضعاً أو ترجمة وهو على النهوض بذلك قادر، وعسى أن يكون قد فعل، أو لعله فاعل.

شاعرنا يهز نفسك في مطاوي شعره بوثبات من التأمل والتفكير تملك عليك لبك، إذ تتبين فيها وعي الشاعر في تعرف أسرار النفوس وخفايا الحياة.

يقول في قصيدة «المتنبي»:

طـلـبت بـالـشـعـر دون الـشـعـر مـرتـبـة
فـــشـــاء ربك ألا تـــدرك الـــطـــلـــبـــا

إذن لأَثــكــلـتَ أم الـــشــعـــر واحـــدهـــا
وعـــطَّل الـــوكـــر لا شـــدواً ولا زغـــبـــا
لـــولا طــمــاحك مــا غــنــيت قــافــيــة
بــوأتــهــا الــشـمس أو قــلــدتــهــا الــحــقــبــا
قــد يــؤثــر الــدهــر إنــســانــاً فــيــحــرمه
من يمــنـع الــشــيء أحــيــانــاً فــقــد وهــبــا

وهكذا يمجد في «المتنبي» ذلك الحرمان الذي آتاه شاعريته والطماح الذي ألهب نوازع نفسه، وهو بذلك يكتشف لنا سر عبقرية «المتنبي» في لمحة شعرية بارعة.

وقد سوى لنا شاعرنا تمثالا من الحسن في فتاة تشكو الى أمها وفرة المتهافتين عليها، وذلك في قصيدته «هند وأمها» وختم القصيدة بقوله:

فـــقـــالت وقـــد ضـــحـــكت أمـــهـــا
ومـــاست من الـــعـــجب في بـــردتـــين
عـــرفـــتـــهم واحـــداً واحـــداً
وذقت الـــذي ذقـــتـه مـــرتـــين!

وتلك لفتة إنسانية عميقة، تجلو غريزة في نفس المرأة أصيلة وإن سيقت في القصيدة مساق الدعابة والمفاكهة.

وأنت تقرأ مترجمات الأستاذ «بشارة الخوري» من الشعر الغربي، فإذا هي في حضانة شاعريته قد نمت وترعرعت وبدت عربية السمات، مأنوسة الطابع، لا تكاد تحس فيها أثر النقل، فلو شاء ادعاها لنفسه لا ينازعه فيها أحد.

حيا الله شاعر الهوى والشباب، ولا خلت يده من دنياه التي يقول فيها:

من كـــان من دنـــيـــاه يـــنـــفض راحه
فـــأنـــا عـــلـى دنـــيـــاي أقـــبض راحي

محمود تيمور

****

ابـــــــــــــــــــــــــــــــــــــــيــــض

رد علـــى
«حول رائعة الأخطل الصغير»

المحامي جمال مرسي بدر

اطلعت في عدد مارس من «الأديب» ١٩٥٣ على كلمة الأستاذ عبدالقادر رشيد الناصري من بغداد عن لامية الأخطل الصغير المنشورة في عدد فبراير وفيها يرجع الكاتب الفاضل بشارة الخوري:

عـيـد الجـلـوس أعـرني مـنك بـارقـة
أريك لـيل الـقـوافي كـيف يـشـتـعل

إلى بيت أبي تمام في لاميته التي مدح بها المعتصم:

تـغـايـر الـشـعـر إذ سـهـرت له
حـتى ظـنـنت قـوافـيه سـتـقـتـتل

وعندي أن الصورة الشعرية في بيت الأخطل الصغير غيرها في بيت أبي تمام فحبيب يجعل من قوافيه اشخاصا تتنافس في إرضاء الممدوح وتتقاتل على الظفر بمكان في قصيدة مدحه، وهي رائعة من روائع أبي تمام لم يفت نقاد الشعر أن يشيدوا بها قديما وحديثا.

أما الأخطل فيصور استلهامه الوحي من موضوع قصيدته فيخاطب «عيد الجلوس» مستعيراً منه بارقة يحيل بها ليل القوافي نارا مؤججة ونورا ساطعا، فالصورة هنا تدور حول علاقة الشاعر بموضوع شعره وتصور ما يفعله الخيال الشعري إذ يواتيه الإلهام فيكفيه أقل باعث كي يحلق في سماء الشعر كل محلق.

ولئن كانت بين البيتين جامعة فهي أن كليهما استعارة بديعية تدور حول القوافي،

■ الأديب، ١٩٥٤ سنة ١٢، ص٦٦.

ولكن ذلك لا يكفي للقول بأن أحد البيتين مأخوذ عن الآخر. ولئن صح أن بشارة الخوري قد نظر في بيته ذاك إلى بيت أبي تمام فإن تحويله المعنى من مجال إلى مجال ينفي عنه مظنة النقل بحيث يصدق عليه قول الجرجاني في «الوساطة»: «... تشترك الجماعة في الشيء المتداول وينفرد أحدهم بلفظة تستعذب أو ترتيب يستحسن أو تأكيد يوضع موضعه أو زيادة اهتدى إليها دون غيره فيريك المشترك المبتذل في صورة المبتدع المخترع» [ص ١٨١ طبعة القاهرة سنة ١٩٤٥].

لهذا أجدني أميل إلى رأي زملاء الأستاذ الناصري الذين وجدوا في بيت الأخطل الصغير معنى جديداً وصورة شعرية لم يُسبق إليها، وليس ذلك بمستغرب من ذلك الشاعر الفحل، ففي القصيدة ذاتها نجد بيتاً أظن الأخطل الصغير ابن بجدته، ومعنى أرى أنه مفترع عذرته وذلك إذ يقول:

جذبت زهر الدراري من غدائرها

فلم يزل في يدي من شعرها خصل!

وإني لأذكر للشاعر بيتا آخر فريداً في صنعة عاصر الخمر أو ساقيها وذلك قوله:

يا ذابح العنقود خضب كفه

بدمائه بوركت من سفاح!

وأعتقد أن هذه الصورة لم يُسبق إليها بشارة الخوري على كثرة ما في الشعر العربي قديمه وجديده من خمريات تتناول وصف مجلس الشراب وعاصر الخمر وساقي الندامى، ومن اقترب من هذا المعنى من الشعراء لم يزد على الإشارة إلى حمرة أنامل الساقي لكثرة معالجته الخمر وذلك كقول الأسود بن يعفر النهشلي:

يسعى بها ذو تومتين مشمر

قنأت أنامله من الفرصاد

فهل أصبت إذ أفردت الأخطل الصغير بهذا المعنى أم تراني قد غفلت عن شعر قديم سبق إلى هذه الصورة المطربة؟.

المحامي جمال مرسي بدر

الأخطل الصغير

فوزي سابا

ولد في بيروت ١٨٩٠ ودرس في مدرسة مطرانية الروم في الأشرفية ثم تركها الى مدرسة الحكمة ومنها الى مدرسة الفرير، على أن شيطان الشعر والأدب حمله على ترك المدرسة فأنشأ جريدة البرق سنة ١٩٠٨ أي في أعقاب الدستور العثماني، واندمج في الصحافة فتغلب شيطان الشعر على الصحافة فإذا به يجدد أمجاد الأخطل الكبير ويتلقب باسمه، وقد عرف العالم العربي فضله فبايعه أميرا للشعراء سنة ١٩٦١ في حفلة ضخمة في الأونيسكو ..

اشتهر شعره بالرقة والغزل، على أنه، وهو من الرومنطيقيين الأوائل في لبنان، لم يستطع إلا تطعيم هذا الشعر بالتأثرات الوطنية:

مؤلفاته:

– الهوى والشباب، مجموعة شعر، ١٩٥٣– شعر الأخطل الصغير، ١٩٦١ .

– مخطوطات: من بقايا الذاكرة، وهو مذكرات وخواطر.

١ - أبوعبدالله بشارة الخوري:

نمـــيل عـــلى جـــوانـــبه كـــأنـــا
إذا مـــلـــنـــا نمـــيل عـــلى أبـــيـــنـــا
نـــقـــلـــبه لـــنـــخـــبـــر جـــانـــبـــيه
فـــنـــخـــبـــر مـــا شـــمـــمـــاً ولـــيـــنـــا

عرفته والعود أطراه، وهو على ناصية الارتياح ، يشار اليه بالبنان، ويُصغى لكل همسة تجول على شفتيه.

■ المواسم ، آذار ١٩٦٦، العدد الأول، السنة الأولى.

كنت أسمعه من على المنابر بصوت يوحي إليك الألم المفرح، فيه نعومة ورقة على بحة تجمل الجرس، وأقرأه في الصحف زمن العافية الأدبية في لبنان، أزمان ينادون على صحفهم باسم قصيدة لشاعر كبير، أو مقال لأديب مرفه اليراعة، لكن النشوة المفيحة لم تكتمل إلا بلقياه.

ذلك وقد انصرم العام الدراسي سنة ١٩٣٦ . وكنا رفاقا أنهوا دراستهم وآن لهم الافتراق بعد زهو صحبة، فراحوا الى الليل في طواف وثني لكأنهم ينهلون العمر على قطرة، وكان آخر المطاف عند – أبوعفيف – ملقى الأدباء والشعراء آنذاك.

رفاق أخذتهم شتى المعتقات، ولم يبق لديهم ما سيتمطرون سوى الابتهال ليكون لهم حدس بأمر، وأبوعفيف، زمن الدنيا فتية، زهو وأدب وشعر، لكأنه عكاظ على مآدب، فلا تبرح الكهرباء مشعة في أرجائه، والطرف الأدبية تتناثر في أفواه الخيرين.

كم يذكرني – أبوعفيف – بصاحب ذلك المقهى، أبوالياس، الذي كان يجتمع إليه الأدباء والشعراء، ضحى القرن العشرين، على فارق واحد، هو أن – أبوعفيف – كان غالبا يقبض ثمن المأكل والمشرب، أما أبوالياس فكان يقول لزوجته آخر الليل، وقد تركه أصحاب القلم على – تصبح بخير – قومي كنسي (أشعار) يا أم الياس ..

أبوعفيف، كان يتناول الشعر ويخمره من يوم الى آخر، ذلك أن مجالس الأدب كانت تستمر على دوران الساعة.

الساعة الواحدة بعد منتصف الليل، والخمرة مالت الى الوجوه بعد عربدة مثلى، ونحن نلمح في إحدى زوايا أبوعفيف، بشارة عبدالله الخوري، الأخطل الصغير على انسجام والكأس.

ودرنا من حوله، فإذا بنا والمجلس صخب وابتهال وكأس تدعو الى كأس وكأن بشارة الخوري عنانا بقوله:

ونحن حولك عكّاف على صنم
في الجاهلية ماضي البطش قاهره

أبوعبدالله بشارة الخوري، وكأس وشباب ولا يكون الشعر لماظة الأرواح؟ وكان الحاكي ينشد لمحمد عبدالوهاب:

يــا ورد مـــين يــشــتـــريك ..

لكأن سلكاً مسَّ شاعرنا كاد يوقع الكأس من يده، – سامح الله محمد عبدالوهاب فقد أجبرني أن أصبح زجالا مصريا.. هذا الورد لم يكن كما يغنيه اليوم، لكن رغبته جعلتني أمسخ القصيدة – قصيدة الورود. وعلا الهتاف ولججنا بالطلب على قرقعة الكؤوس، وكيف، وما هو أصل القصيدة؟ وتحتم الأمر على الأخطل الصغير، إذ لا رأي في مجلس كالذي نحن عليه، قال: كنت ذات صباح وعبدالوهاب في حديقة الورد قرب منزلي، وبينما نحن نرشف القهوة نظرت الى وردة وشّاها الندى بأعراق ونقطها باللؤلؤ، وكان عبدالوهاب وراء أحد أفلامه وقد طلب مني قصيدة، فجذبتني. – الوردة الشهوان الى الشعر، فقلت:

يـــــا ورد عــــــاش الــــــورد
طـــــاب الـــــذي شــــــمك
يـــــا بــــرعــــمــــاً في نــــهــــر
شـق الـــــهــــــوى كـــــمك

أعجب عبدالوهاب بالمطلع لكنه رغب إلـيَّ أن أجعل القصيدة زجلا ذلك أن الجمهور المصري يرغب في الأزجال عن القصائد، لا سيما وكان قد لحن قصيدتي – الصبا والجمال – للفيلم ذاته ..

يحملني ونحن على هذه الذكريات، رجوع إلى حادثين وقعا لبشارة الخوري أحدهما مع محمد عبدالوهاب والثاني مع سيدة أديبة.

كان محمد عبدالوهاب، يقوم بإخراج أحد أفلامه في باريس، وشاء أن يحليه بقصيدة من بشارة فأبرق إليه ملحّاً بالطلب، استلم بشارة البرقية* صباح يوم ربيعي

*** – انظر حول هذا الموضوع نصوص رسائل محمد عبدالوهاب وصورها إلى الشاعر في كتاب «رسائل إلى الأخطل الصغير»، مرجع سابق، ص(١٣٥–١٤٠)**

العبق ندي الرواح، وهو بين بساتين الليمون المحيطة بدارته، فما كان إلا وقد كتب على ورقة البرقية ذاتها مطلع قصيدة – جفنه علم الغزل:

جفنه علم الغزل
ومن العلم ما قتل
فحرقنا نفوسنا
في جحيم من القبل

وأرسلها على جناح البرق إلى محمد عبدالوهاب، الذي حار، عند استلامها، على أي الألحان يطلقها، وبينما هو في حيرته هذه، إذ بأنغام الرومبا تتصاعد من مقهى بالقرب من غرفته فتآخى الشعر والنغم ودخلت الرومبا للمرة الأولى في الغناء العربي..

والحادث الثاني وقع في دارة إحدى الأديبات، والمجلس على شراب وشعر، وكانت السيدة ولوعة بجمع تواقيع الشعراء على نفثة من أطايبهم تدون في مذكرة عطرية الشذا حريرية الرقاع، فتقدمت من بشارة، والمجلس أنس الى الزهو والحنان، والجمال على أشكاله وأنواعه، مواسم قطاف، تقدمت وسألته أن يدون خاطرة في مذكرتها تلك فكتب:

تهوين أن أملأها صفحة
بيضاء كالقلب الذي تحملين
برئت من عقلي وشعري معاً
إن كنت أرضى لهما ما يشين
أأحمل السحر الى بابل
وأسكب العطر على الياسمين

وكان بدء أدب المذكرات ... هكذا عرفت بشارة عبدالله الخوري، وهكذا عرف هو اللين والأناقة والرقة الى العالم.

صخب مجلسنا عند أبوعفيف، قادني الى معرفة الاخطل الصغير معرفة حق فبقينا على وداد أهلني لأحمل القلم محاولا بعث تلك الأيام، فلا يذهب بها النسيان ويتطرق الى وضاحها شكوك.

عرفته على المنابر، في الجامعة الأميركية مع – عمر ونعم – وفي الحكمة وفي الأقطار العربية جمعاء، ففتح لي أن أتعرف الى الحس المرهف والنفس الطويل والروح الطيبة فالكلمة ملساء متى تناولها بشارة. والأطياب منغمة متى تمر على يديه، ففي مجالسه على كثرة آهات التطريب، لا يميل خاطر عن الجمال متى انشراح مؤنق مع لطافة مطلب وأناقة بلوغ.

عرفت بشارة، وقد نقم عليه فتيان أطلعهم وأنشأهم ثم أطلقهم فحق له عليهم القول:

وكم علمته نظم القوافي

فلما قال قافية هجاني

وهنا لا نستطيع المرور بهذا المجال دون النظر الى الظروف التي أدت الى تمكين العلاقات بين الأخطل الصغير ومحمد عبدالوهاب كما رواها لي الأخطل الصغير ذاته:

عندما جاء أحمد شوقي لبنان في طريقه إلى دمشق للاشتراك بالحفلة التأبينية التي أقامتها سوريا لفوزي الغزي اصطحب محمد عبدالوهاب، وبما أنني كنت أحد خطباء الحفلة قد جمعتني به عدة مناسبات إحداها في قصر رئاسة الجمهورية في عاليه.

كنا جماعة نأنس الى الطرب، وكان بيننا شاب مصري ذو صوت رخيم، ينشد على هواية بعضاً من أشعاري، ويظهر ان محمد عبدالوهاب سمعه ينشد أبياتي:

الهوى والشباب والأمل المنشود

توحي فتبعث الشعر حيا

الهوى والشباب والأمل المنشود

ضاعت جميعها من يديا

يشرب الكأس ذو الحجى ويبقي

لغدٍ في قرارة الكأس شيا

لم يكن لي غد فأفرغت كأسي

ثم حطمتها على شفتيا

وبعد انتهاء المأدبة، وبينما نحن نتناول القهوة جاءني صديق يطلب مني الخروج الى الشرفة حيث يقدم الي عبدالوهاب. على شرفة القصر الجمهوري في عاليه التقيته، على أناقة وشباب، ودار بيننا الحديث حول الشعر، ليطلب مني السماح له بتسجيل قصيدة «الهوى والشباب»*، وبما أنها كانت قصيدة لا تكفي – لأسطوانة – فإنه سألني أن أضيف اليها بعض الأبيات.

لم أجزم له بالأمر، إنما وعدته أن أجرب جهدي عندما أعود من الشام الى بيروت، ويظهر أنني استطعت إكمال القصيدة، فلم يمر أسبوعان حتى كانت بين يدي عبدالوهاب تتهادى على تيه المدل.

وهكذا كانت أول معرفتي به، هذه المعرفة التي تحولت الى صداقة، وألفة، جعلته لا يأتي لبنان إلا ويحل ضيفا علي حيث نقضي أجمل الأوقات بين حدائق الورود.

عرفته ذلك الأب الكريم، لا شفقة منه ولا عجزا، بل أنفة وسماحا، فما مر بهم، على الهالات التي أداروها حول أسمائهم، إلا على فضائل، ولولا ألم يصيب نفس هذا الكبير، إن نحن سللنا الأقنعة لكشفنا الوجوه ورحنا الى الأسرار نستلها لكن هناك حوادث خجل هو من ذكرها، كي لا يعاب الذين أتوها، ولم يخجل فاعلوها بل راحوا ينشدونها هنا وهناك ..

من ذلك، وقد روى الحادثة صلاح لبكي في كتابه لبنان الشاعر، ومنتدى «وست هول» في الجامعة الأميركية مهرجان للشعر والأدب، والنخبة المثلى على تلهف للإصغاء، أنشد الأخطل الصغير عصماءه – عروة وعفراء، التي مطلعها:

مهد الغرام ومرتع الغزلان
حيث الهوى ضرب من الإيمان
يتعانق الروحان فيه صبابة
ويعف أن يتعانق الجسمان

(*) انظر حول موضوع هذه القصيدة نص رسالة محمد عبدالوهاب وصورتها الى الشاعر، في كتاب «رسائل الى الأخطل الصغير» مرجع سابق ص (١٣٧ ، ١٣٨)، غير أن عبدالوهاب يشير في رسالته إلى

مـــــا دار ثَمَّ ســــوى الحــــديث كـــأنه
راح يـــديـــر كـــؤوســـهـــا المـــلـــكـــان

وما انتهى، بين تصفيق الجمهور وهتافهم، حتى صعد المنبر الخطيب الثاني وكان لا يزال في ميعة الصبا يشير بأن يصبح شيئا، فخالطه الغرور، وراح ينثر آراءه يمنة ويسرة، من ذلك قوله: «أنا لا أقيم وزنا لأديب أو شاعر، قضى عمراً في الأدب والشعر ولم يصدر كتابا يحمل اسمه، كما أشفق على شاعر يغسل البحر قدميه ويكلل صنين رأسه ثم ينتزع ذاته من هذه الجمالات رائحا الى الصحراء ليدبج قصيدة».

لم يخْفَ مقصد الخطيب الشاب على المستمعين فما انتهى، حتى هتفوا: نريد بشارة نريد بشارة، وما انفكوا حتى صعد بشارة المنبر ليقول: لست بزجال لأساجل إنما تذكرت موقفي من فتيان جاؤوا إلي، فلما اكتمل ريشهم، أو ظنوه، راحوا يطارحونني العداء فقلت فيهم:

ومــعــشــر حــاولــوا هــدمي ولــو ذكــروا
لــكـــان أكـــثـــر مـــا يـــبـــنـــون من أدبي
تــركــتــهم في جــحــيم من وســاوســهم
ورحت أســحب أذيــالي عــلى الــســحب

وراحت بنا الأيام، وبينما نحن على أحاديث الشعر وأزماته، ألمحت إليه بأمر ذلك الخطيب الشاب فأجابني: عفا الله عما مضى، وغفر لمن ابتدأ، كلهم أولادي، وما كان أمرهم بأكثر من عاصفة في فنجان.

لكن كم يصدق الشاعر في حال هؤلاء، - يرضى القتيل وليس يرضى القاتل - ففي المهرجان العكاظي الذي أقيم للأخطل الصغير، تكلم صاحب الحادث، وكنا نأمل أن تكون السنون قد ذهبت بغرور الشباب، وطوت نزواته، وكم كانت دهشتنا عندما رجع إليه، لكأنه ابن ساعته، وحبذا لو اكتفى بالتلميح لعذر، لكنه ذهب الى منتهى

اللامبالاة مضفيا على الحادث أكثر من لون علّه يستطيع إظهار نفسه أنه محب، وغيره تتأكله البغضاء. أما بشارة، فبقي وكأن شيئا لم يحدث، فقلت له: كم يصدق قولك:

كـــلـــمـــا أطـــبـق الـــغـــبـــار عـــلـــيـــهم

حـــشــرجـــوا تحـــته ومـــاتـــوا اخـــتـــنـــاقـــا

فكان يقول لي، إنهم أصدقاء، خلَّص، إنهم طيبون، إنهم شعراء وأدباء لبنان، وما الأعمال إلا بالنيات.

نعم أنفة على لين، وحنان على بذخ، وروح للرضوى عندها أكثر من باب وأبعد من مزار، هذ هو بشارة عبدالله الخوري الشاعر الإنسان ..

زمن الحرب العالمية الأولى، وكم فتح لأناس وكم أغلق على أناس، وكان له لو أراد أن يفتح له على نعم شتى، وقد حاز جميع المؤهلات والوسائل والظروف، لكنه، وهذه من سجاياه، أشاح بكل المغريات من مادية ومعنوية، وألقاب ورتب ليبقى مع الإنسان الذي في صدره... وكانت قصائده، (الريال المزيف)، و (الفقراء)، و (المهى أهدت إليها...) وغيرها، فنقم عليه العثمانيون وكان الاضطهاد والتشريد:

كل لـــــيل تـــــهب من نـــــومـــــهـــــا الأم

وتـــــهـــــفـــــو الى ســـــريـــــر الـــــولـــــيـــــد

حـــــيث تجـــــثـــــو بـــــقـــــربه وتـــــمـــــنـــــيه

بـــــفـــــجـــــر من الحـــــيـــــاة جـــــديـــــد

هذا البلد اللبناني له الحماية الإلهية. فلا يصاب بعباقرته، ولئن، فبقية البقية لها الرضوى المفيحة على الكمال المثالي، ولولا ذلك أكان قدر أن يكون العالم المؤرخ محمد كرد علي في الديوان العرفي في عاليه، وكان له صداقات مع كبار العثمانيين فعلم أنهم وراء بشارة حياً أو ميتاً.

صحبةُ عمْرٍ، كانت علاقة محمد كرد علي بالأخطل الصغير، فهبط الى بيروت مفتشاً عن بشارة ولما لم يجده أسر الى بعض أصدقائه، فتولوا هم ترحيله إلى ريفون بعيدا عن أعين البوليس.

في ريفون قضى بشارة معظم سنوات الحرب العالمية الأولى منتحلا اسم (حنا فياض).

حنا فياض عاش سنوات الحرب في ريفون، يحمل همه وهم اليائسين وما أكثرهم آنذاك في لبنان، وكان للشعر اللبناني قصيدة (الفقراء) وسواها من الخرائد الثائرة على الظلم والاستبداد:

أيها الأغنياء إن غناكم
شيدته سواعد الفقراءِ
القصور التي تقيمون فيها
من بناها لكم سوى الفقراء
والطعام الذي تلذون من هم
صانعوه لكم سوى الفقراء
... لا تقولوا وساوس من فقير
دوخته طوارق الأرزاء
إن للفقر ثورة لو علمتم
تسبح الناس دونها في الدماء

وتأتي الدنيا، ويرتفع الكابوس عن صدر لبنان، وتعود مجلة البرق الى العالم العربي، عروسا مجلوة، زاهية. مجررة الأذيال، ويرجع بشارة الى دارته الهانئة في الدورة، وتدب الحياة الأدبية على عادتها في مكتب ـ البرق ـ وتحلو له الدنيا.

وظن الانتداب أنه يستطيع امتلاك صناجة العرب، الأخطل الصغير ويجعله بوقاً له، فأرجع اليه البرق وغمره بالنعم، لكن أين الثريا من الثرى؟ فالإنسان الذي في صدره أعلى وأكبر من أن تأخذه العطايا المادية، وكانت قصيدة ـ يا أمة غدت الذئاب ـ التي يقول فيها:

يـــا أمـــة غـــدت الـــذئـــاب تـــســـوســـهـــا
غـرقت سـفـيـنـتـهـا فـأين رئـيـسـهـا
غــرقت فــلـيس هــنــاك غــيــر حــطــائم
يــبـكي مـؤبــنــهــا ويــضــحك ســوســهــا
تــتــمــرغ الــشــهــوات في حــرمــاتــهــا
وتــعــيث في عــظــمــاتــهــا وتــدوســهــا
تــعــســا لــهــا من أمــة، أزعــيــمــهــا
جلادهـــا وأمــيــنــهــا جــاســوســهــا

وتلتها قصيدة «الجابي»:

مـن الــنــاعب قــبل الــفــجــر
مـن هـــذا عـــلـى الـــبـــاب
أعـــيـــذ الـــقـــبح من قـــبح
بـــأظـــفـــار وأنـــيـــاب
أقـــبـل الـــشـــمس في الآفـــاق
والـــعـــصـــفـــور في الـــغـــاب
ومـــا زار الـــكـــرى جـــفـــني
ولـم تـــعـــلـــقـه أهـــدابـي
ولا غـــذيـت أطـــفـــالي
ســـوى هـــمـي وأوصـــابـي

فوزي سابا

****

إلى متاهاتنا وافانا... فأحببناه

املي فارس ابراهيم

يوم انطلقنا في متاهات الصبا، سادرين حائرين، نحس ولا نعرف أن نترجم أحاسيسنا إلى كلمات أو أنغام بكم، لا نحسن النطق بالعاطفة، فيحرقنا صخبها المتأجج في المطاوي العميقات، البعيدات المحطات. تائهين ضائعين، في اللاوعي المضني.

يومذاك انطلق إلى هاتيك المتاهات، وأسمعنا من قيثارته أنغاماً شجية عذبة، لكلمات ساحرات تنطلق من السجية الإنسانية التي كنا نعيشها ولا نعيها. فالتفتنا إلى مصدر القيثارة الساحرة، ووعينا أنفسنا وأحببنا المنشد البارع. فكان لنا في جيلنا المطل على مشارف الحياة في حيرته، خير معبر عن مشاعرنا الغامضة، وصار لنا شاعر العاطفة، شاعر تلك الزاوية الحميمة في نفوسنا، فعرفنا الأخطل الصغير. وإن كان من منتقدين لشاعرنا، لأليف نفوسنا ذاك، استرساله في التأملات العاطفية والاختلاجات البشرية، وجعل أكثر إنتاجه من هذا اللون وحسب، فإننا قد نشكره على كونه لم يفلسف شعره، لم يفلسف العاطفة، بل أبقاها على غنى السجية في الكائن الإنسان.

وهنا يقفز إلى الخاطر سؤال خطير، سؤال قد لا يجوز تخطيه في عصر تشابكت فيه شؤون الإنسان من حيث هو كائن اجتماعي، ومن حيث هو طاقة في مجتمعه، يصعب أن ينطوي على ذاته وأن يضيع في مبهمات انخطافاته، مهملا ما يدور حوله من مشاكل.

سؤال يدور حول هل يجوز له أن يبقى غافلا عما يطالع الناس حوله من قضايا وعما يستطيع أن يساهم به من مجهود في سبيل إنجاح تلك القضايا وفك معقداتها؟

- الورود – أيار سنة ١٩٦١ – السنة ١٤ – ج٩.

الجواب هنا ينطوي على سؤال آخر، فأقول: هل أن إرهاف الحس في الإنسان، الحس المعافى الصحيح، يعيق غضبته للكرامة إن أهينت، وثورته على الظلم إن طغى، والاستماتة في سبيل حق إذا اغتصب؟ الجواب عندي، لا!

فكثيرة هي الأمثلة على بطولات أتت من أصحاب أمزجة عاطفية، استرخصوا الموت في سبيل وقفة عز، وقدموا دماءهم بسخاء في عفوية رائعة، قرابين لامست القدسية من أجل انتزاع حق أو رفع ظلم.

إنها خواطر عامة، قد تبدو، وكأنها تدور في مدار المطلقات، فعتبي على صاحب الورود، الصديق بديع شبلي الذي طلب مني أن أقول كلمتي في مناسبة تكريم شاعرنا بشارة الخوري في الجزء الخاص من مجلتنا، بشاعر العاطفة، ولم يمهلني الوقت الكافي للدراسة والمقارنة والاستشهادات، حتى أثبت رأيي بالأسلوب العلمي المفروض في مثل هذه المناسبات.

ولكني رغم ذلك، أصر على القول: إنه من صنّف الشاعر في لون معين، أو من دفعه إلى أن يصنف نفسه في اتجاه معين ولم يتركه على سجيته الإنسانية، مخططا له مجرى معينا، إن من يفعل ذلك يفقد من قوة تأثيره على النفس، ويجمد في هذه النفس قابلية انفعالها، بما يصدر عن زفراته، أو صرخاته، من تأثير صادق، قد يدفع به إلى أروع البطولات.

وهكذا ظل بشارة الخوري في خاطرنا، ذاك الذي أصدقنا التعبير عن مشاعرنا فوعينا نفوسنا. ووافانا إلى متاهاتنا البشرية الحلوة، فأحببناه وتذوقنا أنغامه الساحرة!.

املي فارس ابراهيم

****

بشارة الخوري الصحفي

توفيق وهبة

طغت عليه شهرة الشاعر فتضاءلت عنه شهرة الصحفي. زاول الأخطل الصغير الصحافة يوم كانت الصحافة قلما وفكرا، وزاولها يوم كان الكاتب يحرر الصحيفة من الباب الى المحراب، وزاولها يوم كانت أمجادها تقوم على كتف صاحبها وأدبه وقوة يراعه، فإذا كان الصحفي كاتبا حقا، ومنشئا فذا، تجلت مواهبه على صفحاتها، وراجت صحيفته بفضل هذه المواهب مجردة عن المغريات العصرية والمشوقات الحديثة.

واليوم، ليس من المحتم أن يكون صاحب المصنع خبيرا بالصناعة التي ينتجها، ولا صاحب الصحيفة كاتبا منشئا أو أديبا محررا، فقد قام مقام كل هذا شيء آخر اسمه «كوداك» (آلة التصوير) واسمه «كوتنبرج» (الآلة الطابعة) والراديو، واللاسلكي وشركات الأنباء، والتلبرنتر (اللاقطة) والضارب بالرمل (صفحة الحظ) وواضع الألغاز (الكلمات المتقاطعة) والمخرج السينمائي (صور كواكب المسرح) ومروض الخيول في ميدان السباق، وفضولي المجتمعات الفاضح أسرار المخادع، ومصمم الأزياء النسائية، والراسم الهزلي، ومبدع النكتة، وواضع جوائز من البائع الى المستهلك.

ولا أريد من بيان هذا الفارق بين صحافة الأمس وصحافة اليوم، أن أوثر جيلا على جيل، وأنا القائل: لعصر الآلة آلة عصرية، ولكنني أحب أن أطري بشارة الخوري الصحفي مثلما يطري سواي الأخطل الصغير الشاعر بإثبات أن رواية الصحافة وقتئذٍ، كانت تقوم على بطولة ممثل واحد، فلا إخراج ولا أقنعة ولا تزويق، ولا ملابس كرنفالية، ولا ستار فضي، ولا ملقنون، إنه كان كالخطيب وحده على المنبر، سلاحه حنجرته وفيض قريحته، وسلاح الصحفي فكره وقلمه، فإما أنه ذو فكرة وذو قلم، وإما أنه مفلس خالي الوفاض.

■ الورود – أيار ١٩٦١ – سنة ١٤ – ج٩.

واليوم تستطيع أن تستكتب أهل القلم، وأن تبتاع النبأ، وأن تنوع الألوان، والانتشار. وقد تتوق الى المزيد من المستوى القلمي الرفيع، فتخصص زاوية صغيرة لكاتب كبير وتستطيع اليوم أن تروج لصحيفتك بخبر مثير، ورسم عار، ووضع شهواني وفضيحة كبرى، واختلاق حادث، ثم تجسم هذا الحادث بالسرد والعنوان، فتضمن الإعلان.

واليوم فإن أبطال الصحيفة كثيرون، موزعون على نقاط ستراتيجية ومراكز حربية، تحاصر القارئ، وتسد عليه منافذ الفرار، فللتجار لوحة البورصة، وحركات البواخر، وللمصارف أسعار النقد العالمي، وللطلاب روايات الجيب وصور الممثلات، وللأطفال مسابقات الجمال والألعاب، وللنساء وللبنات أصداء الأزياء. أما المقال الأول المقال الموجه، مقال بشارة الخوري وميشال زكور وعلي ناصر الدين وخليل ثابت، وداود بركات وأحمد حمزة، واستفان لوزان، وأمثالهم من أئمة الصحافة فقد غدا ضرباً من ضروب التنويع لإعلاء الشأن الأدبي أو التذكاري.

والصحافة اليوم ميدان عراك، لشدة المنافسة، فثمة حامل العلَم، هو واضع العناوين الضخمة، وثمة واضع الخطط الحربية أي المشرف على التبويب والترتيب. وحامي المؤخرة أي مغذي الصحيفة.

والجميل في صحيفة اليوم أن كل قائد يجول في ميدانه، وقديما كان القائد الواحد يتزعم مصير المعركة كلها!

كان بشارة الخوري الصحفي، إذ إن أمجاده وأمجاد «برقه» قامت على منكبيه، فكان قطب البرق ومحوره، يسانده على نطاق النكتة الضيق طانيوس عبده في «نقدات طائرة» فكانت البرق تقرأ هياما بقلم بشارة الخوري، وتقرأ الصحيفة اليوم لسعة أبوابها وأخبارها وجمالها الشكلي، أو مغرياتها المسرحية، وتقرأ لفرط ما تثير من موضوعات شائكة، وفضائح اجتماعية، وما تقدم للناس من مضاعفات توقظ فيهم الفضول وما إليه من تسلية وتلهية.

وليس من الضروري أن يكون جميع قادة الصحيفة اليوم عباقرة، أو أن يكونوا متفوقين في البطولة، فالجمع ستار كثيف، والضم ينجد، والجرم الموزع يخف. أما الصحفي البطل المنفرد فإن ضعف قلمه يخذله عند أول صدمة، إذ ليس وراءه ولا أمامه ولا حوله جوقة (كوروس) وليس عنده أركان حرب، وهيئة تحرير، وأسلاك شائكة لاصطياد القارئ، ولا شيء، سوى قلمه وعقله. إنه يحارب وحده، فإما أنه شجاع فيظفر، وإما أنه جبان فيقهر.

وبشارة الخوري حارب وحده وكان شجاعا لأنه كاتب أديب، يحرر بنفسه وبذوقه، واليوم يحرر القراء الجريدة بأقلام وأذواق جماعاتهم وباسم ما سموه التحقيقات (ريبورتاج) بحجة أن الصحيفة ملك القراء، وعليهم أن يسهموا في تحريرها.

إن على الصحفي اليوم أن يتحلى بصفات خاصة كحاسة الشم الدقيق، وقوة العضلات، والذكاء التجاري الفينيقي. وقبلا كان على الصحفي أن يكون كاتبا، وأديبا فحسب.

واليوم اكتب ما تشاء بأي أسلوب أردت، شرط أن تنضد مقالك بالحرف الأسود، وتوقعه بحروف مخطوطة، ثم اجثم وراء الجوقة، ووراء الهيكل الجبار، وخلف الورق الصقيل، والطباعة الملونة، ونم مطمئنا.

نعم إن هذا العصر عصر التجميل، فالمرأة تتجمل، والمدن تتجمل، والصحافة تتجمل، والغناء يتجمل، ولكن وراء التجميل جمالا أبهى وأسمى وأرقى، فلنحرص عليه أولاً.

ثم ليس عليك أن تكون كاتبا لتكون صحفيا، فكثيرون هم الذين لا يكتبون صحفهم، ومن نكد الدنيا أنهم يفرضون على الناس قراءة ما لا يكتبون.

توفيق وهبة

****

ابـــــــــــــــــــــــــيــض

لبنان في شعر بشارة الخوري

جورج غريب

قبل بشارة الخوري، ما عرفنا النحول في المردة...

ولا التقى الدويُّ بالوتر، قبل شعره! ..

ولا كان لبنان أروع، قبل غناء الأخطل الصغير ! ..

عجبت كيف صغر الاسم عليه، وهو الشاعر الأكبر...

هذا القادر على نحت الجمال وصقله، والتلاعب بتقاسيمه، وملامحه، وتقاطيعه...

المتعبد القانت في هياكل البهاء، يتلمس أقدام التماثيل بأصابعه... يقبلها...

هذا الساكب العرق في الحجر...

المقطر الدمع في النحاس...

الرافع العزم في الأصلاب...

المجمد الذهول في الأعين الجاحدة...

الباني القباب على القمات العاصيات...

المتسامي بلبنان الى البقاء...

المنطلق على الموج... الى حيث الفتح وقف - في كل جيل - على واحد من هذا الجبل... فلبنان، بفضل قادة النخبة القلائل، مطرح مزروع بالأسطورة... موسم من مواسم الزمن.

■ الورود - أيار ١٩٦١، سنة ١٤، ج٩.

إن بشعر بشارة الخوري سنعيد ما تهدم من أبنية بعلبك...

فالجمال عنده... أشهى من الجمال...

لا تــقل خـانت الـقـوافي فـحـسب
الـشـعـر مـنـهـا أبـيـاتـهـا المـعـدوده
يـتـهـادين في غلائل كـالـورد
ويـهـبـطن من سـمـاء بـعـيـده
شـهـد الـله مـا لمـسن جـبـيـنـا
من تـراب الا كـتـبن خـلـوده

العبـادة لغير الله لا تغتفـر...؛ مـا لم يركـع شـاعر فـي محـراب الوطـن... ولقد ظل الأخطل الصغير – أول العبّاد – راكعا، طوال أزمنة العطاء، في هيكل اللبنانية – فغفرنا له – !..

أفنى شفتيه صلوات وابتهالات، امام المعبود الأرضي.. .. مذيبا روحه على مذبحه «شموعا طويلة الأعمار» ..

فـهل يلام الورد – وعمـره بعض يـوم – إذا أسكره رحـيق الجمـال، فـإذا بذبول ورقاته عطر هذا الكون...

هـذا هـو سلاحنا الأكبر منذ كانت الدنيا لنا... بطيبها وشميمها... بهديها ومحبتها.. برسالة الخلق والجمال.

فماذا جنينا على الغرب ليشهر بوجهنا السلاح؟!.....

ألأنا أطلعنا من أفقنا الشمس، ووزعناها على العالم هديا ونورا وخيرا ؟!.

أ لأنـا من صـدرنـا ولـد الحب
الـذي شـيـد الحـضـارة قـبلا

... شـــرف الـــفـــتح: أن تحـــطم قـــيـــدا

عن رقـــاب الـــورى، وتـــنـــشـــر عـــدلا

لم يُطل بشارة الخوري الاقامة في هذا الصعيد الخير من المعاضل الكونية...

بل أطربه أن يظل غريدا في قفص اللبنانية المذهب .. في حرم المشرق الحالم الموجع ... أن ينتقل بأجنحته المكوكبة من روض لروض، يرش العطر هنا والسخاء، ويهرق الهوى هناك والغناء، ملهبا في كلا الملعبين طيش الفراشة العاشقة المتلبسة بسحر الطبيعة في هذا الوطن ... لا تتعدى بأجنحتها الملونة حدود الأرض...

فـــتن الجـــمـــال وثـــورة الأقـــداح

صـبـغت أسـاطـيـر الـهـوى بـجـراحي

ولـد الـهـوى والخـمـر لـيـلـة مـولـدي

وسـيـحـملان مـعي عـلـى ألـواحي

لم تضخم ثقافة الأخطل الصغير العالمية، وكان هذا الشاعر.. فلو ضخمت ... لكانت المعجزة ... ولكنه غنى لبنان أغنيته الكبرى ... يوم كان بأشد الحاجة إليها ... فحمله – ومن ورائه الشرق – أعذب وترٍ شدّ الى صدر ...

لـبـنـان كم لـلـحـسن فـيك قـصـيـدة

نـثـرت مـبـاسـمـهـا عـلـيـهـا الأنجمُ

كـيف الـتـفت فـجـدول مـتـأوه

تحت الـغـصـون، وربـوة تـتـبـسم

أكـمـاته الـبـيـضـاء تحت سـمـائه الـز (م)

رقـاء أطـفـال تـنـام وتحـلـم

تـتـصـاعـد الـقـبلات من أنـفـاسـهـا

وتـمـر بـالـوادي الـوديع وتـلـثم

غنى لبنان فكان القلب واللسان ... واللوحة والريشة ... والعينان والأصابع والنهم والعطاء ... والعطر والألوان .. وكان البوح والزأر ... والمشعل والاحتراق:

قل لــوكـــر الـــنـــســـور، قـــدست وكـــرا
كل يـــوم تـــهـــدي إلى الافق نـــســـرا
عـــبـــقـــري الجـــنـــاح أقـــرب مـــرمـــاه
الـــســـمـــاء كـــان إن أراد مـــقـــرا

كان النقاد العرب قديما، عندما يعجبون ببيت من الشعر، يقولون: لو قال – قائله – هذا وسكت لكان أشعر الناس ... فما ظنهم بالذي لم يسكت أبداً وظل إبداعا في بيت، ورونقا في كلمة؟!.

إن الجمال قاعدة في دنياه ... في أحرفه وكلماته ومقادير تراكيبه ... في ألوانه وجلال لوحاته ... فنحن نظلم بشارة الخوري اليوم إذا رددنا معه:

إيه لـــبـــنـــان، والجـــداول تجـــري
فـــيك بـــردا، فـــتـــنـــعش الـــظـــمـــآنـــا
إيه لـــبـــنـــان، والـــنـــســـيم عـــلـــيلا
يـــتـــهـــادى، فـــيـــعـــطف الأغـــصـــانـــا
حـــبـــذا الـــســـفح مـــعـــبـــدا لـــصـــغـــار
الـــطـــيـــر، تـــشـــدو لـــربـــهـــا الألحـــانـــا

نظلمه، إذا تغنينا معه، بمثل قوله:

فـــالـــعـــنـــاقـــيـــد، من أغـــان ومن شـــعـــر
تـــتـــلـــوى عـــلـــى الـــثـــرى المخـــضـــابِ
أنـــا مـــنـــهـــا، وقـــلـب لـــبـــنـــان في
قـــلـــبي، واهـــدابه عـــلـــى أهـــدابي

نظلمه إذا جئنا بالشوارد من روائعه، ولم نقذف لبنان والمشرق بديوانه ...

لقد عاش «أخطلنا» – أمد الله بعمره – في حقب مريرة من عمر هذا الشرق، فكيف لا تتجاوب أصداء الأوجاع في خاطره، وهو العاشق المدنف ... وكيف لا يكون لبنان – حبيبه الأول – ومن ورائه مطلع الشمس، صيحات داويات في شعره، ونفح دماه ...

إن «ليالي الجهاد» عنده ذكريات، «يسوغها الفكر نهلا» ... «قيثارة علاها غبار المجد، غنت عرس البطولة» تستريح على جدار التاريخ وتستعرض مواكب الأزمان ...

يسأل أنشودة الأمس أن تعصف في النفوس وتمشي عجلى إلى المكارم..

يسأل نشء لبنان الفداء.. فأمة لا تستبق الفجر، سيان، ذلت أو نامت في الطريق..

نحن لا نحسب الحياة حياة
او نفدي أوطاننا المعبوده
لن تراها، إن لم تمت في هواها
أمة حرة، ودنيا جديده

حقب مريرة زرعها الاستعمار ذلاً، فنفضنا، عن وجوهنا التراب، ولا أثر للذل عليها... خلطوا فيها أعيادنا بالمآتم ... وظلت جراحنا تتبسم ... عصروا في مآقينا الدموع، وبقيت جمراً لاذعاً ... أهرقوا نفوسنا المتألة في كؤوسهم وثبتنا على الأنفة والوفاء.

أخلوا لغير أبنائنا أبنية بنيناها بالكد والدماء، ولم ينخفض لنا شموخ مداميك .

لبنان ما لفراخ النسر جائعة
والأرض أرضك أعلاها وأدناها
لو مس غيرك هذا الذل من أسد
لعضَّ جبهته سيف وحنّاها...

أطلوا علينا بأوجه كالحة ... نبذوا الأحرار واطرحوهم ... أخرسوا في أعيادنا الأناشيد ... حولوا أعراسنا مآتم ... سلبوا من كرومنا العناقيد ... فكان على الأحرار

أن يهبوا، فسيان «من نام عن حق ومن ماتا ...».

كان عليهم أن يجردوا الأقلام والسيوف:

سيان عند ابتناء المجد في وطن

من يحمل السيف أو من يحمل القلما

وكان على الشاعر الغاضب أن يعود، – متناسيا عتابه – فتترنم بعودته المعابد ... ويستفيق تشرين على صداحه:

تشرين، قل للتشارين التي سلفت

لنا عتاب، ولا نرضاه إن جرحا

أسمى وأكرم عفو أنت مانحه

عفو الذبيح عن السيف الذي ذبحا! ..

فمن هذا الوطن الموجع ... من موطن «حرب» على «المتقحم الذواد»

يلقي على قدم الغريب بنفسه

ويشيح عن أبنائه الأمجاد

سيذهب بشارة الخوري بعيدا يطوف، باسم لبنان، في بلاد الشرق الحبيبة يضمد جراحها ... ويبكي أعلامها ... وينفحها الود صافيا ...

سيذهب بعيدا في تلك السماوات المشرقية، وعلى فمه، روعة النشيد:

غنيت للشرق الجريح، وفي يدي

ما في سماء الشرق من أمجاد

فمزجت دمعته الحنون بدمعتي

ونقشت مثل جراحه بفؤادي

سيسأل الله أن يحفظ «مهجة الشعر في الشرق» ويقيه عاديات الزمان ... أن لا

تفطم القلوب فيه عن الحب. أن تظل العروبة على مفرقه تاجا... وفي الأفئدة خفوقا ... وفي الأفواه نداءات عفيفة ... فشاعرنا، في أي قطر حل، وعلى أي جار نزل، كان القلب الخافق والطير الشادي ...

سيذكر طه حسين غداً – في مهرجان أخطلنا الحبيب – أننا – في نظر الشاعر – وأبناء النيل «فرعان، والحضارة أصل» ...

فهناك هرم «تجثم العظائم فيه» ، وهنا «سفين على البحار يُدل» .. فيا مصر:

كُلُّ أهلٍ لك أهلُ
وكُلُّ صَدرٍ
مَحلُّ
ليسَ تَألو الرِّياضُ
أن توقظَ الزَّهر
وأن تَجمَعَ الشَّذا
ليسَ تألو

لِتُريقَ الأريجَ
سَكباً وتهتاناً
على وجهِ مِصرَ
حينَ يُطلُّ

سيذكر دمعة بشارة على سعد زغلول ودمعته على شوقي، فيردد معه:

قف في ربى الخلد واهتف باسم شاعره
فسدرة المنتهى أدنى منابره
... ما للملاعب في لبنان مقفرة

ولــلــمــنــاهل عــطلا من حــرائــره

أودى الــقــريض فــلأحــزان مــا لــبــست

عــلــى ســلــيل الــدراري من عــبــاقــره

ســألــتــنــيه رثــاء، خــذه من كــبــدي

لا يــؤخــذ الــشيء إلا من مــصــادره

سيذكر طه حسين أن النيل حبيب الرياحين في شعر بشارة الخوري.. وسيقول معه:

يــا مــصــر مــا نــظم الجــهــاد قــصــيــدة

إلا اســتــهلّ بــذكــرك الــفــواح

أو ســال جــرح من جــبــين مــجــاهــد

إلا عــصــبت جــراحه بــجــراح!

كما سيذكر عمر أبوريشة، أن الشام دائمة الحنين الى أخطلٍ سالت نفسه في مغاني الكرام الصيد ... في وادي بردى ...

في «جنة طهرت أرواحها من كل رجس ودنس».

قــالــوا تحب الــشــام؟ قــلت جــوانــحي

مــقــصــوصــة فــيــهــا، وقــلت فــؤادي

أسمى ما تتبادله الشعوب هو رسالات الوفاء والأخوة، لاسيما إذا جمعت بينهما الارض وألفت السماء.

أما لبنان، فقد أدى قسطه من القلب واللسان ... وحسبك منه ... هذا الأخطل الجبار ... يغني، بأعذب ما يغني به، جار عزيز وأخ مفدى:

يــا ربى لا تــتــركي وردا ولا تــبــقي أقــاحــا

مــشت الــشــام إلى لــبــنــان شــوقــاً والــتــيــاحــا

فـــافـــرشي الـــطـــرق قـــلـــوبـــاً وثـــغـــوراً وصـــداحـــا
جـــمع المجـــد عـــلى الأرز ســـيـــوفـــاً وجـــراحـــا
فـــتـــســـاويـــنـــا جـــهـــاداً وتـــآخـــيـــنـــا سلاحـــا
ونـــشـــرنـــاهـــا عـــلى الـــدنـــيـــا جـــنـــاحـــاً وجـــنـــاحـــا

وسيذكر الجواهري أن من قلب بشارة في العراق فلذات:

قل لـــلـــعـــراق أيـــقـــضي شـــيخ الـــعـــراق اغـــتـــرابـــا
يـــؤلف الـــبـــؤس مـــنه في كل يـــوم كـــتـــابـــا
وقـــد بـــنى لك بـــيـــتـــا من الـــعـــلى جـــوابـــا
بـــيـــتـــاً بـــنـــاه وبـــيـــتـــاً أقـــام فـــيه خـــرابـــا

وإن من روحه في الصحراء بقايا تلك الصحراء التي حفلت له، وقد حمل منه السُّرى شبحا مريبا يكاد يكون نورا.

يوم «التفت الكثيب الى الكثيب» «وتنصتت زمر الجنادب» ...

يوم لاح طيف لقيس، وضرجت التمتمات على الشفاه بالنسيب ..... يوم راح الفتى العربي يحدو في الزي الغريب...... يوم ذرف في وطن الجهاد ..... في بغداد... دمعة لاهبة على الزهاوي، على شيخ القريض....... سيذكر الجواهري بعض ذلك ويقول معه:

صـــحـــراء يـــا بـــنت الـــســـمـــاء الـــبـــكـــر والـــوحي الخـــصـــيب
أنـــا لـــو ذكـــرت، ذكـــرت أحلامي وأنـــغـــامي وكـــوبي
إحـــدى الـــشـــمـــوع الـــذائـــبـــات أمـــام هـــيـــكـــلك الـــرهـــيب
أنـــا دمـــعـــة الأدب الحـــزين، رســـالـــة الألم المـــذيب
من قـــلـــب لـــبـــنـــان الـــكـــئـــيب لـــقـــلـــب بـــغـــداد الـــكـــئـــيب
لـــبـــيك نـــابـــغـــة الـــعـــراق وحـــجـــة الـــشـــرق الـــقـــريب

حب الخـــلـــود وكم أريق عـــلـــيه من جـــفن ســـكـــيب
لـــولاه لم تـــلـــد الـــطـــروس الحـــمـــر إكـــلـــيل الأديب
وأخـو الـوفـا لـبـنـان يـرفل مـنه في الـثـوب الـقـشـيب
هـو والـعـراق الحـر، مـهـد هـوىً وأيـكـة عـنـدلـيب
فـجـران من مـزن الـسـمـاء ووردتـان عـلى قـضـيب

لا بل ستذكر الأعراب غدا، كما ذكرت بالأمس، شاعر لبنان الأول... وتردد معه:

جـذبت الـيه الـعـرب بـعـد نـفـارهم
وذوّبت في كـاسـاتـهم نـغـمـاتي

فيا بشارة! .. يا حبيب الأيك والغدران والطيور ... يا رفيق الأنسام والفراشات والأجنحة ... يا كرَّة الحساسين وشهقة العنادل ... يا دوي الأمس وإعصار المستقبل... لك عهد الوفاء منا ... أن يظل لبنانك الحبيب أغنيتك الكبرى ...

أن تظل كل صخرة فيه روضة، وكل أفق مطلعا ...

أن يظل الهوى في شدوه على الأغصان ..

أن يثني العنفوان العريق هذا الجبل أن يطأطئ للدهر رأسا ...

أن يؤثر الموت في كوخه الصغير، إذا كانت القصور الباقيات تذله...

أن يبقى وكر النسور مقدسا «حر الجوانح بارز المنقاد ...»

أن تبقى سماؤنا صافية ... ويبقى نبعنا ضاحكا ...

أن تظل جبال وطنك مِرادا عظاما ...

أن لا يزرع البهتان والكذب حول نبي القوافي فيحجب عنا نور الشمس ...

أن لا يذهب الجنون بحكمة الملاح ...

أن نعود الى القرى التي سلختنا عن قلبها المدن.

أن لا يكون حبك الأخير آخر ما نغني ...

فقبلات حبك الأول زاد النفوس الدائم .

لك عهد الوفاء منا ... أن نظل نردد معك:

كم عـــلى الـــصـــحـــراء وشي من خـــيـــال

وعـــلى الـــبـــحـــر يـــتـــيـــمـــاتي الـــغـــوالي

قبل بشارة الخوري لم يخطط شاعر جيلا ...

لم يكن للشرق – بعد شوقي – إمارة ...

لم تفجر «سيوف الدول» متنبياً ثانيا ...

لم تسطع للبحتري ديباجة مشرقة ...

لم يُسلَّ للأعراب سيف قاطع ...

لم يتسنم لبنان ذروة الكلمة المغناة ...

قبل بشارة الخوري لم يشْدُ وتر ... وينزف جرح ... وتصدح أغنية ... وتجلجل قافية ... وتحط في الآفاق أجنحة ...

هـــو شـــاعـــر الأطـــيـــار، لا مـــتـــكـــبـــر

صـــلف، ولا هـــو بـــالإمـــارة مـــعـــجـب

قبل بشارة الخوري لم يكن عندنا من يقول:

لـــبـــنـــان، يـــا وله الـــبـــيـــان، أذاكـــر

أم لـــست تـــذكـــر نجـــدتي وكـــفـــاحي

قـــبـــلـت بـــاســـمك كل جـــرح ســـائل

وركـــزت بـــنـــدك عـــالـــيـــاً في الـــســـاح

أنـــا إن حـــجـــبت فـــلـــيس بـــضـــائـــري

وعـــلـى الخـــواطـــر غـــدوتي ورواحي

تـــتـــحـــجب الأرواح، وهي خـــوالـــد

وتـــرى الـــعـــيـــون زوائل الأشـــبـــاح!.

جورج غريب

****

الجو الشعـــري
عند الأخطل الصغير

عبداللطيف شرارة

تكاد ميزة الشاعر بشارة الخوري، كشاعر، تنحصر في هذا الجانب الخفي من شخصيته الفنية الخلاقة، وهو قدرته العجيبة على إيجاد ما نسميه (الجو الشعري)، فأنت لا تكاد تأخذ في قراءة الأبيات الأولى من قصائده، أو سماعها إذا كانت تتلى، حتى تنتقل إلى أفق، الى عالم، الى فضاء – سمه ما شئت – تحس معه أن للحياة «لوناً» يختلف عما تعودت رؤيته في معاشك اليومي، وسيرك عبر الحوادث والتجارب.

وقد كان الأخطل الصغير مفتونا في قرارته بمعاني الحياة الجميلة، الغنية بالعطور والأزهار والأشجار والينابيع والأضواء والظلال وكانت النضارة والطلاوة والملاحة والصباحة وما شاكلها من صور، هي ما يطفو على الآفاق والعوالم التي ينقلك إليها، جاء ذلك اللون الذي يخلعه على الحياة بشاعريته، بمجرد شاعريته، ذا صفة «ربيعية». ومعنى ذلك، أن الربيع وما يواكبه من أشكال وأحاسيس، هو الجو الشعري الذي يعيده بشارة الى الروح، الى العين، الى الذهن، من غير قصد وعن غير وعي.

وليس ذلك هو المعنى كله، فالربيع هنا ليس لونا وحسب، أو جواً طبيعياً استأثر بالنفس والفكر وأصبح يغشى ما يقال في أشعار بشارة في زيارات مكررة عن طريق الذكرى، وإنما هو بالإضافة الى ذلك «فلسفة» قائمة بذاتها، شاملة، نافذة يعيش منها صاحبها في وحدة متماسكة تنتظم شعوره بنسبة ما تنتظم تفكيره في كل شاردة وواردة من شوارد الحياة وسوانحها.

■ الورود ، أيار ١٩٦١، سنة ١٤، ج٩.

إذا أنت قرأت هذا البيت، في مستهل إحدى القصائد:

عـشت فـالـعب بـشـعـرهـا يـا نـسـيم

واضـحـكي في عـيـونـهـا يـا نجـوم

شعرت في الحال بأن ثمة فتاة ذات شعر يلاعبه النسيم، ولها عيون تضحك لها النجوم، وانتقلت الى هذه الصور، أو انتقلت في ذهنك ترفه عنك، وتنتزعك من الهموم، وتحملك على جناح من حبور واستمتاع بمناظر عهدتها من قبل، وأخذت الآن في تذكرها.

ذلك هو شأن هذا الشعر في الحياة النفسية، وذلك هو أثره في الكيان الروحي لدى كل من يتلوه، ويتمرس بمعانيه، وينغمس في أجوائه، على نحو أو آخر.

عرج الآن على أثر هذا الجو الشعري نفسه حين يطوف بك الأخطل الصغير في شؤون المجتمع، وقضايا الحياة العامة، ويتحدث إليك عن أحوال الوطن وأسباب نهوضه، والدفاع عن حريته:

يـا دمـاء الـشـبـاب مـا أنت إلا

ذائب الـطـيب يـا دمـاء الـشـبـاب

ادفـقي رحـمـة وغـوثـا وكـوني

جـدول الـسـفح أو هـزار الـغـاب

إنه هنا، وهو يثير معاني الفداء والبطولة والذب عن حرمات الأوطان، لا يغيب عن منظر الربيع ولا يتحول، حتى ألفاظه عن مناخه الشعري الذي ألفه منذ نعومة أظفاره، فالطيب، والشباب، والدفق، والرحمة، والغوث، والجدول، والسفح، والهزار، والغاب وما يواكبها جميعا من صور وأحاسيس تخلق حتى في أحرج مآزق الحياة وأحفلها بدواعي السخط والغضب والعذاب – أي الفداء – جوا محببا الى النفس، قريبا من القلب.

ارجع الآن الى المواقف التأملية، أي إلى تلك الحالات التي يصبح بها المرء وحده إزاء الكون، ويتحلل فيها من شؤون الحياة اليومية، وينصرف معها الى نفسه

يدرس ما يخامرها، ويصور أحاسيسها ويفتن – قدر المستطاع – في بيان حقيقتها العارية من غير مواربة، أو اصطناع، أو تجنٍ على الذات والوجود معا، فماذا تجد؟

– لن تعثر على شيء من الحيرة أو اللاإرادية التي تطالعك في «طلاسم» أبي ماضي مثلا، أو ثورة المتنبي، أو تبرم المعري، أو استرسال الخيام، وإنما تلاحظ «بساطة» يصعب تحليلها، لأنها ليست مركبة من عدة عناصر، وليس وراءها غير حقيقة واحدة، هي «حب الحياة»:

من كـــان من دنـــيـــاه يـــنـــفض راحه
فـــأنـــا عـــلى دنـــيـــاي أقـــبض راحي
إني أفـــدي شـــمس كل اصـــيـــلـــة
حـــذر المـــغـــيب بـــألف شـــمس صـــبـــاح

هذا الحب للحياة ليس في الواقع تعلقا بالعيش نفسه، ولا إيثارا للعافية على التضحية، ولا تجنيدا لقوى النفس في السعي وراء اللذات والمتع «الدنيوية» كما قد يبدو ولأول وهلة، وإنما هو ، قبل كل شيء، وفوق كل شيء، ولع بالجانب الشعري من الدنيا، من الحياة، من الوجود، وتحسّبٌ لفقده، واضطراب إزاء خلو العالم منه عند الغياب عن هذا العالم وليس شيئا آخر.

ولقد أصبح الشاعر هنا، لفرط ما ألف جوه الشعري الربيعي، وعمق ما ائتلف معه، يخلط بينه وبين الحياة، دون أن يعي شيئا من موقفه الفكري هذا، وأصبحت الدنيا في نظره هذه «الجملة» من المعاني الشعرية المترابطة المتداخلة التي تجمعها كلمة «الهوى» كما تجمعها كلمة «الشباب» أو تلخصها كلمة «الربيع» شكلا ومضمونا، صورة وروحا.

ودليلنا على صحة ذلك لا يؤخذ من قصيدة أو بيت أو موقف شعري معين، وإنما هي أشعار بشارة الخوري برمتها، من ألفها الى يائها، وشاعريته نفسها، والينابيع الكبرى التي ترد منها، وتصدر عنها، هما اللتان تعطيان الدليل الدامغ على سلامة هاتيك الفكرة، وتضعانها موضع اليقين.

وحسرة بشارة إذ يفتقد في حياته ذلك الجو، تمثل نقطة المركز من دائرة العذاب حوله، وترده الى حالة أشبه بالمأساة في ذروة تناميها، بل إن افتقاد ذلك الجو في أي حالة، وأي وضع من أوضاع المجتمع، هو المأساة بعينها، فإقباله على الوجود كالوجود نفسه يصبح بلا معنى، ولا جدوى، إذا خلا من رونق الصبا، ومتع الهوى، وطلاوات الأمل.

وهذا هو سر كآبته التي تعرض بسببها لغضب المتفائلين، وتنكرٌ نفر من المفكرين، يوم شاعت على ألسنة الناس قصيدته «الهوى والشباب والأمل المنشود ...» وتغنى بها المغنون.

ولقد رأى بعضهم في هذا الموقف الشعري المتكرر الذي اتخذه بشارة في حياته الشعرية، ولم يحد عنه في قليل ولا كثير – رأوا فيه نزعة تأخذ جذورها من أدب الغرب، ولا تمت بنسب الى واقع بلاده وما يدور فيها، وما ينبغي أن توجه إليه، وتحمل على الأخذ به في تلك الظروف التي كانت تجتازها، أي يوم كان بشارة يتغزل، ويناجي الطبيعة، ويتألم، ويحب ...

وحقيقة الأمر أن هذا الاعتراض الذي واجهه الأخطل الصغير – وكان أشد ما واجه من اعتراضات – لا يقوم على أساس موضوعي في النظر الى الشاعرية، وتقييم الأثر الفني. ولا هو يلزم الشاعر كشاعر في أن يأخذه بعين الاعتبار.

هذا في جانب، والجانب الثاني من الحقيقة هو أن بشارة الخوري لم يكن ليصدر في ما ينظم عن اعتبارات مدرسية، واتجاهات تربوية – اجتماعية، فالقول بأنه «رومانطيقي» لا يجعله تلميذ الغرب في رومانطيقيته، ولا ينزع عن شعره، بله شاعريته، صفة الأصالة، بل إن أصالته تبلغ من الوضوح حد الإشراق، فإذا تعقبنا سلسلة نسبها الروحي، وتتبعنا جذورها في تراثه كشاعر عربي، نجد الخبر اليقين من أمرها عند ابن أبي ربيعة، وعروة بن حزام، وجميل بثينة، والعباس بن الأحنف، حتى تبلغ البهاء زهير.

«والأخطل الصغير» كما يوحي هذا اللقب الذي اختاره، وعرف به في الأوساط الأدبية والاجتماعية، نشأ عربي الثقافة، عربي الروح، عربي الاتجاه، وقد حدثني أن كتاب «الأغاني»، موسوعة الشعر العربي القديم، كان زاده الوحيد تقريبا في أكثر مطالعاته. وقصائده عن «عمر ونعم» و «عروة وعفراء» فضلا عن قصائده القومية في أحداث التاريخ العربي الحديث، تكشف مدى ما حققته أصالته العربية من سطوع وظهور، وتبين كيف كان يستوحي منها، ويستلهم أغنى وأروع ما لديها من مثل عليا صحيحة.

أما جوه الخاص الذي تحول في كيانه الشعري الى فلسفة كما أوضحنا في مستهل هذا الحديث، فلا يعدو أن يكون جو لبنان، وجباله، ومناخ قراه وسفوحه وينابيعه وازهاره وحدائقه.

الجو الشعري عند الأخطل الصغير، هو هذا الجو الذي يتميز به لبنان من أقصاه الى أقصاه، في صحوه وائتلاقه، في دفئه ووداعته، في طهره، وصفائه، وفي عواصفه أيضا وزمهريره، حين يجد الجد، ويتعرض لمكاره الخطوب، وعنت الأيام.

إنه جو الجمال في لبنان، وجو الطبيعة اللبنانية سواء تمثلت في مغاني السفوح، وخمائل الأودية، وروابي الصنوبر، أو في انطلاق النفوس، وخفقات القلوب، ومناجاة الأحبة، والإخلاص للمبادئ الروحية العالية السليمة التي تتحول في البيان الى شعر، وفي الأعمال الى صفاء وطهر ...

عبداللطيف شرارة

****

ابيض

علاقتنا بالأخطل الصغير

فاضل سعيد عقل

معرفتنا بالأخطل الصغير معرفة عريقة في قدم الأيام وأصالة الوشائج.

معرفة عائلتي به ومعرفتي أنا.

بشارة عبدالله الخوري ووالدي كانا رفيقين حميمين وزميلين صديقين، على الرغم من بعض المناظرات التي قامت بينهما قبيل الحرب العالمية الأولى حول أمور داخلية وإدارية تتعلق بوضع الجيل الحكومي آنذاك.

ويطيب لي أن أنوه هنا بالذكريات العذبة التي يحفظها الأخطل عن والدي ويسردها لي ولأخصائه بشغف وتفصيل هي دليل المحبة والوفاء.

وانتقلت الصداقة للأخطل من والدي إلى أعمامي: المرحوم أسعد الذي كان من أشد المعجبين ببشارة الخوري والمدافعين عنه، والمرحوم جورج الذي حفظ شعره ولحن وغنى له، فبادله الأخطل المودة وألقى قصيدة بمدحه في حفلة تكريمه بسينما الماجستيل، وعمي يوسف الذي يعتبر الأخطل مرجعا وفخرا، والعم بشارة الذي يرتاح الى نفسه الرحبة وأدبه الكريم. بل إن عائلة عقل بأسرها لا تعد في صفوفها إلا الأصدقاء الحقيقيين للأخطل الصغير وإلا رواة أبياته وإلا المساهمين المتراصفين، في جيش محبيه والغيارى على الناعمين بدفء روحه وعشرته.

أما أنا، فحسبي من بشارة عبدالله الخوري أن عيني تفتحتا على شعره وأنا تلميذ، فعب عقلي من معينه الصافي الخصب وارتوت إحساساتي بأنغامه التي ملأت الدنيا بالصداح الحلو البهيج.

■ الورود ، أيار سنة ١٩٦١، السنة ١٤، ج٩.

وأذكر أنه لما استأنف الأخطل إصدار «البرق» أسبوعية أدبية قبل الحرب العالمية الثانية بسنوات، أرسلت إليه من مقاعد المدرسة مقالاً عن الكاتب الفرنسي رينه بازان، فرحب به وعالج أخطاءه برفق ونشره في مكان بارز مع مقدمة رقيقة، فشجعني بذلك على المضي في رسالة القلم.

وكنا، في معهد العلم، نتباهى بمواقفه الخطابية ونحلل قصائده ونردد أبياتها شغوفين مترنمين، ويحلو لنا أن نسكر بغزلياته ووجدانياته السلسة الناعمة.

ولما رثى الأخطل الصغير، أمد الله بعمره، عمي وديع عقل، رحمه الله، في التياترو الكبير، كانت قصيدته الرائعة موضوع تحليل ودراسة بيننا وبين أستاذنا فؤاد أفرام البستاني لفترة طويلة.

إن اسم الأخطل الصغير قد سجل إلى جانب اسم الأخطل في تاريخ الأدب العربي، بل تاريخ الشعر الإنساني، وصيته قد تجاوز حدود البشر، وشخصيته فرضت نفسها على العقول واستأثرت بالمخيلات، حتى لقد أضحى الأخطل الصغير أسطورة من أساطير لبنان وهالة من هالات عنفوانه وكبريائه الوطنيين.

إن تكريمه في حياته عزاء لنا، وإن كان واجبا منا نحوه.

فبشارة عبدالله الخوري من هؤلاء الذين خلقوا للبنان أمجادا كأرزات الجبل فكانوا له أمجادا كأرز لبنان!.

فاضل سعيد عقل

****

الوجدانيـــــة
في شعر بشارة الخوري

نسيم نصر

في عصاري نهار صافي الأديم، من أواخر ربيع سنة ١٩٣٣، كنت وصديقا لي في مقهى الروضة، من مدينة حمص. وبينا نحن نتجاذب أطراف الأحاديث، من هنا ومن هناك شأن من يروح عن نفسه ويزيح عن خاطرته، جاءنا صديق آخر يدعونا الى حلقة عقدت في إحدى فسحات الحديقة يتصدرها شاعر مشهور.

وما إن استقر بنا المقام، بعد أن تلافى خدام المقهى «أزمة الكراسي» حتى استأنف الشاعر قطب الحلقة، قراءته رأيا لمجلة «السمير» في شعره الوجداني. ثم، بعد أن انتهى من إعلان رأي إيليا أبي ماضي. فإذا هما يتبادلان حسن التقدير والاعتبار، قائمين على صفاء الوجدان.

وكان في الحلقة شاب من آل البستاني اللبنانيين، في بزته العسكرية، إذ كان طالبا في المدرسة الحربية، التي كان المنتدِب قد أنشأها، في بعض ضواحي حمص، مشتركة للراغبين في الجندية على أساس الفنون والعلوم العسكرية. ولأمر ما ألح شاعرنا على الشاب البستاني أن يروي على الجالسين إليهما شيئا من شعره. وأجاب الطلب طالب المدرسة الحربية، فأنشدنا قصيدة من وحي الانضباط العسكري نزع فيها فتاها الى بث الشكوى مما تقتضيه تلك التربية الصارمة التي كان يعانيها..!!

وتناول الكلمة أحد المتحلقين حول الشاعر فسأل: «من تراه أجدر بمقام إمارة

■ الورود ، أيار ١٩٦١، سنة ١٤، ج٩.

الشعر بعد شوقي؟ – وكان شوقي قد مات في خريف سنة ١٩٣٢، بعد أن عرف زمنا: «أمير الشعراء» – فبادر الفتى البستاني الى الاجابة فقال: «ليس أجدر بهذا المقام من بشارة الخوري الأخطل الصغير».

وجمجم «قطب الحلقة» وحمحم عند سماعه هذا الرأي، ثم قال: «بشارة الخوري خليفة شوقي ...؟! لا، لا هذا رأي لا يمكن أن يؤخذ به ..!!».

وفي وجمة الفتى البستاني، ودون أن يتعرض أحد للرد على الشاعر المتصدر، مضى يقول:

«بشارة الخوري شاعر غزل والغزل أولى درجات سلم الشعر الطويل العالي، فكيف تؤمّر من لم يتجاوز منه بعد، الدرجة الدنيا، ولم يتعدها إلى سواها ؟!»

أما إذا كانت سيرورة شعر بشارة الخوري في الناس، عالقاً بالأذهان هي المستند إليها في الترشيح الخطير، فذلك أمر لا تلبث قيمته أن تتبدد. أما لاحظنا اعتماد الشاعر إثارة العواطف الجنسية، ودغدغة أهواء الشباب كسبا للإعجاب والاستحسان حتى مرثاته في حافظ ابراهيم لم تخل من ذلك الاعتماد .. !!».

وفيما كان «قطب الحلقة» مطمئنا الى سلطانه على سامعيه، يبحث عن شعر جديد في أوراق تأكَّلها الطي في جيوبه، استأذنته بالكلام، معتذرا عن اضطراري الى الكشف عن خطأ رأيه في بشارة الخوري، أنا الذي التقيه لأول مرة يسعدني فيها الحظ بالتعرف إليه شخصيا وكأن جرأتي هذه بددت اطمئنانته الى انه في حلقة من المنصتين ينزل عليها بالرأي من فوق ... فالتفت نحوي، وكنت قريبا من يسراه، وفي وجهه ملامح المفاجأة، وقال: «تفضل بما تريد!».

فقلت:

«الغزل، يا أستاذ، ليس أول درجة من سلم الشعر الطويل العالي، وإنما هو نحو

من الشعر له سلمه المدرجة، وبشارة الخوري بلغ القمة التي بلغها قلة من الشعراء العرب، جاء أقدمهم عمر بن أبي ربيعة، الذي زاحمه أمس بشارة في «عمر ونعم». ولعل أفضل ما بز فيه المتأخر المتقدم هو في مثل قوله:

«ما الحسن لولا الشعر إلا زهرة
يلهو بها في لحظتين النظرُ
لكنها إن أدركتها رقة
من شاعر أو دمعة تنحدر
سالت دماء الخلد في أوراقها
ونام تحت قدميها القدر
فأعجب لذي حسن يجافي شاعراً
يشقى على تخليده وينفر

وبعد الأخذ بتعديل الإقرار بغزل بشارة ورفعه الى المستوى الأعلى بروائع الغزل، علينا ان ننظر معا في رد الانكار.

لقد قلت، يا أستاذ، إن بشارة الخوري شاعر الغزل، وغزل لا غير! في حين أنه شاعر وجداني أيضاً، ومن طراز رفيع. أوليست الوجدانية أشد الأعماق الغنائية جذبا إلى المشاركة في مثار الأصالة الانسانية ؟.

أوليس بشارة الخوري شاعر وجدانية نابضة بالأصالة الإنسانية نبضا يسيطر على المشاعر والمدارك سيطرة عارمة، في مثل قصائده: «من مآسي الحرب» و «الريال المزيف» ، و «المسلول»؟؟.

أوليس من أجل هذه النزعة الجياشة بإنسانيتها تعجب، يا شاعري، بأبي ماضي كما يعجب بك هو أيضا من أجلها؟! ولعل البيتين:

«والشعر روح الله في شاعره» .. «وغذاؤه الاخلاق في برعمها»

يقيمان بعض الدليل على السوية الرفيعة التي يعرفها للشعر الأخطل الصغير!!.

نقف عند هذا الحد من إثارة تلك «الذكرى» التي نبرأ فيها من التعريض بذي رأي

مخالف لما نرى، ولم يكن إيرادها إلا تذكيراً بأن بشارة الخوري من أولئك الكبار الذين قد تتناولهم ظلامة «الأحكام الآنية» التي تجيء وليدة ظروف لا تلبث أن تتبدل فيتبدل ما تولد عنها..!!

والآن لا بد لنا من العودة إلى إلقاء نظرة عابرة على هذه القصائد التي لا تستأثر بوجدانية شاعرها، ولكنها أقوى مشاركة من سواها بما تقوم عليه من سعة التجربة الشعورية الصادقة، ولما يعتلي فيها من غضبة مكارم الأخلاق التي ينفذ تأثيرها الى الصميم من النفوس الحساسة.

«الريال المزيف»، و«من مآسي الحرب» قصيدتان نظمهما بشارة الخوري في حادثتين وقعتا إبان الحرب العالمية الأولى، إحداهما سنة ١٩١٦ والثانية سنة ١٩١٧ . غير أنهما وإن كانتا تعتمدان، في الأساس، عنصرا معنويا واحداً، هو العفاف الممزق، وعاملا ماديا واحدا أيضا هو الجوع، فإن وجه المأساة الخلقية في «الريال المزيف» مبطن بخطة التزييف وازدواج الصدمة الوجدانية، بعد أن تبين أن المرأة الضحية هدرت عفافها دون أن تستطيع إنقاذ حياة ابنتها، بينما يبدو وجه المأساة الخلقية نفسها في «مآسي الحرب» وقد بث الحاكم الفاسق شباكه لاصطياد الجمال في أسيرات المجاعة التي وقع فيها لبنان بمحض إرادة هذا الحاكم وحملهن إليه ليمسين ضحايا الفسق الحكومي.

ها هو شاعر «الريال المزيف» يستهل بصيحة وجدانية صاعقة قائلا:

ويح الفقير فما تراه يلاقي
سدت عليه منافذ الأرزاقِ

عصفت به وبسربه ريح الشقا
فتساقطوا كتساقط الأوراق

فإذا بصرت به عجبت لشمعة
كالزعفران تجول في الأسواق

عَلَقُ المجاعة مص بعض دمائه
وتعسُّف الحكام مص الباقي

وفيما هو يمضي بارعا في تمثيل هذا المنزلق الإنساني الاجتماعي، مبدعا في التعبير عن الصراع الذي دار في ذات الأم صراعا ضاريا بين الاحتفاظ بعفتها وبين إنقاذ حياة ابنتها، يصل الى خيبتها في إنقاذ حياة ابنتها بعد أن أضاعت شرفها فيعمد الى هذا القول المزلزل أركان الإنسان:

سقطت على قدم الشقا فبكت لها
عين العلى ومكارم الأخلاق
وبكى عفاف الآنسات عفافها
خلل السجوف بمدمع مهراق
يا طير عفتها فديتك طائرا
هلا حذرت حبائل الفساق
طلعت عليها الشمس وهي سجينة
وفتاتها ضيف على الأسواق
أما الأثيم فلا تزال شباكه
منصوبة لنواعس الأحداق
يسقى الرحيق بأكؤس ولواحظ
والله يكلأ، «وهو نعم الواقي»

ولكن الشاعر، في موشحه «من مآسي الحرب»، يبدو أكثر ضيقا بالصبر على هذه التجربة الوجدانية فصاحب السلطان المفروض فيه أن يكون حامي الأخلاق ودرعها هو نفسه يغتال الأعراض تحت ستار بسطة الكف للمعونة. فبعد أن يمثلها وقد صدقت أنها استدعيت لتلقي العون، إذ يقول:

وقفت «مي» بباب الحاكم
كملاك الله مقصوص الجناحِ
وقفت عطشى كطير حائم
حول ماء يحسب الورِد مباح

وتـــــخـــــطـــــته بـــــرجــــلـي صـــائم

او بـــــرجــــلـي ثـــــمل من غـــــيــــــر راح

✡✡✡✡✡

وهي لـــــو أن لـــــديـــــهـــــا كـــــســـــرتـــــين

لـــــثـــــنـــــتـــــهـــــا عـــــزة عن ذا الـــــلـــــقـــــا

إنمـــــا يـــــأس الـــــفـــــتى لـــــيس بـــــهـــــين

لا يـــــبـــــالي يـــــائس أن يـــــخـــــفـــــقـــــا

ينتهي الـى تمثيلـها، وقد افترسـها الحاكم «الـراعي» فيقول، في مـرارة اليائس من عدل الأرض:

رب قل لـــــلـــــجـــــوع يـــــصـــــبح شـــــبـــــعـــــاً

وانـــــقـــــذ الـــــطـــــهـــــر الـــــذي قـــــدســـــته

أما قصيدة «المسلول» فهي آية من آيات الغناء الوجداني: فيها للشعر كما فيها للعبرة، وفيها فوق هذا وذاك من لباقة الحوار التمثيلي ما يعرض لأدق الحالات الجنسية فيثيرها وجدانيا دون أن يخمش صفحة الحياء أو أن يبذل رواء الفن الذي تميز به بشارة تميزا توشك أن تعرفه به، أياً كان متناول الشعر الذي تصدى له.

وإذا ما بلغت في هذه القصيدة المقطع المتناول وصف الشباب المستنزف والعبرة المتجسدة، ابتداء من قوله: «سنة مضت...» فأنت أمام لوحة من لوحات الوجدان العازف على أوتار القلب البشري، أبعد ألحانه مدى، في استنفار الأصالة الإنسانية لتحد من تكرار مثل هذا الحب المأساة. ولعل أقوى ما في هذه الرائعة الوجدانية من قوة الشاعرية، هو حيث ينتهي المعشوق الضحية الى الضعف الذي جسده الشاعر في قوله:

قـــــد كـــــان مـــــنـــــتـــــحـــــراً لـــــو أن له

شـــــبه الـــــقـــــوى في جـــــســـــمه الخـــــضـــــد

لـــــكــــنـه والـــداء يـــــنـــــهـــشه

كـــالــشـــلـــو بـــين مـــخـــالب الأســد

جَـــــلِـــــدٌ عــــلـى الآلام يـــــنــــجـــده

طـــلل الـــشـــبـــاب ودارس الـــصَّـــيَـــد

مـــتـــوحـــد أمـــا الحـــبـــيب فـــمـــذ

خـــاف انـــتـــقـــال الــداء لم يـــعـــد

فـــــقـــــضى ولم يـــــأنس بـــــذي رحم

يـــأســـو ولم يـــســـعـــد بمـــفـــتـــقــد

حــــــاشــــــا مـــــدامـــــعـه وكُنَّ لـه

غـــوثـــا مـــتى يـــســـأل نـــدىً يـــجـــد

ويفرغ بشارة الخوري من مسلوله وقد أقام من قبره نصبا للعبرة في أقسى حقيقتها وألطف التعبير عنها، إذ يقول:

مـــات الـــفـــتـى فـــأقـــيم في جـــدث

مـــســـتـــوحش الأرجـــاء مـــنـــفـــرد

مـــتـــجـــلل بـــالـــفـــقـــر مـــؤتـــزر

بـــالـــنـــبت من مـــتـــيـــبِّسٍ ونـــدي

وتـــزوره حـــيـــنـــا فـــتـــؤنـــسه

بـــعض الـــطـــيـــور بـــصـــوتـــهـــا الـــغـــرد

كـــتـــبـــوا عـــلى حـــجـــراته بـــدم

ســـطـــرا به عـــظـــة لـــذي رشـــد:

«هـــذا قـــتـــيل هـــوى بـــبـــنت هـــوىً

فـــإذا مـــررت بـــأخـــتـــهـــا فَـــحِـــد»

لا أزعم أني عرضت، من وجدانية بشارة الخوري في ما قدمت، غير التماعة من

ألق يغمر شعره، فهو في حقيقته ممثل جامع لميزات حقبة من نهضة الشعر العربي كان لبنان فيها يدرك بأن أخطله الصغير شاعر كبير جدير بأن يقول كلمته الشعرية في مشتركات المشاعر والمحافل، مبرزاً يدق أبواب الخلود! أوليس هو القائل في شوقي قولة نراها له وفيه:

«قف في ربى الخلد واهتف باسم شاعره

فسدرة المنتهى أدنى منابره»

نسيم نصر

****

بشارة الخوري كما عرفته

منصور أبي صالح

صحافي لبق وشاعر رقيق، جناحاه العقل والذوق، انصرف إلى الشعر فحلَّق..

من كبت حَميديّ صارم وعهد تركي داجن انفجر بركان الثورة في السلطنة العثمانية :«حريت، إخاء، عدالت، مشروطيت» فانطلقت الألسن وعمت الفوضى (سنة ١٩٠٨).

وطلع بشارة عبدالله الخوري برسالة صحيحة (لا تجارية ولا بازارية) في جريدته «البرق» وطنية لبنانية عربية عثمانية نزولا على حكم واقعها.

ولمع «برقه» بجناحي العقل والذوق كاتبا وشاعرا. ولك من نثره في تولستوي مثال:

ذكاء وشَعره الأبيض يوحيه. و... تبارك يمين المبدع فيه.

ومن شعره: «وقفة أيها القمر».. «خبروها إذا أتيتم حماها».. «قلل الشرق حاذري أن تميدي».

كل ذلك إلى انتقاد مُرٍّ غير هياب حتى حاول المصعوقون التخلص منه بالرصاص فنجا وزميله اميل خوري من الاغتيال.

وحسبك نكتته اللاذعة ورؤوس حرابه الذائعة. بمثل ذلك جذب إليه أرباب القلم شيبا وشبانا وزعماء سياسيين فظهر في «برقه» اسكندر العازار، ومحيي الدين الخياط، وجبر ضومط، وعارف الزين، وشوقي مصر، الى رصافي العراق، وخوري

■ الورود، أيار ١٩٦١، السنة ١٤، ج٩.

الشام، إلى تقي الدين، والجميل، وريحاني لبنان، إلى الفئة الناشئة زكور وكرم، الى ما لا يسهل حصره.

فكان «برقه» دائرة معارف علمية أدبية سياسية تاريخية اقتصادية مما يصح اتخاذه اليوم قاعدة لنهضتنا.

ثم بحكم الظروف والأحوال انصرف الى الشعر فكان الأخطل الكبير فعلا، والصغير تأدبا.

هذا الذي صرف ستين عاما في خدمة البلاد بقلمه، ولا يزال ناشطا يحق له التكريم غير مقتصر على الأقوال، بالاحتفال بتخليد تذكاري ترخص في سبيله الأموال ليبقى نورا لامعا ومثالا يحتذى.

منصور أبي صالح

****

بشارة الخوري كما عرفته

منصور أبي صالح

صحافي لبق وشاعر رقيق، جناحاه العقل والذوق، انصرف إلى الشعر فحلَّق..

من كبت حَميديّ صارم وعهد تركي داجن انفجر بركان الثورة في السلطنة العثمانية :«حريت، إخاء، عدالت، مشروطيت» فانطلقت الألسن وعمت الفوضى (سنة ١٩٠٨).

وطلع بشارة عبدالله الخوري برسالة صحيحة (لا تجارية ولا بازارية) في جريدته «البرق» وطنية لبنانية عربية عثمانية نزولا على حكم واقعها.

ولمع «برقه» بجناحي العقل والذوق كاتبا وشاعرا. ولك من نثره في تولستوي مثال:

ذكاء وشَعره الأبيض يوحيه. و... تبارك يمين المبدع فيه.

ومن شعره: «وقفة أيها القمر».. «خبروها إذا أتيتم حماها».. «قلل الشرق حاذري أن تميدي».

كل ذلك إلى انتقاد مُرٍّ غير هياب حتى حاول المصعوقون التخلص منه بالرصاص فنجا وزميله اميل خوري من الاغتيال.

وحسبك نكتته اللاذعة ورؤوس حرابه الذائعة. بمثل ذلك جذب إليه أرباب القلم شيبا وشبانا وزعماء سياسيين فظهر في «برقه» اسكندر العازار، ومحيي الدين الخياط، وجبر ضومط، وعارف الزين، وشوقي مصر، الى رصافي العراق، وخوري

■ الورود، أيار ١٩٦١، السنة ١٤، ج٩.

الشام، إلى تقي الدين، والجميل، وريحاني لبنان، إلى الفئة الناشئة زكور وكرم، الى ما لا يسهل حصره.

فكان «برقه» دائرة معارف علمية أدبية سياسية تاريخية اقتصادية مما يصح اتخاذه اليوم قاعدة لنهضتنا.

ثم بحكم الظروف والأحوال انصرف الى الشعر فكان الأخطل الكبير فعلا، والصغير تأدبا.

هذا الذي صرف ستين عاما في خدمة البلاد بقلمه، ولا يزال ناشطا يحق له التكريم غير مقتصر على الأقوال، بالاحتفال بتخليد تذكاري ترخص في سبيله الأموال ليبقى نورا لامعا ومثالا يحتذى.

منصور أبي صالح

****

بشارة الخوري.... شاعر الهوى والشباب

عادل الغضبان

نفح الريحان وشعاع الصهباء..
وحمرة الشفق وخضرة الأرز ...
ونعومة الحرير ورقة خدود الورد ...

إذا جُبلت بندى الصباح وبسمة الفجر ونفخ فيها النسيم من نفثاته كانت صورة صادقة لروح بشارة الخوري شاعر الهوى والجمال. عاش حتى اليوم بتلك الروح الرقيقة الحلوة ينبض بها الشعور الحي الخافق فأسالها على أوتار الشعر غناء تنتشي منه القلوب قبل الأسماع وحمل ذلك الغناء الى قلوب الناس صوراً من جراحات الهوى وبسماته فكان لنفوسهم مهزّة حركت جوانح الهانئ السعيد وسكبت العزاء على فؤاد الشجي العميد.

للأخطل الصغير اليوم في الأمة العربية منزلة الأخطل الكبير في الدولة الأموية، فما من بلد عربي إلا وله في نفوس أبنائه المكانة الرفيعة، فإن لم يكن شاعر دولة بعينها أو شاعر أمير بعينه فلأنه شاعر الدول والأمراء أجمع وشاعر الأمة العربية جمعاء، انزلته من فؤادها في الصميم وجعلته فيه بين النخبة المختارة من شعراء القرن العشرين الذين تؤثرهم بالمحبة والإعجاب.

ولئن كان الأخطل الكبير يدخل على الملوك في مجالسهم ويحظى عندهم وكان الخليفة يكرمه وأولاد الملوك والأمراء يعظمونه ويبجلونه، لقد حظي الأخطل الصغير عند كل ملك ورئيس وأمير بله حظوته عند شعوب الأرض طراً. وكان للأخطل الكبير راوية اسمه جرير يروي شعره وينشره في الناس. أما الأخطل الصغير فله جيوش من الرواة، فقد سار شعره

■ الجريدة الأسبوعية ، ١٩٦١.

على لهوات المغنين يتفننون فيه تلحيناً وإنشاداً وسار على أفواه المعجبين يتناشدونه في كل مدينة وقرية، وهذا منتهى ما يصبو إليه الشاعر العبقري الصداح.

ولكن هل تقف المشابهة بين الأخطلين عند نصرانيتهما ومكانهما من الرؤساء. لا نظن هذا وحده هو الذي أوحى الى بشارة الخوري بأن يتسمى بالأخطل الصغير عندما اضطرته الأحوال الى التكتم والاستتار، فلا بد أن يكون بينهما تجاوب روحي حمل شاعر القرن العشرين على أن يختار اسم الأخطل. وإننا لنلمس ذلك التجاوب في شعرهما الذي يصور لنا تشابه نفسيهما فكلاهما شاعر الهوى والجمال.

يتألق شعر الأخطل الكبير في كثير من قصائده بوصف شجون الفؤاد ومطارح الهوى والصبابة ولا يخلو من وصف جمال المرأة على النحو الذي كان يستسيغه ذوق العصر، فالمرأة في نظره:

أسـيـلـة مـجـرى الـدمع أمـا وشـاحـهـا

فـجـارٍ وأمـا الـحـجْل مـنـهـا فـمـا يـجـري

ويظل يتعقب ذلك الجمال يبحث عنه مدفوعاً إليه بخفقان الفؤاد ونهم العين لا يرتوي منه ولا يشبع فكلما سكن فؤاده حركه هوى جديد وجمال جديد:

وإذا أقـــول صـــحـــوت من أدوائـــهـــا

هـــاج الـــفـــؤادَ دُمـىً أوانسُ حـــور

ومثل هذا التجدد في روح القلب وريحانه يشعر به الأخطل الصغير ويسرّ به في قرارة نفسه غير أنه لا يلبث أن يصيح صيحة القوي المعتد بنفسه:

كـــفـــانيَ يـــا قـــلـب مـــا أحـــمـل

أفـي كـل يـــــــوم هـــــــوى أولُ

وإنه لـدلال من الشاعـر ليس إلا... فما صرخته هذه وما صرختـه السـابقة التي يتأفف فيها من حمل تبعات الهوى وحده إلا استفهام إنكاري خرج عن معناه كما يقول البلاغيون.

والأخطل الصغير لا يرى جمال المرأة حيث يراه الأخطل الكبير أسالةً في الخد وضموراً في الخصر وعبلاً في الذراع والساق. إنه يراه أولاً في الروح الرهيفة السامية السابحة في غمرات الضياء فوق مناكب الحسن فلا يعدلها في الأرض إلا أرواح الملائكة في السماء. ويوم يشاء أن ينظر الى المرأة نظرة أهل الأرض نراه يرسمها كما رسمها شعراء العرب ولكن بأضواء وظلال جديدة وبطلاء جديد لا يكتفي فيه بألوان قوس قزح بل يتأنق فنه في المزج بين لون وآخر ويبتدع ألواناً جديدة هي من صنع عقله وقلبه وفنه، فرسومه تلك مبثوثة في جوانب شتى من قصائده.

ولقد يبرز الأخطل الكبير في غير فن من فنون الشعر وقد يتجاوب وشاعرنا في كثير من نزعات النفس وخفقات الفؤاد ولكنه في الهوى والجمال تلميذ للأخطل الصغير ولا غلو. فراية شاعر بني أمية في هذا الميدان تقصر عن راية ابن لبنان المشكوكة في أعلى قمة من جبل الوحي والإلهام. فليس للأخطل الكبير على كثرة ما غنى للهوى والجمال أفانين الأخطل الصغير ولا خفة روحه وليس له فيهما تلك المعاني التي تهز السامع وتنتزع منه آهات الإعجاب وترقصه على حبال الطرب ولو كان أرسخ من صنين حلماً ووقاراً.

فليس للأخطل الكبير مثل هذا الشعر المرقص المطرب:

ما كان أحلى قبلات الهوى
إن كنت لا تذكر فاسأل فمكْ
تمر بي كأنني لم أكن
ثغرك أو صدرك أو معصمك
لو مر سيف بيننا لم نكن
نعلم هل أجرى دمي أو دمك

وليس له مثل هذه الحكمة في الحب والعشاق:

هكذا أهل الغزل   كلما خافوا الملل   أنعشوه بالقبل

ولا له هذا الإغراء الذي يطيح برصانة القلوب وعفاف الشفاه:

مـا لـلـشـفـاه الـكـسـالى لا تُـزوِّدنـا
فـقـد حَـمـلْـنـا عـلى افـواهـنـا الـقـربـا

ولا عرف أن يبلغ المحبين رسالات الهوى على هذا النحو اللذيذ الفاتن:

رســالـــة من فــمه لــفــمـــهـــا
كــذا رســالات الــهـــوى تُـــخـــتـــصـــر

وهذا هو الإعجاز في الإيجاز. وللأخطل الصغير في مثل هذه المعاني المنتقاة من ينابيع الهوى والجمال ذخيرة وافرة بل كنز ثمين تجعله أغنى شعراء الحب ثروة وأرفعهم ذروة وأوفرهم تفننا فهو إمام المحبين يوزع عليهم الكاسات والأقداح ويملأها لهم من شراب الهوى والصبابة ولا يضيره أن يكون واقعي المذهب أحياناً قاسياً على الحقيقة وعلى الحبيب معاً وأنى يحفل بالرمز إذا هو علّ من نبع الواقع فاسمع لتلك الفراشة ماذا تقول:

فــأنـــا بـــصـــدر حـــبـــيـــبـــتي
كـــــفـــــراشـــــة في قــــلب ورده

فلينهل ما شاء من عطر الورود فإذا ارتوى وأراد المقيل وفر له الهوى وساداً وثيراً ناعماً جميلاً وصفه فقال:

ورمى الــــهـــوى بي فـــارتـــمـــيت
وكـــان نـــهـــداهـــا المخـــده

وإمامته في الحب وسلطانه الأعلى فيه وعلمه الخفاق في شعر الحب كل هذا يلبسه هذا الثوب من الأثرة فيرشف ما يشتهي ويتسد حيث يشتهي غير حافل بما تحت الوساد من قلب خافق ونفس مضطربة فيحيى بن تبعي الأندلسي لم يكن في مثل شجاعته عندما قال:

حـــتى إذا مـــالت بـه سِـــنَـــةُ الــكـــرى
زحـــزحـــته عـــني وكـــان مـــعـــانـــقي

بـــاعـــدته عن أضـــلع تـــشـــتـــاقه
كي لا يـــنـــام عـــلـى وســـاد خـــافق

وفيمَ يتشجع الأخطل الصغير وعلاَم يترفق وهو الأمير المنشّر الأعلام في دولة الهوى والجمال، فلئن عرف للحسن مقامه وجلاله إنه يدر أيضاً للشعر قوته وسلطانه.

فإن صح أن يكون أحدهما التابع والآخر المتبوع فحري بأن يكون الشعر هو السيد المؤمر وعلى هذا فمن حق الشعر أن يتيه دلالاً على الحسن ففي يديه نشر صيته وبث محاسنه وفي قوافيه مقاصير الخلود يُسكنه إياها منعماً متفضلاً، فلله شاعرنا مفاضلاً بين الشعر والحسن مكللاً جبين الشعر بغار السبق إذ يقول:

مـــا الحـــسن لـــولا الـــشـــعـــر إلا زهـــرة
يـــلـــهـــو بـــهـــا في لحـــظـــتـــين الـــنـــظـــرُ
لـــكـــنـــهـــا إن أدركـــتـــهـــا رقـــة
من شـــاعـــر أو دمـــعـــة تـــنـــحـــدر
ســـالت دمـــاء الخـــلـــد في أوراقـــهـــا
ونـــام تحت قـــدمـــيـــهـــا الـــقـــمـــر

ولم تقف المشاكلة الروحية بين الأخطلين عند حد الهوى والجمال فقد تعدتهما إلى بنت الكروم وإلى إبداع كل منهما في وصفها حية ومقتولة.

عادل الغضبان

****

ابـــيـــــــض

رسالـــة غبطـة
البطريرك المعوشي في مهرجان الأخطل(*)

البركة الرسولية تشمل ولدنا العزيز الشاعر الكبير الأستاذ بشارة الخوري الأخطل الصغير المحترم.

وجهت إلينا اللجنة المنبثقة من مؤتمر أدباء لبنان دعوة للاشتراك بالحفلة التكريمية التي تقيمها لكم في الرابع من الشهر الجاري.

إننا إذ نشكر اللجنة المحترمة دعوتها نثني على العاطفة الطيبة التي أحاطكم بها إخوانكم الأدباء تقديرا للنتاج الخير الذي تفتقت عنه قريحتكم نثراً أنيق الديباجة، وشعراً من أطيب الشعر جاء سحراً حلالاً ولُمعاً صادقة مما استعر بين جوانحكم من عاطفة وطنية وأتى صدى عميق الأغوار لما اكتنز في روعكم من ثقافة شرقية غربية زاهية الألوان وتجلى صورة ناطقة لما تزخر به طبيعة لبنان من جمال وروعة وقد غنيتموه قصائد ستبقى مثاراً للنخوة في صدور الأجيال الطالعة ومتعة للأذن واللسان والخيال.

وفيما نشترك في حفلة تكريمكم بالفكر والعاطفة نزجيها إليكم تهنئة أبوية خالصة سائلين الله أن يسبغ عليكم ثوب العافية ويمتعكم برغد العيش لتظلوا في دولة الشعر والأدب علماً من أرفع أعلامها وفخراً للناطقين بالضاد ومجداً للبنان.

البطريرك بولس بطرس المعوشي

****

■ الورود، حزيران ١٩٦١، السنة ١٤، ج١٠.

(*) انظر نص رسالة البطريرك إلى الشاعر وصورتها في «كتاب رسائل إلى الأخطل الصغير» ، مرجع سابق، ص (٢٧،٢٨).

ابـــــــــــــــــيـض

فـي محـراب الشـاعر

الشيخ عبدالله العلايلي

لعلـها البادرة الأولى الحميـدة، في لبنان، أن نكرم ألمعياً والحياة ملء برديه، فيعرف أن مجتمعه يقدره قدره، ولم يغفله زهرة تذوي على ذات نفسها في النضرة، في العبق، في الطيب.. ولم يدعه كالشمعة وهي تعطي الضياء تسيل قطرة قطرة موصولة بقطرة، وعبرة لاتنفك عن عبرة إلى انطفاء.

وخليق بعبقري أعطى، أن يجزى، وقليل مهما جل العطاء في جنب العبقري النافع الجزاء.

إنه يراعة من منابت الآلهة، فما جرت على قرطاس، إلا رسمت ألف لون ولون، وانهمرت الجمالات انهمار الشعاع من فم الفجر، وبتعبير شاعرنا في الغلاييني:

فـتن الـفـجـر سـنى عِـمَّـتِه
فـأتى يـلـثـمـهـا فـانـطـبـعـا

سواء أكان الفن هو الذي يقلد الطبيعة، أم الطبيعة هي التي تقلد الفن، فمما لا ريب فيه، أن الشعر يجنحها جميعا، فالشعر في حقيقته، هو الغاية التي ينتهي إليها كل تكيف فني.

ففيه الطبيعة ضرب من الحس المبدع، وفيه الفن لون من الاتساق الأزلي الخالد...

وهذه الكلمة - على أني لم أعقدها لحديث الشعر الخاص بل للإشارة إلى الشاعر - لا أجد معدى، وأنا أحس بالصلة الشاملة، عن أن أقيمها على بعض خطوط وصفية

■ الورود، حزيران ١٩٦١ ، السنة الرابعة عشرة ، ج: ١

يلوح من خلالها وجه الشعر الحق.. وأعني: يلوح من خلالها وجه الشاعر.

أرى في الشعر: أنه كائن حي فيه وحدة الحياة الإنسانية ووحدة الحياة الشائعة في سائر أجزاء الوجود..

وجميل حقا أن نرى الشعر من هذه الزاوية، زاوية أنه كائن يتمتع بأخص صفات الحياة.. فهو يأمل ويألم، ويحب ويهيم، ويفكر ويحلم، الى غير ذلك كله من خصائص الأحياء، ولكنها في الشعر خصائص كلية.

نعم إن الشعر الحي، يرينا في القطعة المتفجعة أنفاسا تذوب حقا وتتقطع حقا في صدر قريب منا، تضطرب حناياه وتطرد، حتى لنسمع ونبصر دموعه المتساقطة الى مهواها. كما يرسم في القطعة الضاحكة، الشفاه المفترة، حتى لكأنما هو يجسد اللحظة الملهمة، والهنيهة في قلب الإبداع.

أما القطعة حين لا تجيء أكثر من صورة، فإنها صنو الجسد الثاوي: فيه تقاطيع، وفيه جمالات وفيه أشكال تامة، ولكنها فاقدة الحرارة لأنها فاقدة الحياة.

وشاعرنا الأكبر من بعد، جاء بحق هبة نادرة عن يد الشعر، وفي بسطة كف امتدت بجود وسخاء. وأنت دون شك، تلمس من هذا الجود وهذا السخاء، وتلمس كثيرا في ما يعرض من صور مشبوبة الحس، تواقة الروح، بادية الخصب.

ولصوره طابع متميز، فهي تعطيك ولا تفتأ، تعطيك ولا تنقطع... وإذا أنت على العهد القريب بها، تحسبها جديدة، جديدة كأنما لم تقع إليك من قبل.. وإذا أنت تقبل عليها وتقرؤها بلذة الطريف البدع، في كل ما له من حرارة وتعلق.

وهذا الاعتمال الدائب، هو ميزة فن الحياة، أو قل هو ميزة الحياة حينما تتأنق لتعطي فنا.

وأبونواس في العهد العتيق، أحس بهذا الاعتمال إحساسا حسنا وعبر عنه تعبيرا صادقا في هنيهة شعرية ملهمة:

يـــــزيـــــدك وجـــــهه حـــــســـــنـــــا

فهذا الوجه النواسي ليس كما تعرف من الوجوه الفاتنة، التي تختصر فتنتها بنظرة ثم تنزلق.. بل وجه لا يكاد يتراءى لك حتى تعلق عليه مقلتاك، لأنه لا ينفك يتكشف عن جديد، ولا يفتأ يتزحزح عن أسرار.

فإذا النظرة نظرة موصولة وهكذا نتوهم، وإذا هي بدايات مطردة لا تموت في نهاية.

هذا الاعتمال أو هذا الدفق الزاخر بموهبة الجمال، الذي أحس به أبو نواس حيال شيء من الحياة.. نحن نحس بمثله حيال بعض من الأدب، وحيال بعض من الفن.

وليس لي في هذه الكلمة العجلى أن أضع محاسن شاعرنا الكبير أو بعضها، موضع التحليل فشأن ذلك دراسة كاملة مستفيضة.

وحسبي من الإشارة إليه: أنه على إبداعه، مترع البيان مترفه، حتى لتخال أن حروفه مسحتها شفاه مرآة.

الشيخ عبدالله العلايلي

✱✱✱✱

ابيض

يوم الأخطـل

يوم الشرق العربي، يوم مبايعته بالإمارة

بديع شبلي

شهد لبنان، ما لم يشهده الشرق العربي، حتى في أزهى عصوره، وأطلق نهضاته الأدبية، شهد مهرجان تكريم الأستاذ بشارة الخوري، الأخطل الصغير.

غصت في الرابع من هذا الشهر، قاعة قصر الاونيسكو في بيروت، بجماهير غفيرة مختارة من سياسيين: شعراء ووزراء، وقناصل، وكثيرين من علية رجال الدين على اختلاف المذاهب، وصحافيين وأدباء وشعراء، حتى من البلدان العربية الشقيقة أتوا ليشهدوا سوق عكاظ، وأين سوق عكاظ الغابرة، من سوق تكريم صاحب «الهوى والشباب» الذي أحيا الكلمة، وألبس الشعر مطارف الجلال، فخطر في قشيب تزهو جدته في كل عصر، فمزق الحجب عن بهاء القديم ووسمه بجديد من قلبه، وعقله وخياله، حتى لتكاد تلمس فيه نبضه، وتحس بدفء أنفاسه العطرة، وجوارحه الرقيقة الحنونة الملتهبة حبا. وإذا سألتنا عن صوته وكأنه لدى الإلقاء، صاعد من كهوف الدهور، أو من وراء حجب المستقبل، فاقرأ شعره، وإليك ديوانه الجديد قلادة العصر في جيد الشعر.

ليس بكثير أن يكرم شاعرنا في حياته أمد الله بها، فكم هتف باسم لبنان والعرب، وغناهما على أروع ما يكون الغناء، أليس هو الذي بايع المغفور له شوقي، بإمارة الشعر، فها شعراء البلاد العربية يبايعونه بها، فقال الشاعر صالح جودت ممثل شعراء الإقليم الجنوبي في الجمهورية العربية المتحدة، والمجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، والأمانة العامة لجامعة الدول العربية:

«.. وجلا من خيوطها أشعاره
فعقدنا له لواء الإماره»

■ افتتاحية، الورود، حزيران ١٩٦١، السنة الرابعة عشرة، الجزء العاشر.

وبايعه شاعر الإقليم الشمالي عمر أبوريشة بقوله:

«ضــــفـــــروا لـه من دوح أرزك غـــــاره

أكـــرم بمـــضـــفـــور لـه وبـــضـــافـــر»

وأمين نخله شاعر لبنان أنشد مبايعا:

«أيـــقـــولـــون أخـــطل وصـــغـــيـــر

أنت في دولـــة الـــبـــيـــان أمـــيـــر»

أما قصيدة الجواهري شاعر العراق الأكبر، فقال فيها:

«أبـــــشـــــارة أنـــــذا لـــــديك

مـــحـــمـلاً غـــار الـــقـــلـــوب»

لقد اغتبط لبنان بعرش هذه الإمارة، وإن كان أخطلنا، منذ أمد بعيد، متربعا عليه بجدارة وجلال، والشعر عنده كل يوم في عرس. وأعلن في أثناء الاحتفال، معالي الوزير عبدالله المشنوق، أن الحكومة أقرت نصب تمثال المحتفى به في باحة قصر الأونيسكو، وإطلاق اسمه على أحد شوارع بيروت، كما أعلن معالي الوزير صفي الدين، إقرار وزارة التربية بتعليق رسم الشاعر، في دار الكتب الكبرى، وهو من روائع ريشة الفنان الكبير رشيد وهيبي.

اتصل بنا جميع الذين نثبت قصائدهم وكلماتهم، في هذا الجزء من الورود الخاص بحفلة تكريم أمير الشعراء بشارة الخوري، لما لاقت من نشرها في جميع الجرائد إلا أقلها، من تشويه وتجريح وتهشيم من شتى الوجوه. وها نحن ننشرها بحسب ترتيبها، كما ألقيت في مهرجان الأخطل الصغير، إعادة لاعتبارها، مزفينها مجلوة، الى مشتركي الورود الأعزاء، وقرائها الأكارم..

بديع شبلي

****

كلمة الحكومة

لدولة الرئيس صائب سلام(*)

الأخطل الصغير الكبير، قطعة من قلب لبنان وصوت جاب الآفاق وروح شفافة ضمت مشاعرها آمال وآلام، وقيثارة عربية الأوتار تلاقت على أنغامها بيروت والقاهرة والقدس وبغداد ومكة وصنعاء، ودمشق والمغرب، في ملاحم تبقى على الدهر ما بقي الشعر بل ما بقي العرب.

فالشاعر الكبير الذي نكرم اليوم، مفخرة لوطن، وحدث في تاريخ شعب.. وجه في كتاب التاريخ للعرب جميعا.. خمسون عاما خلت، أفاقت فيها الدنيا العربية على صوت الأخطل الصغير وأترابه من فحول الشعراء ينفخون في عروقها بنداء الحرية فيصيب منها شاعرنا العظيم نصيبه الوافر ويعي قلبه الكبير الملهم أفراح الأمة وأتراحها وهي تمر بأحلك أيام محنتها وانتفاضة نهضتها فيسكب كل ذلك في شعر صبغت حروفه بالدم، تخطه أنامله لا تحفل بغير الحب والحق والجمال، فإذا بهذا الشعر يغدو على مر الأعوام سفارة لبنانية من الصميم وفي الصميم تحمل قلب لبنان الى قلب كل بلد عربي، وإذا بهذا الشعر نشيد الحب والحرية يرويه الرواة بكل أرض. وكأن شوقي رحمات الله عليه قال بلسانه، بلسان الأخطل بيته الخالد:

رواة قصائدي فاعجب لشعر
بكل محلة يرويه خلق

■ الورود. حزيران ١٩٦١، السنة ١٤، ج: ١٠.

(*) انظر نص رسالة صائب سلام وصورتها إلى الشاعر عندما أهدى إليه ديوان «الهوى والشباب» في كتاب «رسائل إلى الأخطل الصغير»، مرجع سابق، ص: (٦٩، ٧٠).

أو المتنبي في بيته الصامد:

ومـــا الـــدهـــر إلا من رواة قـــصـــائـــدي

إذا قـلـت شـعـراً أصـبـح الـدهـر مـنـشـدا

أجل يا شاعرنا الكبير. لقد أضفيت على لبنان مجدا نعتز به رئيسا وحكومة وشعباً، وأضفت إلى تراثنا الأدبي ـ مد الله بعمرك ـ أغلى الروائع، ونهضت برسالة الشعر إلى سدتها العليا وحملت لواء الحرف عاشقاً ومجاهداً، فكنت المجلي في ساحتين:ساحة الحب والجمال، وساحة الجهاد والنضال.

وإني لأشيد مفاخراً بعمل اللجنة التكريمية التي هيأت ودعت إلى هذا المهرجان. لأنها بعملها النبيل أتاحت لنا ولممثلي البلاد العربية الشقيقة هذا اللقاء السعيد، وأتاحت لي شخصياً شرف تمثيل رئيس لبنان فأحمل إلى شاعرنا العظيم، من على هذا المنبر تحيته وتحية لبنان.

فيا صديقي شاعر العرب، حسبك هذا الإجماع على تقدير نبوغك وتكريم إبداعك وحسب لبنان أنك تخطيت بشعرك الحدود، ونفذت إلى كل أرض عربية،تحمل إليها عبير الحب وأريج الأخوة، كما تحمل إليها عروبة لبنان الأصيلة الصافية، وحسبي أنا – وروابط الوداد التي تشدني بك موضع اعتزازي – أن ألقاك بهذا اليوم الخالد السعيد لأقول لك: ستبقى إلى الأبد موضع تكريم لبنان.

دولة الرئيس صائب سلام

****

كلمة الصحافــة

عفيف الطيبي

حدثتنا السير عن الخالدين، فعشنا معهم تراثا، ننهل من المورد، ونتغنى بالعطاء، فحمدنا المورد لا يشح ولا ينضب، وأكبرنا في الأثر، النعمة وسخي العطاء.

غبطنا تلك الأجيال بما كانت علامتها، وبما بقيت مكانتها تيها وعجبا بمن عاصرت، وقد كتب لها أن تراهم، عينا وأن تقاربهم عيشا حتى كان من الجيل عطية، ونصيب، فكتب لنا أيضا، أن نزهو كما زهوا، وأن نباهي بمثل ما قد باهوا، اليوم تعود للبنان قيمة كبرى من قيمه، كأنها تأخذ مكان الصدراة، مكانها.

اليوم، أرى وجه لبنان، حفظ بقلبه، ولسانه، وبكل تاريخه وأعلامه، الأمجاد والكنوز وأضاف على الأمجاد وفاء ومجداً، فكان القلب بما حفظ وأوفى، صورة الوجه تألقا وإشراقا، وكان الوجه تعبير القلب، قطعة أبدع وأجلى.

اليوم، وما كان لبنان إلا هذه الصورة، وما هو إلا هذه الصورة، وما هو إلا هذه القيمة ويبقى.. نعيش الحقيقة ونحياها، كما أرادها الباعث والحافز، غنى لبنان والعرب، أرق الشعر وأعذبه، ألهب الحب، والكفاح أذكى، فأعاد وزاد على التاريخ، بأنه في غير سهل وفي الليل الكالح حقا أعلى بالذي أعلى منذ جعل لبنان قصيدة عربية خالدة، ومنذ كان لبنان أرضا وفكراً، ذمة وعهداً.

ـ من هذا الناحل؟ تعب جسده في روحه ومراده.

ـ من هذا الملهم الكبير؟ كبر الفكر في أفقه والمدى.

■ **الورود، حزيران ١٩٦١، السنة ١٤، ج ١٠ ، في حفل تكريم الأخطل ١٩٦١.**

ـ من هذا المعطاء؟ في الخير باذلا، وتقوى الله امر في سؤاله

ـ من هذا الناحل الفرد؟ أخذنا كثرة وأمة، ولا زال مما أعطى، لكل أن يمعن أخذا.

ـ على كل المشارف من بيض راياته راية.

ـ وبكل يد من جيد صنيعه، صفحة وآية.

ـ صحافة لبنان وهي ترحب بكم، تشكر دولة الرئيس السيد صائب سلام، ولكم هذه المشاركة، في أبهى أعراسها وفي عيد أعيادها. وتقول:

– منا وعميدنا هذا الرجل.

عفيف الطيبي

****

الشاعر العطية

سعيد عقل

عندما، في صدفة سعيدة، خَطَّت أنامله لأول مرة، بيتا من قصيد، كانت السماء قد نوت خيرا بالجمال وبأزاهر البال.

وكأني به، في تلك الهنيهة، افتتن بسطر أطلعه صنوا للشهقة في الحب الكبير، فقال: حسن أن أكون عنبا من غيب وتعركه يد من غيب، حسن أن أكون سكر العقول.

في الهنيهة تلك، وقد طرب هو، تقرر أن يكون في لبنان أمير كلمة، وتطرب الدنيا.

لكان بوسع الصدف أن تشاءه يحرك فرشاة لا قلما، إزميلا أو بركارا، لكان حتما ولد لنا من يرقص الظل واللون، أو من يوقف الزمن في المرمر، أو من تدين له الأثقال العجب ومن بعلبك تضاحكه الستة حاملات الشمس.

هذا الشاعر عطية.

وعطية أن يكون صلى تحت أحلى سماء، كما تقول الأغنية بفم فيروز. آيته أنه دس الغزل في كل شيء، هذه لن أنساها له (اعذروني إن تكلمت كلام القيم على مجدنا الذي يهيأ أو على تفردات لبنان) بوسع هذا الشاعر ـ الثروة أن لا يحبني ما هم. أنا أحبه. إنه بمعالجته الخواطر بالغزل ـ كما العدو بالحب ـ أضاف الى شعرنا بعداً آخر جديدا، ولبنان، أصلا، جدة وعجب، فمن أتى بشيء منهما عددناه أرزة في الأرزات. وليعمل بعدها ما يشاء: خطيئته نفسها تغدو تبريكا، صلاة، ورضوانا من الله.

ومشعل الشعر حمله لا أنانيا ولا جبانا: فما كان لوطنه وحسب، لا وإنما كل رملة من رمال الشرق مدينة له بعنفوان. أما في مجالدة القبح والظلم فما ونى ولا هاود.

■ الورود، ١٩٦١.

أحببته أحببت، ودوماً من أجلهما في الحميم من زوايا الصدر ضفرت له إكليلا. من هنا إنني أضمرت له الدعوة الى هذا اليوم طويلا طويلا قبل أن أطلقت النداء. ولو لم تستجب إليَّ أمة ودولة وبلابل من كل غصن لكنت خجلا بي أمام الشعر.

إلا أن اسم الأخطل الصغير أزاح الحوائل وفتت الصعاب تتشعب وتتكاثر. لأنه ما من زهرة في الشرق إلا كانت قد استوردت منه خدا أو نفسا طريفا.

سبحانك شعرهم، بك ايضا ـ عفوه تعالى ـ يتبلج الحق، تتهادن الأحقاد، وتتحول الكلمة سماء مكوكبة.

سعيد عقل

****

«الأخطل الصغير»
دراسة فنية لشعره

أنور المعداوي

«عندما يتزوج الفكر الحياة ، تولد التجربة في الفن». إذا لم تخني الذاكرة، فألبير كامي هو صاحب هذه الكلمات. وبقدر ما تحمل كلماته هنا من روح الشعر، فهي تحمل الكثير من منطق التجديد العلمي الضابط للمقاييس النقدية. ذلك لأن مفهوم المزاوجة بين كل طرفين متقابلين، هو أن تكون هناك عملية ارتباط تفاعلية، يتحقق فيها عنصر التبادل المثمر أو المشاركة المنتجة، إنها عملية يتوفر فيها جانب الإرادة كما يتوفر جانب الإدراك، لأننا حين نفكر في أن نرتبط بالطرف المقابل لوجودنا الإنساني، ندرك ما وراء اتجاهنا من رغبة ملحة في الشعور المكثف بالحياة.. من خلال رؤية عقلية معينة. من هنا يتم تفتيت اللحظة الزمنية في بوتقة التفاعل المزدوج بين الوجود الداخلي والوجود الخارجي، أو بين حركة التأمل الفكري للفنان، وحركة الحياة المندمجة في حركة الزمن. وتفتيت اللحظة الزمنية إلى جزئيات، متغيرة ونامية، وهو ما نعبر عنه بمراحل التجربة. والتجربة النفسية في الفن، تقتضي – لكي نتم لها كل أبعاد التجسيم – أن نعين في قلب اللحظة الزمنية، وأن نراقب نموها من الداخل. ذلك لأن عملية المعايشة من الخارج – بعيدا عن مجال المراقبة التأملية الدقيقة – لا يفتح من نوافذ الرؤية لمراحل النمو المطرد، غير تلك النافذة التي نطل منها على مرحلة التبلور النهائي، عندما يقتصر الفنان على أن يعطينا خلاصة التجربة.

■ الآداب ، حزيران ١٩٦١، سنة ٩، عدد ٦٠.

وعملية المعايشة من الخارج، يترتب عليها من جهة أخرى أن تعرض التجربة وهي مبتورة، أو بمعنى آخر، وهي جذور بغير امتدادات، وإذا ما اقتصرت هذه المعايشة على دور التفاعل الحسي بيننا وبين مشاهد الحياة، فهنا تتلاشى التجربة النفسية المكثفة، لتأخذ مكانها اللوحة الوصفية المجردة!

بشارة الخوري أو الأخطل الصغير – في هذا المجال التجديدي وعبر الرؤية النقدية – يبدو وهو شاعر اللوحة وليس شاعر التجربة.. أنه رسام لوحات مبدع، وصاحب لغة شعرية ممتازة. وهو في محيط التعبير بالألفاظ والصور، يتيح للنقد أن يعتبره واحدا من شعراء الجيل الماضي، وأن يعتبره في الوقت نفسه واحدا من شعراء هذا الجيل. إن النقد – على ضوء السمات التعبيرية لشعره – يستطيع أن يلحقه بمدرسة الشعر التقليدي إلى جانب شوقي ومطران، ويستطيع أن يلحقه بمدرسة الشعر التجديدي إلى جانب إيليا أبي ماضي وعلي محمود طه. فكما نجد في شعره من ملامح المدرسة الأولى ذلك الميل إلى التقريرية والخطابية والاحتفاء برنين اللفظ، نجد من ملامح المدرسة الثانية تلك العناية بأن يحل التجسيم الإيحائي والموسيقى الداخلية والصورة المركبة، محل التقرير والخطابة والتعبير المباشر.

في محيط الشكل التعبيري يمكننا أن ننسب بعض شعر الأخطل الصغير إلى المدرسة الأولى، وأن ننسب بعضه الآخر إلى المدرسة الثانية.. وعندما نقول إنه ليس شاعر التجربة، فإنما نعني التجربة بشكلها الفني الناضج كوليد كامل النمو لزواج الفكر بالحياة. إن عملية الارتباط التفاعلي بالوجود المقابل عند بشارة الخوري، تعتمد على حركة الحواس الخارجية اللاقطة، أكثر مما تعتمد على حركة المشاعر الداخلية المتأملة.. وفي نطاق التخطيط الإطاري والموضوعي للقصيدة، نلمس بوضوح مدى تفوق اللوحة المرسومة على التجربة المعاشة. بل إن هذا التفوق ليبلغ من السيطرة ذلك الحد الذي تتضاءل معه التجربة، بحيث تبدو لنا وهي نقطة ارتكاز بغير انطلاقات.. وإذا ما نظرنا إلى الشعر على أنه مزيج متعادل من المعايشة الحسية والنفسية للوجود المقابل،

فإننا نستطيع أن نكتشف جوهر التفاوت بين نجاح اللوحة وإخفاق التجربة في شعر الأخطل الصغير، وجوهر التفاوت بين المدرسة الأولى والمدرسة الثانية عندما نذكر «الطلاسم» مثلا لأبي ماضي أو «الله والشاعر» لعلي طه، كنموذجين تطبيقيين لتلك العلاقة الزوجية بين الفكر الشعري وبين حقائق الوجود، ومدى ما توفر للتجربة من توازن الأبعاد الموضوعية المختلفة، في مجال انعكاس المد الخارجي على جدران الذات.

وإذا ما نظرنا إلى بشارة الخوري كواحد من شعراء المدرسة الثانية – بالنسبة إلى الشكل التعبيري واتجاهات المضمون الشعري – فإنه يؤكد لنا أصالته كوجه فني لا يعكس ملامح الآخرين.. إنه هنا نسخة غير مكررة، لا تحمل طابع أبي ماضي ولا طابع علي طه، على الرغم من وحدة الخط التجديدي الذي يلتقي على امتداده الشعراء الثلاثة. إن من أهم القيم الفنية لشعرنا المعاصر أن يكون لكل شاعر طعمه الخاص، ولونه المتميز، وطابعه المستقل. إننا بذلك نضمن تنوع الشخصية الشعرية على أساس من تنوع الأداء، حتى لا يستطيع شاعر واحد يمثل مركزية الطابع والاتجاه، أن يلغي من وجودنا الذوقي كل المتفرعين من نقطة البداية، ولقد قلنا يوما على صفحات «الآداب» ونحن نشير إلى الفن الغربي ممثلا في القصة واللوحة والقصيدة، إن النسخة الأصيلة هناك، تبهرنا دائما حيث لا تحدث ظاهرة التكرار والتقليد لشكلية العمل الفني وموضوعيته، مهما اتحد الاتجاه المذهبي عند الكتاب والشعراء والمصورين. جان بول سارتر وألبير كامو بينهما اتجاه وجودي في القصة، وبول ايلوار ولوي أراجون يجمع بينهما اتجاه يساري في الشعر، وبابلو بيكاسو وسلفادور دالي يجمع بينهما اتجاه سريالي في التصوير، ومع ذلك فلن تجد واحداً من هؤلاء – في حدود الاتجاه المذهبي– نسخة مكررة عن الآخر، إنهم جميعاً يمثلون هذه الظاهرة في تاريخ الفن، ونعني بها ظاهرة الاستقلال.

هذه هي صورة الأخطل الصغير كشاعر مجدد، أما حين تلقاه كشاعر كلاسيكي ومن داخل الإطار بضم صورتي شوقي ومطران، فإننا لا نستطيع أن نميز وجهه

الشعري في زحمة الوجوه المتشابهة. ذلك لأن المجرى التعبيري العام لتدفق الطاقة الشعرية عند شعراء المدرسة الأولى، كان يعتمد على كثير من الروافد الجانبية للشعر العربي القديم.. من هنا فقد شعر هذه المدرسة – وهي المدرسة التي اقتطعت جزءاً من الوجود الفني والزمني لبشارة الخوري – جوانب مهمة من مفهوم التنوع الحاسم للشخصية الشعرية، وهو التنوع الذي لا يمكن أن يقوم إلا على أسس ثابتة من الاستعداد والأصالة.

ونعود بعد ذلك إلى مجموعة من نماذج التطبيق، لنكرر القول بأنه شاعر اللوحة وليس شاعر التجربة. إنك في معرض هذا الشاعر الرسام، يواجهك عدد من اللوحات الوصفية.. منها «هند وأمها».. «سلمى الكورانية».. «الصبا والجمال».. «عمر ونعم».. «ندى ووداد».. ونشير إلى هذه اللوحات لأنها تمثل في مجال التعبير بالصور ملامح المدرسة التجديدية، وتقدم إلينا ذلك الطابع الاستقلالي المتميز لواحد من شعراء المدرسة الثانية. ولنقف أمام أول لوحة رسمتها ريشة الأخطل الصغير:

أتت هـــنـــد تـــشـــكـــو إلى أمـــهـــا
فـــســـبـــحـــان من جـــمع الـــنـــيـــرين
فـــقـــالت لـــهـــا إن هـــذا الـــضـــحى
أتـــاني وقـــبـــلـــني قـــبـــلـــتـــين
وفـــرَّ فـــلـــمـــا رآني الـــدجى
حـــبـــاني من شـــعـــره خـــصـــلـــتـــين
ومـــا خـــاف يـــا أم بل ضـــمـــني
وألـــقى عـــلى مـــبـــســـمي نجـــمـــتـــين
وذوّب مـن لـــــونـه ســـــائـلا
وكـــحَّـــلـــني مـــنه في المـــقـــلـــتـــين

وجئت إلى الروض عند الصباح
لأحجب نفسيَ عن كل عين
فناداني الروض يا روضتي
وهم ليفعل كالأوليْن
فخبأت وجهي ولكنه
إلى الصدر يا أم مد اليدين
ويا دهشتي حين فتحت عيني
وشاهدت في الصدر رمانتين
وما زال بي الغصن حتى انحنى
على قدمي ساجدا سجدتين
وكان على رأسه وردتان
فقدم لي تينك الوردتين
وخِفت من الغصن إذ تمتمت
بأذنيَ أوراقه كلمتين
فرحت إلى البحر للابتراد
فحمّلني ويحه موجتين
فما سرت إلا وقد ثارتا
بردفيَّ كالبحر رجراجتين
هو البحر يا أم كم من فتى
غريق وكم من فتى بين بين
فها أنا أشكو إليك الجميع
فبالله يا أم ماذا ترين
فقالت وقد ضحكت أمها
وماست من العُجْب في بردتين

عـــــرفـــــــتــــــهمُ واحــــــداً واحـــــــداً

وذقـت الـــــــذي ذقـــــــتـه مـــــــرتــــــين

في هذه القصيدة صور جزئية تعبر عن مختلف النقلات التخطيطية للريشة الراسمة.. إن الشاعر يرسم لنا لوحة ممتازة، مضمونها إبراز المفاتن الجسدية لفتاة جميلة في دور التكوين. ثم يتيح لنا أن نتابعه وهو ينتقل بريشته من مرحلة إلى مرحلة، وكأنه يقوم بسياحة خارجية لمعالم هذا التكوين الجسدي، من الوجه الأنثوي إلى القدم.. وهو يستخدم الضحى والليل والروض والغصن والبحر، يستخدمها كمجالات خلفية لصورة المرسومة.. ومن الملاحظ أنه لم يلجأ كما هو الحال عند المدرسة الكلاسيكية – إلى التعبير المباشر في التشبيه. لم يلجأ إلى طريقة التجسيم التقليدية ليشبه بياض الوجه بنور الضحى وسواد الشعر بظلام الليل وبريق الأسنان بضوء النجوم، إلى آخر السلسلة من تلك القائمة الرتيبة والمكررة. لقد كانت وسيلته الأولى إلى التجسيم، قائمة على الرمز الإيحائي للصورة المركبة.. صورة الضحى مثلا في موقف التقبيل، والدجى في موقف العناق، والغصن في موقف الهمس والسجود، وما يكمن وراء كل حركة من أمثال هذه الحركات الموقفية، من معنى رامز أو دلالة موحية. أما وسيلته التجسيمية الثانية، فقد ارتكزت على ذلك الجو القصصي الذي غلفت به أجزاء المشهد المعروض، فأكسبتها عنصرا جديدا من ثراء التلوين ودينامية الترابط. ولقد ختم الشاعر مجموعة لمساته الحسية بلمسة نفسية أخيرة في أسفل اللوحة، مضمونها أن غيرة المرأة الجميلة من المرأة الجميلة شعور أصيل من شأنه أن يلغي أمام المنافسة، منطق الاعتراف للطرف المنافس – بقيمه الجمالية... لأن المقارنة في أساسها غير عادلة. وحين نقف وقفة أخرى أمام اللوحة الثانية، يواجهنا في بدايتها نفس الطابع الفني الذي عرفناه في اللوحة السابقة، وهذه هي بداية «سلمى الكورانية»:

تــعـجب الــلـيل مــنــهـا عــنـدمـا بــرزت

تــسـلـسـل الــنـور في عــيـنـيه عــيـنـاهـا

فـظـنـهـا وهـي عـنـد المـاء قـائـمـة
منـارة ضـمـهـا الـشـاطـي وفـدّاهـا
وتـمـتـمت نجـمـة في أذن جـارتـهـا
لمـا رأتـهـا وجـنّت عـنـد مـرآهـا:
انـظـرن يـا إخـوتـا هـذي شـقـيـقـتـنـا
فـمن تـراه عـلـى الـغـبـراء ألـقـاهـا؟
أتـلـك من حـدثت عـنـهـا عـجـائـزنـا
وقُـلـن إن مـلـيك الجن يـهـواهـا؟
فـأطـلق المـارد الجـبـار عـاصـفـة
تـغـزو الـنـجـوم فـكـانت من سـبـايـاهـا؟
قـصَّت نجـيـمـتـنـا الحـسـنـاء بـدعـتـهـا
عن نجـمـة الـشط والآذان تـرعـاهـا
وكـان بـالـقـرب مـنـهـا كـوكب غـزل
يـصـغي فـلـمـا رآهـا سـبح الـلـه
وراح يـقـسم أن لا بـات لـيـلـتـه
إلا عـلـى شـفـتـيـهـا لاثـمـاً فـاهـا!

✡✡✡✡✡

يـا مـلـعب الـشط من «أَنْـفـا» أتـعـلـم مَن
داست عـلـى صـدرك الـبـازيّ رجـلاهـا
ويـا نـواتئ من مـوج ومـن زبـد
أثـنى عـلـيك وحـسب الـفـخـر نـهـداهـا
والـشط في الـصـيف جـنـات مـفـوّفـة
كم فـاخَـرَ الجـبـل الـعـالي وكم بـاهى
إذا أرتك الجـبـال الـغـيـد كـاسـيـة
فـالـشط أذوق مـنـهـا حـين عـرّاهـا!

لو قدمت إلينا هذه اللوحة لسلمى الكورانية وهي غير موقعة أو غير «ممضاة»، أفلا نستطيع أن نضع عليها – دون خوف من الوقوع في الخطأ – توقيع الشاعر، أو إمضاء الأخطل الصغير، إن لهذا العمل الفني قيمته التي لا تنكر من الناحية الشكلية، ناحية الإطار القصصي وما يحتوي عليه من صور إبداعية في التعبير، واستخدام الطاقتين كوسيلة موفقة من وسائل التجسيم.. ولكن كان من المفروض أن يضعنا الشاعر أمام تجربة، أمام تجربة عاطفية عاشتها البطلة كموقف متطور، ومارستها كانفعال حي. وتبعاً لأن المعايشة الخارجية قد اقتصرت على دور التفاعل الحسي مع الحدث، فقد أثر ذلك على حركة النمو الداخلي لتلك اللحظة الزمنية الطويلة، الحافلة بالصراع والتوتر، لتحيل التجربة في النهاية إلى لوحة مجردة... وبدلاً من أن نخرج من موضوعية اللوحة بجوهر المضمون الصراعي لقصة حب مخفق، خرجنا بلمسات سردية سريعة تمثل التخطيط الحدثي لهذا المضمون. ومن خلال رؤية شعرية غائمة، لم نستطع أن نتبين دوافع الانفصال بين سلمى وحبيبها فؤاد، لأن الأبيات التالية تضع المفتاح في ثقب الباب ولا تفتح:

وراح يقرع باب الرزق مشتملا
بعزمة سنّها علم وأمضاها
حتى انثنى وعلى أجفانه بلل
ودّ الإباء لها لو كان أعماها
بكى فؤاد لسلمى والبلاد معاً
وأنفسٍ رضيت في الذل مثواها
فحمل الموج من أشجانه حمماً
وشد يضرب أولاها بأخراها
وقال – واليأس يمشي في جوارحه –
ديار سلمى على رُغمٍ هجرناها

إننا ندرك لماذا بكى فؤاد من أجل سلمى، ندرك ذلك بطريقة إيحائية.. معنى أن ينفصل محب عن إنسانة تحبه، معناه بالنسبة إلى هذه الإنسانة شعور بالضياع. في مثل هذه المواقف يحتاج الشعر إلى التركيز ولا يحتاج إلى التفصيل.. ولكن الذي يجب أن يفصل هو لماذا بكى من أجل البلاد. ماذا حدث لهذه البلاد حتى يرغم على هجرها وهجر حبه؟! خضوع وذل؟ ما هي حقيقة هذا الذل وذلك الخضوع.. والصراع الذي دار من داخل البطل كمرحلة رئيسية من مراحل التجربة، كتوتر انفعالي متبادل بينه وبين من يحب؟ كل ما عرفناه بعد ذلك أن «خمسا من السنوات السود قد صبت بلاياها على رأس لبنان»، وأن حب سلمى ما يزال حيا يقتات على الذكريات.. وهكذا نجد أنفسنا أمام لوحة قصصية يغلب فيها جانب التسجيل على جانب التحليل، لأن عملية المراقبة تتم من الخارج!

وتستمر جولتنا في معرض الصور حتى نقف مرة ثالثة أمام هذه اللوحة لعمر بن أبي ربيعة. اللوحة الأولى جمعت بين هند وأمها، واللوحة الثانية جمعت بين سلمى وفؤاد، واللوحة الثالثة جمعت بين عمر ونعم... هذه الازدواجية الصانعة لنوع من المقابلة بين طرفين، قيمتها في الشعر الوصفي أنها تنقذ اللوحة المرسومة من التسطح وتجعلها لوحة ذات أبعاد.. منها بعد الحركة، وبعد التجسيم، وبعد الخلفية المجالية ولابد من الإشارة إلى أن الحركة في لوحة «عمر ونعم» تختلف في نوعيتها عنها في اللوحتين السابقتين.. الحركة هناك ناتجة عن تدرج الأحداث وانبثاق المواقف، سواء أكان ذلك في منطقة الرؤية التخيلية أو منطقة الواقع المحس، ولكن الحركة هنا ناتجة عن تحويل المجرى التعبيري نفسه من منعطف موضوعي إلى آخر، أشبه بحركة الكاميرا المتنقلة من زاوية إلى زاوية:

أخـــاك يـــا شـــعـــر فـــهـــذا عـــمـــر

وهـــــذه نُـــــعْمٌ وتـــــلك الـــــذكـــــرُ

لـــوحـــان من فـــجـــر الـــصـــبـــا وورده

غــذّاهـــمـــا قـــلب وروّى مـــحـــجـــر

فـــــرخـــــان في وكـــــر تـلاقى جـــــانح

وجـــــانح ومـــــنـــــقـــــرٌ ومـــــنـــــقـــــر

يــخــتــلس الــقــبــلــة من مــبــســمــهــا

هل تــعــرف الــعــصــفــور كــيف يــنــقــر؟

وهـــو إذا أمـــعن في ارتـــشـــافـــهـــا

عـــلَّـــمـــنـــا كـــيف يـــذوب الـــســـكـــر

رســـالـــة من فـــمه لـــفـــمـــهـــا

كـــذا رســـالات الـــهـــوى تـــخـــتـــصـــر!

الموضوع الشعري في هذه الأبيات، يمثل نقطة البدء الانطلاقية لمجرى التعبير.. ونشعر أن الحركة تنساب فوق أرضية مبطنة بأحلام التصور إنها لوحة جزئية ممهدة ، يلعب فيها الحلم الشعري دور التحضير لواقع حسي مغيب. الشاعر هنا يحلم بالرؤية.. الرؤية المجسدة التي يمكن أن يتصور من خلالها حسية العلاقة بين نعم وعمر، على مدار هذه التوزيعات المشهدية.

وفي المقطوعة التالية، يتحول المجرى التعبيري الى منعطف جديد.. ينتقل من غيب التهويم الى حضور المواجهة، وبعد أن كانت حركة التعبير مصبوبة في قالب الحديث عن عمر، غير الشاعر من اتجاهها لتصب في قالب الحديث الى عمر:

قل لي بـــنـــعم وبـــأتـــراب لـــهـــا

يـــلـــعـــبن مـــا شـــاء الـــصـــبـــا والأشـــرُ

لـــيـــلـــة ذي دَوْران هل كـــانت كـــمـــا

حـــدثت أم أخـــيـــلـــة وصـــور؟

ونُــــعْمٌ هل كـــانت كــمـــا صـــوَّرتَ أم
بـــالغ في تـــلـــويـــنـــهـــا المـــصـــور؟
يـــا لـــلـــمـــنى أعن يمـــينٍ كـــاعبٌ
وعن شـــمـــال كـــاعبٌ ومُـــعـــصـــر
فـــمن هـــنـــا حـــيث تـــنـــدّى الـــزهـــر
ومن هـــنـــا حـــيث تـــدلّى الـــثـــمـــر
وأنت لا تـــألـــو دعـــابـــاً في الـــهـــوى
شم وتـــقـــبـــيل وأشـــيـــا أُخـــرُ!

ويتغير الاتجاه مرة أخرى ـ في معركة صاعدة ـ من البعد المكاني للذكريات، الى تلك الشرفة البعيدة التي تتحول الى ساحة عرض صغيرة، لبعض جوانب الشخصية النسائية المسهمة في ازدواجية الصورة.. ويلاحظ أن اتجاه الشاعر الأساسي إلى عملية التصوير من الخارج، هو الذي يدفعه غالبا إلى أن ينظر الى المرأة من زاوية التكوين الجمالي للوجه والجسد، حيث لا يظفر التكوين النفسي بما يحتاج إليه من سياحة داخلية:

قـــالـــوا الـــحـــجـــاز مـــجـــدب لمـــا عـــمـــوا
ونـــعـــمُ فـــيـــه روضـــة ونَـــهَـــر
إن زقَّت الـــعـــود انـــاشـــيـــد الـــهـــوى
حنَّ لـــهـــا الـــعـــود وجنَّ الـــوتـــر
أو صـــفّـــقت لـــلـــهـــو في أتـــرابـــهـــا
مـــاج لـــهـــا الـــوادي وغـــنى الـــشـــجـــر
الحب مـــذبـــوح عـــلـــى أقـــدامـــهـــا
والحـــسن في ألحـــاظـــهـــا يُـــكـــبِّـــر

تــعــرت الــشــمس عــلـى وجــنــتــهــا
وانـــشق ـ لـــو تـــعـــلـم أين ـ الـــقـــمـــر
الـــعـــنب الأحـــمـــر مـــســـفـــوح عـــلـى
شـــفـــتـــهـــا، مـــا الأقـــحـــوان الأصـــفـــر؟
والـــوردة الـــبـــيـــضـــاء أو قل نـــهـــدهـــا
كـــــأنه من خـــــيلاء يـــــســـــكـــــر!

هذه النظرة الى المرأة كتكوين جمالي، مقبولة في الشعر إذا ما كانت انبثاقاً تجريديا لتجربة حسية بحتة ومقبولة نسبيا في «عمر ونعم»،وغير مقبولة على الإطلاق في «ندى ووداد».. ذلك لأن التجربة هنا عاطفية تحتل مكان القمة من مرتفع العلاقة الإنسانية. إنها تجربة الشعور المتبادل بين عاطفة الأبوة وعاطفة البنوة، تجربة الوجود الإنساني الذي يلغى فيه معنى الإحساس بالعدم، حين يتحقق له امتداده الحياتي المتصل الحلقات بحركة الزمن الدائبة.. إننا لا نكاد نرى «وداد» ابنة الشاعر وهي في العشرين، إلا من خلال رؤيته البصرية:

يـــا قـــطـــعـــة من كـــبـــدي
فـــــداك يـــــومـي وغـــــدي
وداد يـــــا أنـــــشـــــودتـي الـ
ـــبـــكـــر ويـــا شـــعـــري الـــنـــدي
يـــا قـــامـــة من قـــصب الـــســـكْ
كَـــــر رخـص الـــــعُـــــقَـــــد
حـلاوة مـــــهـــــمـــــا يـــــزد
يـــــوم عـــلـــيـــهـــا تـــزد
تـــــوقَّـــــدي في خـــــاطـــــري
وصـــــفّـــــقـي وغـــــردي

تـــــســـــتــــيـــــقظ الاحـلام في
نـــفـــسي وتـــســـقـــيـــهـــا يـــدي

✡✡✡✡✡

عــــشــــرون قل لـــــلــــدهـــــر لا
تـــبـــرح ولـــلـــدهـــر اجـــمـــد
عــــشــــرون... يـــا ريـــحـــانـــة
فـي أنمُـــــــلــيْ مـــــــبـــــــدد
عــــشــــرون... هـــــلِّلْ يـــا ربـــيـ
ـع لـــلـــصـــبـــا وعـــيِّـــد
وبــــشِّــــر الـــــزهـــــر بـــأخـ
ـت الـــزهـــر واطـــرب وانـــشـــد
وانــــقل الـى الــــفـــرقـــد مـــا
نمـــنـــمـــتُـه عن فـــرقـــدي

الرؤية البصرية ـ في هذه الأبيات ـ هي الغالبة، والمسيطرة، وعبر هذه الرؤية تلوح لنا «وداد» وهي مجموعة من صور التكوين الجمالي: أنشودة وشعر، قامة من قصب السكر، حلاوة زائدة، ريحانة عبقة، زهرة يانعة.. وهلل يا ربيع واجمد يا دهر ولا تبرحي يا شمس! الشاعر الأب يسجل أكثر مما يحلل.. ولو حدث العكس، لاستحالت اللوحة على امتداد الرؤية النفسية الى تجربة.. تجربة تتفتت فيها تلك اللحظة الزمنية المفجرة لطاقة الانفعال، الى جزئيات متغيرة ونامية. هذه اللحظة التي تعتبر مركز التفجير الانفعالي هي تلك التي دار حولها الشاعر بمجموعة من اللفتات الذهنية.. لحظة الإحساس بالوصول الزمني للابنة الى سن العشرين. وإذا ما أردنا أن نفتت تلك اللحظة الى جزئيات، أعني الى لحظات فرعية ومتولدة، فمن المحتم علينا ـ ونحن نأخذ مكان الشاعر ـ ان نعيش في قلب اللحظة، لنراقب نموها من الداخل. عندئذٍ تبدو لنا

هذه اللحظات الجزئية الوليدة، وهي أشبه بانعكاسات الأشعة المنطلقة من مركز الضوء، الى كل اتجاه.. لقد كانت اللحظة الزمنية ـ لحظة سن العشرين ـ هي مركز الانطلاق لأشعة الفكر الشعري بالنسبة الى تجربة الشاعر. انطلاقة الى الماضي وأخرى الى الحاضر وثالثة الى المستقبل، وتلك هي الاتجاهات النفسية التي يمكن أن تلتقي بعد ذلك في نقطة تجمع فكرية، أساسها ارتباط الأزمنة الثلاثة في الوجود الداخلي للطرفين المتقابلين، لنحقق فكرة الشعور بذلك الامتداد الحياتي المتصل الحلقات بحركة الزمن.

وما نقوله هنا نقوله عن لوحة «ندى» وهي في الخامسة.. إنها ـ في منظار الشاعر ـ بسمة الورد، وهمسة الطهر، وشعلة الحب، ووشاح الجمال، وأخت الفراشات، ولكن الأخطل الصغير يهزنا بعنف في ختام المقطوعة الأخيرة، يهزنا لأنه قد أعطانا على الأقل «خلاصة» التجربة.. أعطانا مرحلة التبلور النهائي لوقع اللحظة الزمنية ـ لحظة سن الخامسة ـ على وجوده الداخلي كإنسان. هذا الوقع مجسم بانفعال صادق ومركز، في الأبيات الثلاثة النهائية من هذه المقطوعة.

نـــــداي من ســـــلـــــسل الخـــــمـــــر
في الـــــثـــــنـــــايـــــا الـــــعـــــذاب؟
من صـــــفف الـــــشـــــعـــــر فـــــوق
الجـــــبـــــين ســـــطـــــر كـــــتـــــاب؟
رددت لـــي بـــــعـــــد يـــــأسي
حـــــلـــم الـــــهـــــوى والـــــشـــــبـــــاب
من انتِ؟!
الـــــلـــــه الـــــلـــــه لمـــــا
عـــــضت عـــــلـى الـــــعـــــنّـــــاب
وصـــــفـــــقت بـــــيـــــديـــــهـــــا
وغـــــمـــــغـــــمت بـــــالجـــــواب

سل الـــــــريـــــــاحـــــــين عـــــــني
وسل حـــــــنـــــــين الـــــــربـــــــاب!

بقدر ما كانت «ندى» ـ في بداية العمل الشعري ـ انعكاساً لتكوين جمالي عبر رؤية البصر والتخيل أصبحت – في نهاية هذا العمل – وهي انعكاس لتكوين وجودي عبر رؤية الشعور والفكر.. اللحظة التي تعض فيها الطفلة على الشفتين، وتصفق باليدين، وتغمغم بالكلمات، معناها بالنسبة الى الأب، أن وجوده الإنساني قد بدأ ـ بصورة منطقية ـ من نقطة البدء الحقيقي لهذا الكيان الطفولي الذي ينتسب إليه.. إنها عملية إثبات للوجود، وظاهرة امتداد، ونفي للعدم. وكل هذا نستطيع أن نستشفه من خلاصة التجربة أو من مرحلتها النهائية، وهو في الوقت نفسه يؤكد لنا مدى الخسارة التي يمكن أن تلحق بالشعر، إذا لم تكتمل لتجاربه كل المراحل الزمنية لارتباط الفكر بالحياة.

وليس معنى ذلك أن شعر بشارة الخوري يخلو من التجربة.. تجربته الذاتية أو تجارب الآخرين. ولكن المشكلة هي طغيان اللوحة واحتلالها أكبر حيز من الموضوع الشعري، مما ينتج عنه أن ينكمش مضمون التجربة، فيصبح وهو تفريجة نفسية في مرحلة العبور الفكري للحظة زمنية، يقتضي الوصول إليها أن نسلك الكثير من المنحنيات. وإذا عثرنا عنده على تجربة لا تطغى عليها اللوحة، واجهتنا مشكلة الأداء التكنيكي الذي يعرضها من خلال تصميم بنائي مترابط، تبدو فيه مراحل التجربة وهي وحدة عضوية متناسقة. ومن نماذج التطبيق التي يمكن أن تجسم لنا هذه المشكلة، تجربته المعاشة عن طريق «الذات» في قصيدته «الى امرأة»، وتجربته المعاشة عن طريق «الآخر» في قصيدته «رب قل للجوع». النموذج الثاني مثلا يقدم لنا تجربة فتاة شريفة، مات أبواها ولم يتركا لها غير ثروة ضخمة من الجمال تعادلها في الضخامة ثروة من الفقر.. وموطن التجربة لبنان وأرضيتها الزمنية أيام الحرب. وتنتهي مراحل الصراع بين الجمال الشريف وبين ذل الحاجة، الى أن تغامر الفتاة بذهابها الى قصر الحاكم ـ مخدوعة بكلمات قوادة عجوز ـ

لتلتمس لنفسها ولأخيها الصغير، ما يعينهما على الصمود في معركة الجوع. وهناك ـ داخل حجرة مغلقة ـ أعطت الفتاة قبل أن تأخذ.. أعطت شرفها وهي مرغمة!

لو اكتسب الأداء التكنيكي شيئا من النضج في هذه القصيدة، لأتاح لمراحل التجربة أن تكون خيوطا حية لنسيج عضوي موحد. فبدلا من أن يهيئ الشاعر لهذه المراحل أن تتتابع ـ في خط سير نموها الاطرادي ـ دون حركة انفصال معوقة، رأيناه يقطع خط السير في بعض المواضيع ليفسر موقفا أو يعلق على حدث.. ومن الطبيعي أن ينتج عن هذا التدخل المتكرر أن تظهر الفجوات في البناء العضوي للتجربة، لتحول بين خيوطها الناسجة وبين وحدة التماسك، وإذا عدنا الى نموذجه الشعري الأول بما فيه من تجربة ذاتية، لمسنا اختلافا جوهريا في ما يتصل بالأداء التكنيكي المناسب.. فبقدر ما نشاهد هناك من انفصال بين اللحظات الزمنية الرامزة الى مراحل التجربة، نشاهد هنا ـ في قصيدة «الى امرأة» ـ من الإسراف في الترابط، مظهرا من مظاهر الضغط الذي يصيب الأبعاد التحليلية لكل مرحلة، بشيء من التقلص والضمور.. وتتراءى لنا ـ تبعا لذلك ـ كل المراحل وهي مجموعة من المفاتيح، اكثر مما تتراءى لنا وهي مجموعة من الغرف المفتوحة:

مــــاذا؟ أحـــقـــاً كـــنت بي تـــهــزئـــين

وكـــــنت في حـــبك لي تـــكـــذبـــين

لم تـــخـــدعـــيـــني مـــطـــلـــقـــا إنمـــا

نـــفـــسك يـــا هـــذي الـــتي تـــخـــدعـــين

مـــنـــعت حـــبي عـــنك لـــكـــنـــمـــا

مـــنـــحت عـــفـــوي شـــيـــمـــة الأكـــرمـــين

✫✫✫✫✫

مـــهلاً فـــمـــصـــبـــاحك لم يـــأتـــلق

إلا بمـــا من شـــعـــلـــتي تـــقـــبـــســين

مـــــهلا فـــــإنـي مـــــثل ذاك الــــذي

في عـــرس قـــانـــا أدهش الـــعـــالمـــين

صيّرت خمراً آسن الماء في
نفسك: خمراً ينعش الشاربين
ولـيمة كانت لنا في الهوى
أكثرت فيها عدد المعجبين

☼☼☼☼☼

هل كنت في أبهى ليالي الهوى
أيام كنت فتنة الناظرين
هل كنت إذ ذاك سوى آلة
ألحانها مني ومنها الرنين
أنشدت أحلامي على فارغ
من خشب القلب الذي تحملين
كالنغم الرنان في آلة
فارغة تحت يد الضاربين

الأبعاد التحليلية في هذه المراحل الثلاث من مراحل التجربة، مضغوطة الى درجة الاختزال.. وما دام الشاعر قد وضعنا أمام تجربة «بجماليونية»، تتحول فيها المرأة «التمثال» الى امرأة «حية»، يتدفق في كيانها الرخامي ـ بفضل لمسات الفنان ـ كل معاني النبض والحركة، فقد كنا ننتظر من بجماليون الشاعر أن يحدثنا ـ بشيء من التفصيل ـ عن دوره الإحيائي للرخام البارد، وكيف تنكر له الرخام الحي، حتى قرر في النهاية أن يقف من تمثاله هذا الموقف الذي يشبه التحطيم:

والآن سيري في الطريق الذي
شئت فلي أيضا طريق أمين
سيري ولا تنسي بأن تستري
إن كنت تستحين، ذاك الجبين

مـــــأدبـــــة أفـــرغتُ كـــأسي بـــــهـــا
وقـــمتُ عـــنـــهـــا لا كـــمـــا تـــزعـــمـــين
فـــفـــضـــلـــة الـــكـــأس الـــتي عـــفـــتـــهـــا
تـــركـــتـــهـــا لـــلـــخـــدم الـــســـاقـــطـــين

ما الذي نريد أن ننتهي إليه من وراء هذه الجولة النقدية الدارسة؟ هو ما قررناه في البداية من أن بشارة الخوري ـ من خلال هذه النماذج وكواحد من شعراء المدرسة الثانية ـ وجه فني أصيل ومتميز، لا يمكن أن تخطئه العين الفاحصة.. هو على هذه الصورة بالرغم من كونه شاعر اللوحة وليس شاعر التجربة. ويتضح من هذه الدراسة أنه يعيش تجاربه، ولكنه يعيشها بطريقته الخاصة التي تكسب لوحاته أولوية التفوق من الناحية الفنية، تبعا لاكتمال الموهبة عند الشاعر الرسام أكثر من اكتمالها عند الشاعر المفكر.. وإذا كان هنا جانب النقص فهناك جانب التعويض.. وفي ميدان الإضافة الى هذا الجانب الأخير، أنه واحد من الأساتذة القلائل في شعرنا المعاصر، بالنسبة الى ارتفاع المستوى التركيبي للجملة الشعرية.

أما حين نسلط عليه الضوء كواحد من شعراء المدرسة الأولى ـ وعلى مدار شعر الترديد والتقليد ـ فإننا لا نستطيع أن نحدد قسمات وجهه الشعري في غمرة الزحام.. إن وجهه يختلط أحيانا بوجه شوقي، ويختلط بوجه مطران، ويختلط بوجوه أخرى في شعرنا العربي القديم. ونفس الظاهرة تنسحب على كل شعراء تلك المدرسة ولا تقتصر على الأخطل الصغير:

عـش أنـت إنـي مـت بـــــــــعـــــــــدكْ
وأطل الـى مـــــا شـــــئـت صـــــدّكْ
مـــا كـــان ضـــرك لـــو عـــدلت أمـــا
رأت عـــــيـــــنـــــاك قـــــدّك
وجـــعـــلـت من جـــفـــنيّ مـــتـــكـــأً
ومـن عـــــيـــــنـيّ مـــــهـــــدك

أي شيء هنا يميز بشارة الخوري من ناحية الشكل والمضمون؟ إننا نواجه شعر «الاكليشيهات» اللفظية التي تحمل طابع النسخة المكررة، ومن وراء هذا المطلع التقليدي للقصيدة، نستطيع أن نلمح وجه البهاء زهير.. الشاعر المصري القديم وهو يقول:

تـــــعـــــيش أنت وتــــبــــقى
أنــــا الــــذي مت حــــقــــا

هذا الموت «الرومانتيكي» كان بعداً رئيسيا من الأبعاد الموضوعية لشعر الغزل عند شعراء المدرسة الأولى، وهو مظهر من مظاهر التبعية لقافلة الغناء العربي المتوارث، حيث تتفرع من نقطة البداية ـ في إيقاع رتيب كل أنغام الحداء المتشابهة.. وبشارة الخوري – كواحد من هؤلاء الحداة – يتغنى مرة أخرى برومانتيكية الموت، ليذكر بقصيدة «أزوار بيت الله» للعباس بن الأحنف:

بـــلـــغـــوهـــا إذا أتـــيـــتم حـــمـــاهـــا
أنـــني متُّ في الـــغـــرام فـــداهـــا
واذكـــروني لـــهـــا بـــكل جـــمـــيل
فـعـسـاهـا تـبـكي عـليّ عـسـاهـا
واصـحـبـوهـا لـتـربـتي فـعـظـامي
تـشـتـهي أن تـدوسـهـا قـدمـاهـا

ويبقى بعد هذا كله بشارة الخوري من الناحية الاتجاهية من ناحية الحكم عليه كشاعر صاحب موقف من قضايا مجتمعه الذي يعيش فيه. إن الشاعر كفنان – في مجال العرض والتقييم – لا يمكن أن يفصله عن الشاعر كملتزم وكمرتبط بمشكلات الجموع بصورة أخلاقية في نفس المجال نجد تجاوباً واضحاً وتعاطفاً اصيلا بين الكيان النفسي للشاعر وبين الكيان القومي للبنان ككيان محلي لوجوده الذاتي المحدد وكوطن عربي لوجوده الإنساني الكبير. ولك أن تلقاه في «وكر النسور».. وفي ختام «سلمى الكورانية» وفي «نحن والموت»، وفي «غنيت للشرق الجريح» وفي «لبنان عيد ما

أرى» وفي «غصة السراب» وفي «ليالي الجهاد» وفي «ثورة من دمنا» وفي «يا أمة، غدت الذئاب».. وأخيراً في «بني وطني» و«صدى القبلات»:

بـــني وطــني والحــادثـــات غـــنــيـــمـــة
فـمــالي أرى هــذي الــعــيــون غــوافــيــا
ألا فـانـهـضـوا نـبـني الحـصـون مـوانـعـاً
ونــعــلي عــلى مــر الــعــصــور المــبــانــيــا
ونـــرسي عـــلى أسِّ الـــعـــلــوم مــدارســا
تــوحــد أمــيــال الـــبـــنـــين الجــوافــيــا
ونـــرفع في هـــذي الـــبلاد مـــصـــانـــعـــا
تـــضمّ إلـــيـــهـــا الـــعـــاملات الأيـــاديـــا
ونـكـشف عن هـذي الـسـمـاء غـيـومـهـا
فـــنـــبـــصـــر وجه الأفق أزهـــر صــافــيــا
فـــيـــا لك أحلامـــا إذا مـــا تحـــقـــقت
رضـــيت حـــيـــاتي أن تـــكـــون ثـــوانـــيـــا

هنا شاعر اليوم والغد شاعر الحاضر المشهود وشاعر التطلع إلى المستقبل والخطاب موجه إلى وطنه العربي الكبير، وآماله المستقبلية تحلق في أفق التسليح والتثقيف كوليد شرعي لوعي الرؤية العقلية البعيدة إنها تجربة أحلام أمسية معاشة، وهي تعاش اليوم ، كتجربة واقع يومي محقق، ولاحاجة للشاعر – في تعليل أمنية الأمس – إلى أن يكون الثمن المقابل هو التضحية بالحياة، وعلى امتداد التجاوب والتعاطف في كل بقعة من بقاع العروبة تلوح له الأرض العربية المقدسة للوطن السليب:

يـــا جــــهـــــاداً صـــــفق المجـــــد له
لـــبس الـــغـــار عـــلـــيه الأرجـــوانـــا
شـــــرف بـــــاهت فـــلـــــســـــطـــين به
وبــــنـــــاء لـــلـــمـــعـــالي لا يــــدانى

إن جـــرحـــاً ســـال من جـــبـــهـــتـــهـــا
لــــثــــمــــتـه بـــخـــشـــوع شـــفـــتـــانـــا
وأنــــيـــنـــاً بـــاحت الـــنـــجـــوى به
عـــربـــيـــاً رشـــفـــتـه مـــقـــلـــتـــانـــا
نـــحن يـــا أخت عـــلى الـــعـــهـــد الـــذي
قـــد رضـــعـــنـــاه من المـــهـــد كلانـــا
يـــثـــرب والـــقـــدس مـــنـــذ احـــتـــلـــمـــا
كـــعـــبـــتـــانـــا وهـــوى الـــعـــرب هـــوانـــا
قم إلى الأبـــطـــال نـــلـــمس جـــرحـــهم
لمـــســـةً تـــســـبح بـــالـــطـــيب يـــدانـــا
قم نجع يـــومـــاً من الـــعـــمـــر لـــهم
هـــبْهُ صـــوم الـــفـــصح هـــبه رمـــضـــانـــا
إنمـــــا الحق الـــــذي مـــــاتـــــوا له
حـــقـــنـــا نمـــشي إلـــيه حـــيث كـــانـــا

في هذين النموذجين يعيش الأخطل الصغير تجربة الجموع العربية في وطن بلا حدود... والشعور بالقومية في النموذج الأخير هو مركز التجربة وقلبها النابض، حين يلتقي معنى الجوع الديني المشترك من أجل فلسطين في وجدان الشاعر، بمفهوم وحدة الأرض واللغة والتاريخ والتقاليد. أما تجربة الجموع العربية في الوطن الذي وضع نقطة البداية لوجوده الإنساني، لبنان، فهي هنا مجسمة في هذه الزفرة التي أطلقها بشارة الخوري في يوم له تاريخ.. وما أكثر أيام وطنه التي أذاقته طعم الغناء والبكاء.

لـــبـــنـــان عـــيـــد مـــا أرى أم مـــأتم
لـــله أنت وجـــرحك المـــتـــبـــسم
عـــصـــروا دمـــوعك وهي جـــمـــر لاذع
يـــتـــنـــورون بـــهـــا وصـــبـــحك مـــظـــلم

قل لـــلـــرئـــيس إذا أتـــيت نـــعـــيـــمه
إن يـــشقَ رهـــطك فـــالـــنـــعـــيم جـــهـــنم
أيـــطـــوّف الـــســـاقي هـــنـــا بـــكـــؤوسه
ويـــزمـــجـــر الجـــابي هـــنـــاك ويـــرزم
تـــعـــرى الـــصـــدور هـــنـــا عـــلـــى قُـــبل الـــهـــوى
وهـــنـــاك عـــاريـــة تـــنـــوح وتـــلـــطم
والـــكـــهـــربـــاء هـــنـــا تـــشع شـــمـــوســـهـــا
وســـراج أكـــثـــر من هـــنـــاك الأنجم

وهو بعد ذلك شاعر الدعوة إلى العمل.. شاعر الدعوة إلى الحياة، والحياة من وراء منظاره سلوك جاد وأيدٍ خشنة وسعي متصل وميدان للتضحية:

نشء لـــبـــنـــان هـــذه رايـــة الأرز
فـــإمـــا الـــفـــداء بـــالـــنـــفس أو لا
قم نـــخـــشّن مـــنـــا الـــيـــدين فلا
نـــحـــصـــد حـــقلاً إلا ونـــزرع حـــقلا
الأكفّ الـــلـــدان من شـــغـف الـــغـــيـــد
فـــحـــدد مـــنـــهن لـــلـــحق نـــصلا
شـــقـــيتْ أمـــة إذا المجـــد نـــاداهـــا
تـــلـــوَّتْ عـــلـــى الأسِّـــرة كـــســـلـــى

هذا هو الأخطل الصغير بناحيتيه الفنية والالتزامية.. كصاحب طابع شعري متميز، وكصاحب موقف اتجاهي واضح المعالم. وحسبنا هذه النماذج من شعره لتتحدث عنه وتشير إليه.

أنور المعداوي

****

هكذا أرى الأخطل الصغير

يوسف يونس

شباب ولا هوى، لبيت مهجور، يعصف فيه الهواء!..

وهوى ولا شباب، لقلب يرقص على نبضاته، كأنه الطائر المذبوح!..

أما الأمل المنشود، الأمل الذي يفجر الشرارات المتوهجة، فهو الذي حوّل عصف الهواء هينمة ونبضان القلب موسيقى، فيولد الشعر!..

وإنا لفي موسم من مواسم الشعر. بل في مهرجان الهينمة والنبضان. في نهاية الهجعة وبداية اليقظة. في موكب الهوى والشباب، في إشعاع الأمل المنشود!..

والأمل المنشود في الفرد، غيره في الأمة، فإذا كان الفرد رجلاً ينشد واسطة لغاية، وينشد غاية لبلوغ ذروة، فإن الأمة تنشد عنواناً لمستواها فتنشد الرجل!.. والرجل في الأمة ما كان يوما مفقودا، ولا نادرا. وإنما هو مجهول في جهل الباحثين عنه، يوم كانوا ينيرون مصابيحهم في وهج الشمس ليلفتوا الناس الى فلسفة الهجوع!..

إن فلسفة الهجوع كانت عجزا، واستمرارا في الخمول، أما اليوم فإن زمن البحث عن الرجال، بمصباح «ديوجين» توارى، وتبدد، وأصبحنا في زمن البحث عن عوالم الآفاق.

لقد بدا العلم حيث انتهى الشعر. ويوم وصل إنسان الصاروخ الى مستوى الانحدار والالتواء، المتحررين من فوق وتحت أعلن البث الصاروخي،

■ الورود، حزيران ١٩٦١، السنة ١٤ ، ج١٠ ، ص١٥.

أن وميض خيال الشاعر مشرق على «المستوى» العصي، وما برحت آثار القوافي متناثرة على جانبي الطريق!.

لقد كان «البث» عجيبا. لا لأن الأرض اتصلت بالعلاء، ولا لأن الإنسان ارتفع ليشق طريقا الى القمر، بل لأن الشاعر هو الذي حدد الآفاق، وهو الذي رسم الطريق الى الأجرام المنورة!...

ترى من هو الشاعر؟. ليت سؤالي ظل فكرا عابرا. إذن لأعطيت الجواب كأنني أداعب. أما وسؤالي كلمة كتبت لتقرأ. فإني لأخشى مغبة الدعاب، لأن أشعر الشعراء في عصر الوصول الى القمر، وهو من كانت قوافيه مسدسات في أوساط رجاله!...

أراني أهذي. وإلا ما الصلة التي تربط الشعر بالمسدس!

ألم أقل إنني أهذي؟!.. ومع ذلك، ألسنا في عصر يسمى فيه الهذيان شعرا؟.

لقد طالما شكرت الله لأنه لم يخلقني شاعرا. ومع ذلك فإني أحب الشاعر، لأنني أحب نفسي!

وإني أعود فأسأل: ترى من هو الشاعر؟ الجواب ليس سهلا اليوم، لأن الشعراء يصغون مثلنا الى البث الصاروخي، وكلهم يظن أن قوافيه هي التي وجدت متناثرة على جانبي طريق القمر!..

ولكن، الجواب لا بد منه، ولعله يكون كما أحسه!..

الشاعر. وهو من يولد في نفسي إحساسا جديدا، فأرى كل شيء جديدا.

هو من يجعل الأقطار جمعاء، قطرا واحدا، فيكون قلبا واحدا في كل صدر!..

هو المنفحة والمجمرة معا، ففي الأولى ضوع أزهار يتنشقه الهانئون، وفي الثانية، شواء قلوب يشمه الأشقياء!..

هو القائل ما لا يستطيع الناس قوله، والسامع ما تسد دون سماعه الآذان!

هـو روح الأمـة، في مـهزة الـفخر، وانحـناءة الذل. فإن غنى تسابقت البلابل الى الأفنان. وإن بكى حامت الغربان فوق المقابر!..

هو الإباء المصفّى، في معتكر الفاقة، بل هو القائل:

لـــــيس يــــــرضى لي الـــــســـــؤال
حـــــيــــــائي ومــــــحـــــــتـــــــدي
نـــــفس حــــــر شــــــعـــــــارهـــــا
الـــــــردى خـــــــيــــــــر مــــــورد
فـــــأخي في خــــــصـــــــاصـــــتي
كـــــالجـــــنـــــيب المـــــعــــــبّـــــد
ومـع الــــــيـــــــســــــــر من نــــــأى
كـــــأخي مــــــنــــــذ مــــــولــــــدي
هــــــكـــــذا مـــــنـــــذ نـــــشــــأتي
غـــــــيـــــــــر ذا لـم أعــــــــــوَّد!..

هذا هـو الشاعـر، هـذا أحد الذين وجدت آثار قوافيهم على جانبي طريق القمر، ومـا برح القمر صديق الأخطل الصغير. وقد تشاكيا وما بكيا وتصاحبا، وما تعاتبا. أما القمر فتنتهي استدارته كل شـهر ليولد قلامة ظفر، وأما الأخطل، فتتجدد عظمته كل ساعة ليظل عنوان أمته!.

يوسف يونس

****

ابـــــــــيـض

حملنا إلى القمة

رياض طـــه
نقيب الصحافة اللبنانية

يا أبا عبدالله،
إن يومك هذا لخالد خلود يوم مولدك!
وقد شاء لنا حسن الطالع أن نقف هذه اللحظات، في حرم التاريخ،
نطلّ معك على الدهر الذي سيكون من رواة قصائدك،
وعلى الأجيال التي ستتناقل شعرك جيلا بعد جيل...
والصحافة التي افتقدتك نقيبا وعميدا:
لن تنسى أنك كنت من روّادها،
وأنك خضت معارك حريّاتها وجهادها،
لقد شرّدك الطغيان الذي اغتال رفاقك الشهداء،
لكنك واصلت نضالك بشجاعة وصلابة!
وها نحن إذ نودعك الآن:
نشعر بالأسى بقدر ما نشعر بالاعتزاز،
فقد حملتنا الى القمة،
وجعلتنا أهل الفخر في هذه الدنيا!

****

■ قيلت في تأبين الشاعر إثر وفاته.

حامل الصولجان

سعيد عقل

وتمر ببالي حياة الأخطل الصغير...

من، إلى سنوات، تنادينا من كل الأقطار

نكرّمه ونواليه

ولجبينه نضفر إكليل الإمارة!

كان أجمل قلب، ولبنان أجمل قلب.

كان السيف بين السيوف، له الفتكة الأولى عنها لا يتنازل!

ودّعه لبنان وداع الملوك:

فهو حامل الصولجان باسم لبنان!

قلم الأخطل الصغير، من شراراته الشمس التي

لا تغيب.

أمس، على قلم الأخطل الصغير – لأول مرة –

غابت الشمس!

إن كان الشعر إباء: فالشعر اليوم في حداد.

****

■ **قيلت في تأبين الشاعر إثر وفاته.**

منذ الحرب الأولى

الدكتور فؤاد صروف

(النهار)

أثر شعر الأخطل الصغير عندما أقرأه هو أثر مستمر في نفسي،

لأني ما زلت أتابع

قراءة هذا الشعر منذ أن كنت طالبا

في الجامعة أيام الحرب العالمية الأولى

والآن، عندما يستبد بي تعب أو عسر ما،

فإنني أخرج هذا الديوان من

بين كتبي وأترنح بتلاوة قصائده

الأثيرة عندي: فيعاودني نوع من

الراحة الفكرية والنفسية، تتجدد معه

همتي فأعود إلى عملي وكأنني

إنسان جديد.

****

■ قيلت في تأبين الشاعر إثر وفاته.

أغنية جميلة

الياس الديري
(النهار)

الأخطل الصغير، بالنسبة اليّ، أغنية جميلة

تثير في جمهورها لذة الإصغاء والطرب.

أغنية تسمعها وتحب أن تظل تسمعها

وتنفعل بها...

أثر الأخطل، في النفس، عاصف يدهمها

كالإعصار...

الشاعر كالأرض، كالوطن تنتمي إليه الأجيال وتتحد به.

الشاعر قضية لا زمان لها

ولا حدود!

****

صفحة حلا...

عصام كرم

غاب عن لبنان كبير من كباره،

وعظيم من عظمائه،

وشاعر هو في قمة شعرائه!

رحل الأخطل الصغير...

رحل بعدما أعطى العرب أحلى أشعارهم

وأجمل القوافي.

لقد طويت صفحة من صفحات الحلا،

وتاريخ وطن،

وقافية مودات...

****

■ قيلت في تأبين الشاعر إثر وفاته.

الأخطل الصغير

الأب طانيوس منعم

أن يكرم لبنان الأخطل الصغير

ذلك بعض حقه عليه

فشاعر لبنان الكبير

قيمة من شعر

على قيمة من تراث

☆☆☆☆☆

نغم ينساب، في صفاء، عبر أناقة اللفظ، ورشاقة البيان،

ولمسات راعشة بالفن والجمال، عبر قيثارة الشعر العربي

تنهل، في مثل فوح الورد

من يراعة الأخطل الصغير

☆☆☆☆☆

أغنية.. تناغمت بها الحناجر.. وانتشت المنابر

هنا، في ظلال الأرز. وهناك، في ضفاف بردى، والنيل، والفراتين.

■ الانطلاق، السنة الأولى، العدد ٩ ، سنة ١٩٦١.

في لغة القلب، بدع هو الأخطل الصغير

في رسالة الكلمة، سفير لبنان الى العالم

وحسبه من عطائه هذا، أنه في القمة

من الإنصاف له ، أن يكون قدره في مستوى عطائه.

لبنان، في شعر الأخطل الصغير، صور من كفاح وجراح، ألوان من حب وجمال..

نهلة عبير على خرير جدول، وشدو هزار

وفاء للبنان الشاعر.. للبنان الرسول.

يقام للأخطل الصغير مهرجان

ففي حقبة من تاريخ، كان الأخطل الصغير وما يزال مهرجان لبنان.

الأب طانيوس منعم

****

ابيض

دور الأخطل الصغير
في الشعر العربي المعاصر

د. إحسان عباس

عندما نشبت الحرب العظمى عام ١٩١٤ كان بشارة عبدالله الخوري الذي عرف فيما بعد بلقب «الأخطل الصغير» يناهز الخامسة والعشرين من عمره، وبين ذلك التاريخ والعام الراهن حدثت حربان عالميتان وثورتان عربيتان، وقامت في إبان ذلك شؤون وشؤون، وشهدت الأيام تقلبات كثيرة وأحداثا صغيرة وكبيرة ونجاحا وإخفاقا، وتغيرا في المقاييس والفلسفات والتكوينات الحزبية والمذهبية وما هو أكثر من ذلك بكثير، لأن تلك الفترة في هذه الزاوية من الأرض تمثل التاريخ الحديث للأمة العربية في كفاحها المجزأ والمشترك وفي ضياع فلسطين وفي الهزات العنيفة والثورات التي أصابت العالم العربي بعد ذلك، كما تمثل مراحل التطور في تاريخها الأدبي من ثورة على التعبير القديم الى ثورة رومنطيقية شاملة الى تفرع في المذهبية الأدبية ونمو في فنون الأدب الى ثورة على الشعر والمجتمع معاً في مواجهة دعوة التضامن بين الشعر والمجتمع – تجربة ضخمة وفيرة الجنى ولكنا لسنا بحاجة في هذا المقام إلا إلى محض التنويه بها، لأنها لا تنعكس بهذا الجبروت وتلك الضخامة والغزارة في شعر الأخطل الصغير، فقد بدأ شعره يوم بدأ آملاً مستشرفاً في ظلال الثورة العربية الأولى التي لم تلبث إلا قليلا حتى انتكست فيها الآمال، ثم شهد تحولاً واحداً فحسب ووقف عنده لا يتعداه، وذلك كان يمثل الاتجاه العام للشعر في العقد الرابع من هذا القرن، ثم لم يتأثر كثيرا بالتقلبات السريعة التي تمت على أثر الحرب الثانية.

■ الآداب ، حزيران ١٩٦١، سنة ٩ ، عدد ٦.

هي فترة طويلة – إذن – حافلة بالكثير من التجارب، وكثرة التجارب – وبخاصة التي تلد الإخفاق – كثيرا ما تبعث الشعور بالتخمة منها والزهد فيها، لأنها تثلم الحد وتبلد الحاد المشحوذ، ومثلها يتطلب نفساً مستعدة دائما لاستكشاف شيء جديد في التجارب المتجددة المتلاحقة وتفتحا لا تحس النفس معه «بعادية» الأشياء والأحداث، ولا تفقد الشعور بالمفاجأة والجدة والإيحاء، كما لا تسأم التكرار ولا ترى أن التاريخ يعيد نفسه، لأنها لو فعلت ذلك لاستسلمت حينئذٍ للمثبطات الداخلية وقنعت بالنظر العابر الى كل المتجددات، إذ ترى فها ظلالا للقديم ولا تحس نحوها بانفتاح ولا تلمس فيها معنى التطور. ويحتاج الشاعر في هذا الموقف فلسفة عميقة ذات أبعاد بعيدة، ولم تكن هذه الفلسفة ميسورة للأخطل الصغير لأنه حين تباعد قليلاً عن نقطة الانطلاق في نشوء هذه الفلسفة أصبح يقول في يأس من صلاح الحال:

حكمة الدهر أن نعيش سكارى
فاجمعا لي الكؤوس والأوتارا

بدأت نقطة الانطلاق ترسل أشعتها يوم اصطدم الشاب بأهوال الحرب الكبرى سنة ١٩١٤، فنطق معبرا عن مأساة الإنسانية في أتونها وأنطق معه الحديد والخشب والكهرباء بتغيظها من الحرب ونقمتها على أن لا تصبح أدوات تسند السلم بين بني الإنسان وجعلها جميعا تقف لتخطب في مؤتمر الجماد:

الفولاذ:

وقف الفولاذ فيهم خاطباً
بكلام كالرحيق السلسلِ
وقال لو أنصفت ما كنت سوى
سكة أو معول أو منجل
أسعف الإنسان في الحرث ولا
أتوانى عند حصد السنبل

الخشب:

عــنــد هــذا الخــشب اهــتــز وقــد
قــال فــلــتــقــطع يمــين الــرجل

حــبــذا الــيــوم الــذي كــنت به
غــصــنــاً عــنــد ضــفــاف الجــدول

أنــا لــو أنــصــفــني المــرء لمــا
كــنت إلا مــغــزلاً في مــعــمل

أنــسج الــصــوف فــأكــســوه ولا
أشــتــكي من تــعــب أو مــلــل

الكهرباء:

عــنــد هــذا الــكــهــربــا، قــالت وقــد
لمــعت أنــوارهــا لــلــمــجــتــلي

قــوتل الإنــســان كم دمــر بي
وأنــا روح الــنــظــام الأمــثل

قــســمــاً لــو كــنت أدري أنه
لــســوى الآثــام لم يــشــتــمل

لــتــحــجــبت فــلم أظــهــر له
ولمــا دنس يــومــاً هــيــكــلي

وكان هذا المؤتمر – مؤتمر الجماد – سخرية «مسبقة» بمؤتمر الصلح الذي عقده المنتصرون كي يحققوا غايتهم من المعاهدات السرية التي كانوا قد اتفقوا عليها في ما بينهم، ولعلنا قبل أن نمضي بعيدا في التحليل نقرن بهذه القصيدة أبياتا أخرى قالها

الشاعر بعد سنوات شهدت خيبة الآمال العربية في العهود والمكاتبات والمواثيق، وعرفت اضمحلال الثقة العمياء في القوي وتبدد الحلم في الثورة العربية – قال الشاعر:

قل لـــتـــلـك الـــعـــهــود في رهج الحـــر
ب وفي ســـكـــرة الـــقـــنـــا والــــغلاصم
قـــد لمحـــنـــاك في عـــيـــون الـــثـــعـــالي
ولمـــــســـــنـــــاك في جــــلـــــود الأراقم
حـــدثـــونـــا عن الحـــقـــوق فـــلـــمـــا
كـــبـَّـــر الـــنـــصـــر أعـــوزتـــنـــا الـــتـــراجم
نـــفـــحـــتـــنـــا بـــهـــا الحـــروب سلامـــاً
ورمـــــانـــــا بـــــهـــــا الـــــسلام أداهم
قل – وُقـــيت الـــعـــثـــار – في نـــدوة الـــقـــو
مِ مـــتى أصـــبح الحـــلـــيف مـــخـــاصم
أيـن ذاك الـــــهــــــيـــــام فـي أول الحب
وتـــلـــك المـــوشـــحـــات الـــنـــواعم
كـــدت أخـــشى عـــلـــيـــكمُ تـــلف الـــنـــفس
بـــبـــان الـــلـــوى وظـــبي الـــصـــرائم

وهذه السخرية تكشف لنا عن عمق اليأس، ولكنه يأس دعا الى الاستسلام للفلسفة التي تقول: «حكمة الدهر أن نعيش سكارى».. وإذا مفتاح شخصية الشاعر في موقفه من الشؤون الكبيرة «كتجزئة المستعمرين الوطن العربي وغفلة السياسيين الكبراء الذين جازت عليهم الخدعة وغرتهم الوعود واستناموا الى الكسب القليل» إذا هو قوله:

هـــفـــوة جـــرهـــا الـــزمـــان عـــلـــيـــنـــا
لا مـــــلـــــوم أنــــــا ولا أنــــــا لائم

وهذه هي نقطة «الصفر» فإما أن تكون أنا وأنت وهو ملومين فنحاول أن نجدد موقفنا وأن نخلص من آثار الخطأ القديم، وإما أن نكون لائمين فنبين بقوة ونؤلب النفوس بعزم ونضع سمة «التجريم» على المجرمين، ولا ينفرد الشاعر بهذا اليأس، كما أن مسؤولية الشاعر – أي شاعر – لم تكن قد تحددت بعد، وكان الشعر في تلك الحقبة يمخر بحر الحياة في سفينة رومنطيقية يتغذى ركابها بآلام فرتر وماجدولين وروفائيل وأشعار لامرتين ويبكي بدموع المنفلوطي، وكان التناقض الجريء بين شفافية الأسلوب في شعر شوقي وكذب العاطفة الذاتية يهيئ الجو للدعوة الى عودة للذات، ومن أكبر المتناقضات في تاريخ الأدب الحديث أن يكون أكبر داعيين لهذه الرومنطيقية اثنين من أكثر الناس بعداً بطبيعة ذهنيهما عن هذا المذهب أو عن استجلاء حقيقة الذات الفردية – وهما العقاد وشكري – وأخذت السفينة تشتد وتقوى بأشرعة جديدة ركبها لها جبران – الجو كله يتنفس بالرومنطيقية في محاكمة الأمور والنظرة الى الأحداث وإلى الإنسان، ولدى الأخطل الصغير استعداد عميق لمعانقة هذا الاتجاه – لم يتحول تحولا مفاجئا ولكن خصائص الجذوة العميقة أخذت تلون ما حولها – وكان القديم الذي يحبه الأخطل الصغير والجديد الذي يملك انتباهه يتفقان، على غير ما هي الحال في صراع القديم والجديد لدى المدرسة المصرية ومدرسة المهجر.

أما الجديد فقد جاء يقول: إن الشاعر طائر مغرد، إنه إنسان ملهم متفرد، إنه عبقري زمانه، إنه بين الناس رحمان أو إله، إنه وإنه... وآمن الأخطل الصغير بأن الكون ذو مركز وأن هذا المركز فيه هو الشاعر سواء أكان في صورة إله أو في صورة إنسان أو في صورة تجدد سنوي....

وإذا آمن الشاعر بهذه النظرة في الكون وفي نفسه لم يكد يحترم في الوجود إلا طبيعة «الخلق» واتخذ لنفسه قسطاً من الحرية باسم الحق الإلهي والصفة الفارقة، وأصبح مترفعا في مقاييسه عن كثير مما يقره الناس «العاديون»، وإذا لم يظهر أثر

ذلك في طبيعة السلوك ظهر في طبيعة الموضوع الشعري نفسه، وهذا ما حدث في موضوعات الأخطل الصغير «وإن لم يذهب ذهابا تاما بالصوت الأول» – ذلك بعض ما قدمه الجديد.

وأما القديم فكان يقدم له صورة الاستشهاد في الحب وخصوصا بعد أن أخذ يؤمن أن الحب هو الرابطة التي تصل بين الموجودات من أحياء وغير أحياء، فأخذ يختار قصصه الشعري من مواقف الحب الذي يفضي الى الموت، فودع أولا اتجاهه القديم في نظرته للبؤس وويلات الحروب بقصة مي في قصيدته «رب قل للجوع» ...

وفيها صور انتصار الشهوة على العزيمة في مقاومة الجوع فكان بذلك يبتعد عن الغاية الأخلاقية التي أسرف في التلويح بها في سياق القصيدة، هذا مع أنه في قصائده الأخرى يرفع من قيمة الموت في سبيل الحب، بينما لم يبح لبطلة القصة الموت في سبيل الشرف – أقول: قدم له القديم قصص الحب، فصور في قصة طويلة كيف مات عروة وماتت عفراء في أثره شهيدي غرام، ثم تناول قصة عمر ونعم فلم يستطع أن يصنع منها قصة ولكنه حرك فيها إثارة شهوانية عميقة تبلغ أدق ما استطاعه من تصوير، في قوله:

تعرت الشمس على وجنتها
وانشق – لو تعلم أين – القمرُ
العنب الأحمر مسفوح على
شفتها ما الأقحوان الأصفر
والوردة البيضاء أو قل نهدها
كأنه من خيلاء يسكر
من ثمر الفرصاد في ذروته الريا
نة المعطار «كبش» أحمر
أو أنه رأس ملاك أشقر
يحمله صدر حنون أشقر

دغـــدغه أخـــو الـــهـــوى فـــمـــد من

لـــســـانه وراح شـــهـــداً يـــعـــصـــر

ثم صور الصراع بين الحب والموت في قصيدة «المسلول» – دون أي غاية أخلاقية في القصة إلا غاية أن ينتصر الموت في النهاية – وفي هذا نفسه يلتقي القديم والجديد، فكلاهما في إسار الرومنطيقية يؤثر هذا اللون، ويجعل الموت حلا للعلاقات على نحو باك مؤثر مليء بالآلام، إلا أن للقديم لعنة خاصة جعلت المجاز القريب لدى الشاعر خاضعا للموت، وتلك هي مبالغة الصورة التي تجعل الشاعر كلما تغزل – ولو غير صادق – زعم أنه أصبح على حافة القبر، وقد تغلغلت هذه اللعنة في شعر الأخطل الصغير كثيرا حتى أفقدته عذوبة الغناء الجديد في بعض الأحيان، وجعلته وكأنه شاعر من شعراء العصور السالفة – تجد لديه مبالغات مفضوحة – وتحس فيه عبودية مصطنعة كعبودية البهاء زهير:

احـــتـــمـــلـــني تحـــمـل بـــقـــيـــة روح

تـــركـــتـــهـــا لـــشـــقـــوتي الأيـــامُ

رمق مـــثـــلـه تـــخـــيـــلك الـــوهم

وجـــسم - حـــاشـــا المـــضـــاء - حـــســـام

لـم يـــعـــد في الـــســـراج زيت

وكـــمـــا يـــنـــطـــفي انـــطـــفـــيت

فـــأنـــا الآن مـــثـل مـــيـت

مـــالـه غـــيـــر ســـاعـــتـــين

لـــو تـــرين

بـــلـــغـــوهـــا اذا أتـــيـــتم حـــمـــاهـــا

أنـــني في الـــغـــرام مت فـــداهـــا

واذكـــروني لـــهـــا بـــكل جـــمـــيل

فـــعـــســـاهـــا تـــبـــكي عـــليّ عـــســـاهـــا

واصــحــبــوهــا لــتــربــتي فــعــظــامي
تــشــتــهي أن تــدوســهــا قــدمــاهــا
....
أين عـــيـــنـــاك تـــنـــظـــراني وكـــفي
فـــوق قـــلـــبي ومـــدمـــعي فـــوق خـــدي
شـــبح طـــائف كـــســـته يـــد الـــلـــيل
بـــبـــرد كـــوجـــهه مـــســـود
....
نـــاداك والـــرمق الأخـــيـــر بـــصـــدره
....
عـش أنـت إنـي مـت بـــــعـــــدك
وأطـل الـى مـــا شـــئـت صـــدك
....
مـــولاي لـم تـــبـق مـــنـي
حـــيّـــاً ســـوى رمـــقـــين

اصطلح القديم والجديد إذن – وإن أنكر الثاني هذه المبالغات الشعرية في صورة تقرير، وأراد الجديد أن يكسب جولة أخرى على رغم تلك المصالحة، وكان الشاعر – كما قلت قبل قليل – قد أخذ يؤمن أن الحب هو الرابطة التي تصل بين الموجودات، فلِمَ لا تكون لغة الحب هي لغة الشعر؟ وهنا يجيء تحول الاستعارة التصويرية في شعرنا المعاصر، لا على أن كل شيء يصوره الشاعر يضعه في صورة المحبوب فحسب بل على أنه يستغل الصور المستمدة من الحب وملابساته حين يتحدث في أي موضوع وصفيا كان أو حماسيا أو ناظراً الى الطبيعة... الخ فلبنان مثلا:

أكـمـاته الـبـيـضـاء تحت سـمـائه الـزْ
زرقـــاء أطـــفـــال تـــنـــام وتحـــلـم

تـتـصـاعـد الـقـبلات من أنـفـاسـهـا
وتـمـر بـالـوادي الـوديع وتـلـثم

والنيل «حبيب الرياحين»، وجناح الهوى شراع سفينة .. الخ، وتبدو هذه الصور مقبولة حين تكون بعثا للحياة في شؤون الطبيعة ولكن كيف يكون حالها والشاعر يتحدث عن فلسطين – مثلا –:

فـلـسـطـين أفـديك من دمـعـة
تـهـاوت عـلى بـسـمـة حـائـره
تـعـانـقـتـا فـاسـتـحـال الـعـنـاق
لـهـيـبـا عـلى شـفـة ثـائـره

ها هنا تخرج صور الحب الى أوهام لا ترضي ولا تشبع ولا تطرب ولا تهز. ولكن هذه الظاهرة خلابة وقد تفشت في أدبنا المعاصر – شعره ونثره إلى درجة الكظة الثقيلة. واصطلح القديم والجديد مرة أخرى في ابداع أجمل ما حققه الأخطل الصغير في تصوير العلاقة بين المرأة والطبيعة «وهي إحدى علاقات الحب» فمنذ أن تغنى الشاعر الجاهلي بأن المرأة بانة وكثيب «حديقة صحراوية» ظلت العلاقة بين المرأة والطبيعة في الشعر العربي علاقة تبادل مستمر فالمرأة طبيعة جميلة والطبيعة امرأة فاتنة:

قـالـوا الـحـجـاز مـجـدب لما عـمـوا
و «نـعـم» فـيه روضـة ونـهـر
إن زقت الـعـود أنـاشـيـد الـهـوى
حن لـهـا الـعـود وجن الـوتـر
أو صـفـقـت لـلـهـو في أتـرابـهـا
مـاج لـهـا الـوادي وغـنى الـشـجـر
الحب مـذبـوح عـلى أقـدامـهـا
والـحـسن في ألحـاظـهـا يـكـبِّـر

وجاء الجديد فصبغ هذه العلاقة بكيفية التعبير عنها، وتفرد الأخطل الصغير بالاهتداء الى إحدى الكيفيات، وكان اهتداؤه الى ذلك عن طريق التجربة، أعجبه أن يقول مرة:

المهـا أهـدت إليـهـا المقلتين
والظبـا أهـدت إليـهـا العنـقـا

....

ودرى الروض بتين المنحتين
وقديمـا يـعـشق الروض الحسان
فكسا بالورد منهـا الوجنتين
وكسا مبسمهـا بالأقحوان
ورمى في صدرهـا رمانتين
من رأى الرمان فـوق الخيزران

....

ورآهـا الليل فاختار المقام
ولقد طاب له في شعرهـا
وصبا الفجر فأضحى حين هام
بهواهـا درة في ثغرهـا
فإذا هي كما شاء الغرام
ما شجا ذو صبوة من أسرهـا

فإذا به يخرج هذا المعنى في صورة قصصية جديدة فكهة مرة أخرى:

أتت هند تشكو الى أمهـا
فسبحان من جمع النيرين
فقالت لهـا إن هـذا الضحى
أتاني وقبلني قبلتين
وفر فلّما رآني الدجى
حباني من شعره خصلتين

ومــــا خـــــاف يــــا أم بل ضـــــمـــــني
وألــقى عــلى مــبــســمي نجــمــتــين
وذوب مـن لـــــــــونـه ســــــــائلا
وكـــحـــلـــني مـــنه في المـــقـــلـــتـــين
وجــئت الى الــروض عــنــد الــصــبــاح
لأحـــجب نـــفــســي عن كل عـــين
فـــنــــاداني الــــروض يــــا روضـــتي
وهـم لــــيــــفــــعل كــــالأولـــين
فـــخـــبـــأت وجـــهي مـــنه ولـــكن
الى الـــصـــدر يــــا أم مــــد الـــيـــدين
ويـــا دهــشــتي حــين فــتــحت عــيــني
وشـــاهـــدت في الـــصـــدر رمـــانـــتـــين

وهكذا الى آخر القصيدة، وهذا التبادل بين الطبيعة والمرأة صورة مكملة لمعنى الحب العام بكونه رابطة الموجودات جميعا. – وهو إذا جزأته بطريقة التحليل كان منطويا على استحالة، ولكنه يؤخذ كله على سبيل الاستطراف ويكون معنى «العطاء» السخي هو المحمل الوحيد الذي يربط بين نوعي الجمال. غير أن المعنى الجميل كالخمر ينتشي به صاحبه، وقد انتشى الشاعر بهذا المعنى واشتط في إبرازه في صورة ثالثة حين قال:

قـــتل الـــورد نـــفـــسه حـــســـداً مـــنك
وألـــــقى دمـــــاه في وجـــــنـــــتـــــيك
والـــفـــراشـــات مـــلت الـــزهـــر لمـــا
حـــدثـــتـــهـــا الأنـــســـام عن شـــفـــتـــيك
ســـكـــر الـــروض ســـكـــرة صـــرعـــته
عـــنـــد مـــجـــرى الـــعـــبـــيـــر من نـــهـــديك

فقد تحول «العطاء» الى حركات من الخشوع المنتحر أمام رمز الحب، وهذه الصورة كثيرة التردد في شعر الأخطل الصغير لأن الحب في قانونه لا يتطلب شيئا أقل من الموت، حتى الحب نفسه يموت عند رمز الحب وتجسده:

«الحب مذبوح على أقدامها» و «نام تحت قدميها القمر»

الى غير ذلك من هذه الصور التي تتمشى ومفهوم الحب لدى الشاعر. وما دمنا في نطاق الحديث عن الحب والألوان التي اصطبغ بها شعر الأخطل الصغير بسببه فلنستطرد الى ذكر شيئين يتصلان بالموضوع: الأول أن الحب لديه متصل بالذكرى فهو جزء من الماضي، متصل بالفعل «كان» ، «أتذكر» ويكاد يكون في الحاضر شيئا باهتا أو يكون الحاضر به قد تحول الى الماضي، والثاني تلك الصورة التي يرددها الشاعر ترديده لصور الارتماء الخاشع والخشوع المنتحر، أعني صورة «لمس» الجرح أو تقبيله ونراها مستمدة من جراح «الصلب» وهي ضرب آخر من التعبير عن الخشوع أمام التضحية والألم والفداء:

قبلت باسمك كل جرح سائل
وركزت بندك عاليا في الساح

....

إن جرحا سال من جبهتها
لثمته بخشوع شفتانا

....

قم الى الأبطال نلمس جرحهم
لمسة تسبح في الطيب يدانا

عند هذا الحد نستطيع أن نقول إن الشاعر وجد لنفسه اتجاها في الموضوع والطريقة والعبارة وأحب هذه العناصر وتقيد بها، والاتجاه للشاعر طريق ذات صوى إذا أخرجته عنها ضل، أو كان الاتجاه الشعري يشبه الجو المائي بالنسبة للسمكة، وكان الاتجاه التعبيري لدى الأخطل الصغير يقوم على طلاوة العبارة وجدة الصورة –

وهذان مطلبان غير هينين – وطلاوة العبارة أكسباها العذوبة في الطعم والنغم، واللمعان في المظهر، وجدة الصورة تقوم على خدع كثيرة، وهذا كله يعني أن تغيير الأسس تحطيم للاتجاه، ولذلك لا يحاول الناقد أن يطبق على هذا اللون من الشعر مقاييس ومبادئ أخذ النقاد ينادون بها ويدعون اليها، ويكفي أن نشير من ذلك في هذا المقام الى واحد منها هو مبدأ «وحدة القصيدة» ماذا يحدث لو أنّا طبقنا هذا المبدأ على شعر الأخطل، وهو الشعر الذي يجذبنا بحلاوته العامة ورونقه الجميل، وأحيانا بصوره ومبتكراته في التعبير؟ قد يكون ذلك ضربا من التجني – في ما أعتقد – لأن هذا الشعر لا يستند الى الوحدة بل لعله في محاولته لإبراز الألق الخالب يسهو أحيانا فيتورط في ضروب من التناقض – منها تناقض السياق كما في قوله:

ونـــعم هل كـــانت كـــمــــا صـــورت أم
بـــالغ في تـــلـــويـــنـــهـــا المـــصـــورُ
يــــا لـــلـــمـــــنى أعن يمـــين كـــاعب
وعن شـــمـــال كـــاعب ومـــعـــصـــر
فـــمن هـــنـــا حـــيث تـــنـــدى الـــزهـــر
ومن هـــنـــا حـــيث تـــدلى الـــثـــمـــر
وأنت لا تـــألـــو دعـــابـــاً في الـــهـــوى
شم وتـــقـــبـــيل وأشـــيـــا أُخـــرُ

فالقارئ للبيت الأول يستحوذ عليه مدى التشكيك في صدق ما صوره عمر ثم إذا بالشاعر المصور يضفي من خياله على صورة «المجن والكاعب والمعصر» فيمثل لنا أن عمر كان مقصرا في شرح لذته وتنعمه ويضفي معاني الزهر والثمر والأشياء الأخر على الصورة. ومن ذلك أيضا قوله في رثاء سعد:

صلى عليه النصارى في كنائسهم
والمسلمون سعوا للقبر واستلموا

ثم يقول في أثر ذلك:

المـؤمـنـون بـسـعـد أين أبـصـرهم
والمـعـجـبـون بـسـعـد أين أين هم؟

وهل هؤلاء الذين صلوا عليه وسعوا حول قبره يؤدون واجباً فحسب دون أن يؤمنوا بسعد؟.

ومنها تناقض في الجو الشعري نفسه: ومن يطالع بإمعان قصة مي في قصيدة «رب... قل للجوع» يقف على هذا اللون من التناقض. في هذا الجو الشعري تتمثل الألوهية وتتجه القصيدة في ضراعة الى الله قبل سرد القصة:

رب إن الـكـون مـهـمـا عـظـمـا
هـو في عـيـنـيك لا يـحـسب شي
قـدرة ذلت لـديـهـا الـعـظـمـا
كـلـهم فـانٍ وسـبـحـانك حي
رب لـو شـئت لمـا سـالت دمـا
أمـرك الأمـر فـمن ذا يـنـكـر
ولمـا يـتّم من قـد يـتـمـا
ولمـا اسـتل الـسلاح الـعـسـكـر
رب إن نـحن بـلـغـنـا الـهـرمـا
أو يـكن حـان الـذي يُـنـتـظـر
مُـر ولا كـفـران ذين الـكـوكـبـين
يـخـرقـا الـنـامـوس أو يـحـتـرقـا
واسـتـرح مـنـا فـنـغـدو بـعـد عـين
أثـراً لا بـد أن يـنـمـحـقـا

وبعد أن تطمئن النفس – أو لا تطمئن – الى هذه المناجاة والتوسلات، نرى الشاعر يفاجئنا بنقلة الى رحاب الوثنية:

ضـاق «جـوبـيـتـر» صـدرا فـانـبـرى
يـتـمـشى في فـراديس الجـنـانِ

فــــبـــــدا أهـــــيب شيء مـــــنـــــظـــــراً
وعـــــلـــــيـه حـــــلـــــة من أرجـــــوان
ورمـى لـلأرض مـــــنـه نـــــظـــــرا
فـــرأى الـــهـــول وأنـــواع الـــهـــوان
مـــلـــعـــبـــاً لـــلـــشـــر مـــا من صـــالحـــين
فـــوقـــهـــا أو أخـــوين اتـــفـــقـــا
فــرمـى غــيــظــا عــلــيــهــا جــمــرتـــين
فـــتـــلـــظت وتـــلـــظـى حـــنـــقـــا

وجوبيتر هذا الذي فعل ما قد يفعل «مارس» – إله الحرب – دخيل على الجو الديني الذي يصل بين رجاء الإنسان وعدل السماء.

ومن ضروب التناقض أيضا اضطلاع القصيدة بتحقيق غايتين متضاربتين كما في قصيدة «المهاجر» فإن ما يزيد على نصفها الأول بكاء على المهاجر الذي فارق وطنه وأطفاله، حتى غدا كل شيء حزينا بعده:

جــرس الــكــنــيــســة لــو تــكــلـم لاشــتــكى
ولـــبـــان فـــيه مـــذ نـــأيت تـــصـــدع
وتـــلـــفـــتت فـــيـــهـــا الـــدمى وتـــســـاءلت
عن بـــاقـــة في صـــحـــنـــهـــا تـــتـــضـــوع

وآخرها إشادة بأعمال المهاجر وتمجيد له:

حـــتـى انـــدفـــعت فـــكل صـــخـــر روضـــة
– ســـلـــمت يـــداك – وكل أفق مـــطـــلـع
وفـــتـــحت فـــتح الـــعـــبـــقـــريـــة تـــاركـــا
في مـــســـمع الـــدنـــيـــا صـــدى يـــتـــرجع

والغايتان حقيقتان بجهد الشعر ولكن من التناقض جمعهما في نطاق واحد. مبدأ وحدة القصيدة إذن مبدأ خطر إذا أنت تناولت به هذا اللون من الشعر، بل أبعد أيضا فأقول إن الخروج على سياق الوحدة أصبح ضرورة من ضروراته. وذلك للصراع

القائم بين الصدق الذاتي وبين متطلبات المناسبة الملحة، فالصدق الذاتي وحده قد يحول دون المشاركة في المناسبات، وإذا كان ولا بد من الوقوف في مناسبات كبيرة فلا بد من التحيل على الشعر بطريقة أو بأخرى، وقد جرى الأخطل الصغير في مثل هذه المواقف على الهرب من الموضوع المباشر فإذا حقيقة القصيدة عنده تكمن في هذا الهرب، لا في ما يقوله في الموضوع المباشر، وهذا يصدق تماما في شعر الرثاء، فأكثر مراثيه انحياز عن طبيعة الموضوع، عن الرثاء نفسه إلى أمور جانبية، وهي طريقة يعتمدها في قصصه إذ يترك القص الى التأمل والحكمة ويطيل في ذلك حتى يخيل إلينا أنه نسي القصة الأصلية، ولا يتسع هذا المجال للإكثار من الأمثلة «بل يستطيع القارئ أن يراجع مراثيه» حسبنا على ذلك ما جاء في قصيدته الجميلة التي قالها في الزهاوي:

قولي لشمسك لا تغيبي

وتكبدي فلك القلوب

فإن أجمل ما فيها الأبيات التي يحيي فيها بغداد والتي يصف فيها رحلته الصحراوية:

بغداد ما حمل السرى

مني سوى شبح مريبِ

جفلت له الصحراء والتفت الـ

كثيب الى الكثيب

وتنصتت زمر الجنا

دب من فويهات الثقوب

يتساءلون وقد رأوا

قيس الملوح في شحوبي

والتمتمات على الشفا

هِ مضرجات بالنسيب

تبكي لها قبل الصبا

ويذوب فيها كل طيب

يـــــتـــــســـــاءلــــون من الـــفـــتى الـ

ــــعـــــربي في الــــزي الــــغـــريب

الى أن يقول:

أنــــــا دمـــــــعــــــة الأدب الحـــــزيـ

ـنِ رســــــالــــــة الألـم المـــــذيب

من قـــلب لـــبـــنـــان الـــكـــئـــيـ

ـبِ لـــقـــلب بـــغـــداد الـــكـــئـــيب

ثم لا شيء مما يتصل بالزهاوي – بل إن قوله من بعد «آليت أقتحم الجحيم» وإن كان إشارة إلى قصيدة الزهاوي في الجحيم هو عودة الى صورة الرحلة الصحراوية التي بلغته بغداد، ولا تنبئ بشيء ذي بال عن الزهاوي.

في نطاق هذا الخروج عن الوحدة جمال الجزء الجميل، لا نكران في ذلك، وفي نطاق هذا السياق الذي اختاره الأخطل الصغير تكمن قاعدة جديدة هي «الدفقة» الأصيلة التي تأتي الأبيات الأخرى تكملة لها أو مقدمة «ومصيبة الشعر أن يحرم هذه الدفقة» فإذا شئنا أن نقدر هذا الشعر بحثنا عن تلك الدفقة وميزناها بعلاماتها، ذلك لأنها تستطيع أن تصبغ ما حولها بألوان توهم الوحدة وتخدعنا عن عناصر التناقض الداخلي؟ وفي نطاق هذا الفهم نستطيع أن نجد للأخطل الصغير شعرا ذا نسق معجب من الجمال كقصيدته «ضفاف بردى» ففيها ينتحل الشاعر بساطة الطفل في نظرته للأشياء والذكريات، وأستطيع أن أجعلها نموذجا أعلى لخير ما استطاع أن يحققه في ميدانه:

سل عن قـــديم هـــواي هـــذا الـــوادي

هل كـــان يـــخـــفق فـــيه غـــيـــر فـــؤادي

.....

أنـــا مـــذ أتـــيت الـــنـــهـــر آخـــر لـــيـــلـــة

كـــــانت لـــــنـــــا ذكّـــــرته إنـــــشـــــادي

وســـألـــته عن ضـــفـــتـــيه ألم يـــزل
لي فـــيـــهـــمـــا أرجـــوحـــتي ووســـادي
فـبـكى ليَ الـنـهـر الحـنـون تـوجـعـا
لمـــا رأى هـــذا الـــشـــحـــوب الـــبـــادي
ورأى مـــكـــان الـــفـــاحـــمـــات بمـــفـــرقي
تـــلك الـــبـــقـــيـــة من جُـــذًى ورمـــاد
....
بـــردى هل الخـــلـــد الـــذي وعـــدوا به
إلاك بـــــين شـــــوادنٍ وشـــــوادي
قـالـوا تحب الـشـام قـلت جـوانـحي
مـقـصـوصـة فـيـهـا وقـلت: فـؤادي

فمن شاء أن يجد طواعية الشعر في النغمة والعبارة فإنه يحسن به أن يقرأ القصيدة كلها، فهي طرفة من الجديد القديم كما ارتآه الأخطل الصغير وأراده وحققه.

وليس بهذا وحده حقق الأخطل الصغير دوره في الشعر المعاصر، إذ سيظل مكانه في تاريخ هذا الشعر «منطلقا» لاتجاهات شتى، وإذا كان الشعر المعاصر قد عمد الى نوع من «التخصص» فإن فروعه المختلفة تلتقي لديه على التسوية والتعادل. سيذكر بين أصحاب القصص الشعري إذا ذكر مطران وأضرابه في هذا التيار؟ وإذا ذكر أدب الحقد الشهواني الذي طوره أبو شبكة فإن القارئ يستطيع أن يتذكر قول الأخطل الصغير:

مـــأدبـــة أفـــرغت كـــأسي بـــهـــا
وقـــمت عـــنـــهـــا لا كـــمـــا تـــزعـــمـــين
فـفـضـلـة الـكـأس الـتي عـفـتـهـا
تـركـتـهـا لـلـخـدم الـسـاقـطـين

وإذا تحدث المتحدثون عن النزعة الريفية في الشعر وجدوا له مثل قوله في النزعة الريفية الواقعية:

عـــودوا الى تـــلك الـــقـــرى فـــلـــقـــد
ســـلـــخـــتـــكم عن قـــلـــبـــهـــا المـــدنُ

لا الحــــقل يـــبــــسم عن مـــعـــاولـــكم
فــــيه ولا تـــــتــــــرنم المــــــهن
ذوَتْ الــــريـــــاض ومــــاؤكم عـــــمم
وتـــعـــطـــلت من حـــلــيــهـــا الـــقــن
مـــحـــراثـــكم صـــدئ الحــــديـــد به
والـــفـــأس ملء عـــيــونـــهـــا الـــوسن
وخـــوت زرائـــبـــكم وكـــان عـــلــى
جـــنـــبــاتـــهـــا يــتــدفق الـــلــبن
خـــلت المـــرابط من ســـوابـــقــــهـــا
وتــــثـــاءبت بــــحــــبـــالــــهـــا الأتن
عـــودوا الـى تـــلك الـــقـــرى فـــعـــلى
بـــســـمـــاتـــهـــا يـــتـــمـــزق الحـــزن

وربما عثروا لديه على خطرات رمزية أو سريالية موشحة بالغموض وتعبيرات كأنها شطحات صوفية مثل:

إن تكن أنت أنا   وجعلنا الزمنا   قطرة في كاسنا

ولن يفقدوا في بعض مقطوعاته لذع «الابجرام» واستدارته في مثل قوله:

إذا مـــا ضـــربت الـــكـــلب يـــعـــوي وربمـــا
تــــقـــــحَّم مـــــؤذيه وعض بـــــنـــــابه
وفي الـــشـــرق نـــاس لـــو ســـحـــقت رؤوســـهم
لمـــا نـــبـــســـوا فـــلـــيـــخـــجـــلـــوا من كلابه

وإذا تحدث الناس عن طبيعة الأسلوب الملون بصور الحب في مدرسة كبيرة تضم معروف الارناؤوط وكرم ملحم كرم وعمر أبو ريشة وسليمان العيسى وعمر النص وأنور العطار فإنهم سيشيرون أيضا الى أستاذ مهد هذا الطريق لسالكيه. أما تبيان قيمة هذا الدور في أدبنا المعاصر فلا يظهر إلا بالمقارنة مع سائر الأدوار الأخرى.

بقي مظهر واحد طال إرجاؤنا له ونحن نستقصي النواحي الجمالية – في الأكثر – وتصدينا له في هذا المقام يصل آخر هذه الدراسة بأولها، ونعني به الآفاق الرحبة التي استشرفها الشاعر ذات يوم الى أن اصبح وجودها في شعره كأمواج الصوت حين تبتعد عن مصدرها، وهي تلك الأقانيم الثلاثة: التي تصله بالدائرة الجماعية – : الشعور بآلام الإنسانية، والشعور بلبنان، والشعور بالعروبة، ولا ريب في أن هذ الثلاثة مجتمعة هي مفتاح الاتجاه الأصيل في شعره، ذلك لأنه ترعرع أول أمره في أحضان الإحساس بآلام الجماعة، وفي ظل الفكرة العربية وفي ظل التجارب النفسية بينه وبين الوطن. وقد رأينا في أول هذا المقال نظرته الإنسانية الى الحرب، وهي آية الوعي الجماعي في البواكير وقد استمر هذا الصوت المثلث يشير الى هذا الوعي الصادق مدة طويلة: فتمخضت وقفته الى جانب الفقراء عن عدة قصائد مثل «الفقراء» و «رب .... قل للجوع» و «قصر العظيم» و«الجابي» وفي هذه القصيدة الأخيرة يصور حال الريف اللبناني وما يعانيه من فقر بالنسبة لما يتمتع به الناس من رخاء في بيروت:

بـــــــرب الأرز حـــــــــدثـــــــــني
أحـــــــقــــــاً قـــــولـــــهم حـــــقـــــا
بـــــأن الـــــنــــاس في بــــــيــــــرو
ت لا تـــــشـــــقى كـــــمــــا نـــــشـــــقى
وأن الأتْـن والـــــــــثـــــــيـــــــرا
نَ تـــلـــقى الـــعـــطف والـــرفـــقـــا
فــــــإن صـح الـــــذي قـــــالـــــوا
أيـــرضى الـــعـــدل ذا الـــفـــرقـــا
ويـــرضى صـــاحب الـــســـلـــطـــا
نِ أن نــــــفــــــنى وأن يــــــبــــــقى
ألـــلـــحـــكـــام مـــا نجـــني
مـــتى كـــنــــا لـــــهم رزقـــــا؟

ويقول في قصيدة «لبنان عيد ما أرى» مصورا هذا التفاوت:

قل لـــلــــرئـــيس إذا أتـــيت نـــعـــيـــمه
إن يـــشْقَ رهــطك فــالــنــعــيم جـــهــنمُ

أيـــطــوّف الـــســـاقي هـــنـــا بـــكـــؤوسه
ويــــزمـــجـــــر الجـــابي هـــنـــاك ويــــرزم

تـعـرى الـصـدور هـنـا عـلى قـبل الـهـوى
وهـــنــــاك عــــاريـــة تـــنـــوح وتــــلـــطم

والـكـهـربـاء هـنـا تـشع شـمـوسـهـا
وســـــراج أكـــــثــــر مَنْ هـــــنـــاك الأنجم

وليس الذي يستثيره فحسب هذا التفاوت بين المدينة والريف، بل لعله أشد تأثرا لهذه الفرقة في وطنه:

أمّـا الـشـعـوب فـقـد تـآلف شـمـلـهـا
فـــمـــتى يـــؤلف شـــعـــبك المـــتـــشـــعب

نـــــــضـــــــبت مـــــــوارده وجف أديمه
وتـــقـــلص الـــريـــان والمـــعـــشـــوشب

كم مـــورد لك في الـــســـراب وغـــصـــة
أرأيت كـــيف يـــغص من لا يـــشـــرب

وشعوره بالعروبة صريح لا مواربة فيه فهو الأخطل الصغير شاعر الدعوة العربية مثلما كان الأخطل الكبير شاعر الدولة العربية، والرابطة التي تربطه ببردى والنيل والفرات قائمة على الحب والمشاركة في المجد واللغة والتاريخ:

من مـبـلغ مـصـر عـنـا مـا نـكـابـده
إن الـــعـــروبـــة فـــيـــمـــا بـــيـــنـــنـــا ذمم

ركـنـان لـلـضـاد لم تـفـصم عـرى لـهـمـا

هم نـــحن إن رزئت يـــومـــا ونـــحن هم

حتى الشمس في الشام عربية:

والـــشـــمس فـــوق ســـهــوله ونجـــوده

عـــربـــيـــة الإمـــســـاء والإصـــبـــاح

ولكن عيب هذا الاتجاه في شعر الأخطل الصغير أن يكون خطرات تقتضيها المناسبات، وأن يظل منبعه راكدا حتى يثيره حادث هنا وحادث هناك، ويبدو أن النظرة الجمالية «المجردة» تجني – أو جنت – على هذا النبع.. حتى غدا شعر الأخطل الصغير إذا أنت مثلته لنفسك كالكأس البلورية المكسورة في غير موضع، وأصبح القِدم إحـدى خصائصـها وإن لـم يفقد بعض جوانبها شيئا من البريق والتلاميع.

د. إحسان عباس

****

كلمـــة

ألقيت في مهرجان الأخطل الصغير فـي الأونيسكـــو

حافظ المنذر

فجر هذا اليوم، غداة انكساف الظلمة، تلفتت نجمة الى أختها تقول: ليتنا من بنات النهار يا أختاه.. إن لبنان الجميل يقيم في الصباح عيداً لكبير من شعرائه. اسمه بشرى وقلبه نجوى، وهواه شراع جوال ما ترك يمّاً إلا هدهدته فيه الأنسام أو أغوته أخطار العواصف.

هو ابن الليل ونجيّنا فيه، أليف الشذى، عاشق طرف الجمال يزفها البوح جوارح من قلبه، صاغ الحرف فتناً من السحر تزوغ وأرسل البرق نذيراً بدواهي الصواعق.

قديم هوانا له يا سهى.. وحسرتي الآن مريرة، كيف تستأثر به هذه الشمس ولا تكون الكواكب جميعاً شموعاً مضاءة في عيد الشاعر

يا حبيب النجوم.. لقائي بك اليوم، أي شيء أعز وأنقى وأرفع؟..

فيه من مناي تلك الغالية التي طالما تاقت الى صباح عيد ألقاك فيه، بهجته والرواء ترفل بالكبر وأزهو أنا بك كبراً.

وفيه مما أقول صوت أبي المعلم الغائب يهتف بي: هو الوفاء يا بني.. وفاء لمن يصنعون أمجادنا أن يكونوا عز جباهنا وشموخها.

وفيه من رجائي أن لبنان التائه ارتد في يومك هذا الى صواب لنلتقي عندك جميعاً فوق أهوائنا والصغار.. في نقاء الجمال والفرح والأمل.

■ «المراحل البرازيلية»، كانون الثاني ١٩٦٩، العدد ١٥٠ ، السنة ١٤.

وفي هذا اللقاء، أجوب من دنيا شعرك الرحيبة مطارح مطارح، ليس لها عد ولا حد.. هنا من الزهر غمر.. وهناك شذى وعناق وقمر.. وهنالك من الحكم وصف درر.. وبعدها آلام الجراح وأحلام رواد الكفاح عالم برمته، عالمنا نحن يضج عميقاً في صدرك، لينطلق الشعر من فيك لا أعذب ولا أصدق ولا أروع.

أرسلت لوعة الجوى عتاباً أرق من رف الجناح، وأشعت الأمل ربيعاً يغلب الجهمة ويتجدد على الدوام تبسماً وعبيراً...

حافظ المنذر

****

السبك في شعر الاخطل الصغير

د.علي شلق

المرحلة الأولى:

الأصوات معاناة حياة، تعبير عنها، لذلك فهي صور لتلك الحياة، تجيء في حالاتها الأولية غامضة الرمز، خفية الدلالة.

بعد اكتشاف الحرف، أصبحت تلك الحروف أصداء تحاكي الأصوات، وعلى شيء من التهذيب، والتطوير. فإذا بنا بعد مرحلة، نكتشف إمكانية هائلة عند الإنسان، تجلت في مكنة التعبير عن الوجدانيات والروحيات بتلك الحروف، بعد مرحلة محاكاة الأصوات.

الأصوات في الأصل حالات، رمز اليها بالأصوات، فالصوت والمعنى لا ينفصلان في الكلمة.

والكلمة شخصية مستقلة بذاتها، لها عالمها الخاص، كالكوكب يدور حول نفسه بتناغم ذاتي يعشق حركته. لكن هذه الذاتية لا تمنع أن يكون لها دوران آخر، أوسع وأشمل في مجتمعها، أي في التركيب، وذلك يشبه الدورة الكبرى حول المركز العام، شمس الأثر الأدبي، فهي لها معنيان، واحد في الأفراد، وآخر في التركيب. والكلمة بهذه المثابة وسيلة، غايتها التركيب، فهي مادة ما نسميه التجربة، أما صورة التجربة الكاملة فهي في الأثر الذي يكتمل بما نسميه الطريقة.

للكلمات المفردة دلالات وهي ذات قوة إيحائية، محدودة في رمزها للتجارب، لكن الكلمات في التركيب الأدبي تفسح لنا مجال الخيال، والخيال لا حدود لتجاربه. لهذا كانت الحروف صناديق تخزن الأصوات، والألفاظ صناديق التجارب، أما الأسلوب فهو فن.

■ الأديب ، يوليو ١٩٦١، عدد ٧، ص: ٤-٧.

فكل أدب هو في حد ذاته موصل لتجارب ذات قيمة، وكل تجربة لا تصل إلينا ليست ذات وجود، هنا، لا نقف عند حدود الألفاظ والجمل، بل لا بد لنا من القول إن هذه الألفاظ والجمل، تشكل ما نسميه الحالة الثانية، الجو، أو العالم الذي نقلتنا إليه تلك الألفاظ والجمل.

وأخيرا بمقدار ما يستطيع الأديب أن يوصل، أي أن يكتشف الألفاظ، ويوفق الى التعابير التي تثير الخيال، وتقدر على النقل، بمقدار ما يكون ذا موهبة، وصاحب طريقة.

فهل تكون الطريقة اختصارا لشخصية الفنان، ودلالة على إمكانياته؟.

يجيبنا عن ذلك لونجينوس، وهو صاحب رسالة عظيمة في الجلال الشعري بأن الأسلوب هو الرجل.

المرحلة الثانية

بعد هذه التوطئة من تراه يكون بشارة الخوري في أسلوبه الذي هو صورة عنه؟ للإجابة على سؤال يعدل حياة الكائن البشري ذاته، نتناول ديوانه «الهوى والشباب» الذي يقع في ما يقارب المئتي صفحة من القطع المتوسط، قدم له الأستاذ عادل الغضبان، ونشرته دار المعارف سنة ١٩٥٣.

تصدرت الديوان قطعة من خمسة أبيات عنوانها «لبنان» تناول فيها الأخطل الصغير معارض الحسن في لبنان، من مجالي الأرض، ومشارف النجوم، بين تأوه الجداول، وابتسام الروابي، ورفيف الغصون، ثم انتقل فجأة على طريقة القصيدة القديمة الى الحديث عن فاطمة ومريم، إذ هما رمزان لوحدة الصف اللبناني، ثم عاد الى أكماته البيضاء، وسمائه الزرقاء، وشبهها بأطفال تنام وتحلم، وتتصاعد قبلاتها كما تمر بالوادي فتلثم جوانبه.

لم يفعل بشارة الخوري أكثر من تعداد معارض الحسن في لبنان، بأسلوب حلو، وكلمات رقيقة، وذلك يصور لنا لطافة روحه، ونعومة ذوقه، بيد أن الأمر اقتصر بالشاعر عند هذا الحد من تسطيح الشاعرية، فلا انغمار صوفيا في طبيعة لبنان، ولا لهثة روح تنعقد بينها وبين الأشياء وحدة عناق حميم.

وعندما تخطر المرأة أمام عينيه، وجوانب قلبه، تتمادى كأنها تمشي في دروب مكشوفة، لا حنيات أو أغوار فيها، إنها دروب معبدة، معشوشبة من الهامشين، لا يوحي لك اجتيازها أبعادا، وأسئلة، وجلالات، ولو قسنا قصيدة من قصائده في مقابلة المرأة بالطبيعة، مع ما عرفنا لابن الرومي في بستان المغنية، ووحيد، لظهر فارق السماوية عند ابن الرومي، والضحضاحية عند بشارة الخوري:

المها أهدت اليها المقلتين
والظبا أهدت إليها العنقا
فهما في الحسن أحلى حليتين
للعذارى جل من قد خلقا

إلى أن يقول:

فكسا بالورد منها الوجنتين
وكسا مبسمها بالأقحوان

وقوله عن النهدين:

فهما في صدرها كالموجتين
أي صب ما تمنى الغرقا

إن في ترديد فعل «كسا» لفتور ظاهر، وفي تمني الصب أن يغرق في أمواج الصدر بساطة، وضآلة إيحاء، لكن في قوله:

أو هما، وليسلما، كالتوأمين
كلما همت بأمر قلقا

غنجة فاتنة، واعذيذابا مسكرا، لا يقل عنه قوله في القبلة الأولى:

إن كان أحلى الحب أول قبلة
ما ضره لو مات أول عمره
كالزهر مات مكفنا بأريجه
ووسيم نضرته، ونشوة طهره

على أن البيتين على ما فيهما من ترقرق الكلمات، وحريرية الأجواء، لا يوحيان بما مثله ميشال طراد، والموضوع واحد، فحملنا على مخمل جناح الكلمة الى ليل من أطياف مسحورة، تفتح لنا أبعادا، وصورا:

يا صاحبي ما كان أسعد هالدني
لو كان مثلي فيك عمتتصورا
وتعيش عمرك مثل عمر السوسني
عاكاس خمر ومجوز وضحكة مرا

في بيتي ميشال، هز موسيقى، وصخب جو، والتفاتات وجلة، حزينة، فرحة، هنا نكهة صوفية، وهي أقدس ما عند الشاعر، من وسائل يصل بها الى حرم الهيكل. وإن كنت لا أنكر أن بيتي بشارة الخوري يشرحان صورا زغباء الريش عن ميتة الزهر مكفناً بأريجه، ووسيم نضرته، ونشوة طهره، غير متجاوز قيمة هذه الكلمات الموحية وسيم، نضرة، نشوة، طهر.

والصوفية في الشعر أخت الفلسفة، أو هما جناحا الشاعرية الحقة، تلك التي بجلالها تمسح آفاق الإنسانية ولا تقف أو تنحسر بين حدود المكان، والجنس. فأي تساؤل طفل أولي في ما يلي:

من ترى يشرح لي ذنب الفقير
أو ترى يظهر لي فضل الغني
يرثان البؤس والعيش النضير
ويقيمان معا في الكفن

إلى قوله:

ما ترى يفعل مكتوف اليدين
أترى يقدر أن لا يغرقا؟

وفي قصيدتيه «آه ما أحلى الحميا»، و«من رأى الشاعر تاب» قال الأولى سنة ١٩٣٩ والثانية مغفلة التاريخ، يبدو شاعرنا فيهما مراهق الحبكة، وإن كانت بعض توترات شعرية هنا وهناك، في جو غير بعيد من الوهن، والخروق التي لا تمنح الوفاق الجمالي، الذي يجيء وليد الجو البديع.

فأية صورة موحية كلمة (القرب) في بيته القائل:

مـا لـلـشـفـاه الـكـسـالى لا تـزودنـا

فـقـد حـمـلـنـا عـلـى أفـواهـنـا الـقـربـا؟

تصور قربة سوداء، باهتة، مشققة، محمولة على شفتين، وهي تطلب لفراغها امتلاء من شفتين بخيلتين، أو كسولتين، ذلك لا يعادل قوله:

رسـالـة من فـمه لـفـمـهـا

كـذا رسـالات الـهـوى تـخـتـصـر

وإذا قال:

قـلت أهـواك يـا ملاكي فـردت

مـقـلـتـاه لـكن تـلـعـثم فـوه

ليست لها إيحائية قولة أمين نخلة:

وألـذ تـأديـة وأمـتع مـنـظـرا

إغـفـاء عـيـنك يـومـذاك وصـمـتـهـا

أما الصورة الحلوة في بيته التالي:

والـنـسـيم الـخـفـيف يـلـهـو بـثـوبـيـنـا

كـالـطـفل أهـلـوه مـا هـذبـوه

فهي تستر ما تواهن من بعض صوره، في مطلع شبابه حيث يفوته حسن انتقاء الألفاظ كما تتواهن الجدلة الشعرية في أبياته التوشيحية، إذ يقل هنا عنه في الأوزان المرتاحة، الرتيبة، شأن شعراء عصره ومن سبقوا عصره، بالتنويع في القوافي، والأوزان، ظاهرة لم تستلن إلا لأقلام المعاصرين، وقرائحهم.

صـداح يـا مـؤنس الأراك

مـا لـي أراك؟ تـشـدو، فـسـبـحـان من قـد بـراك

ألوان باهتة، تساؤل رخيص لا يدب في النفس، بل تجفل منه الأذن، فهل يسأل الكوكب لماذا يشع؟ والزهرة لماذا تفوح؟.

صفق كما شئت بهذا الجنـاح	**فـلا جناح**
وشم خد الزهرات الصبـاح	**فـهـو مباح**

فالروض لم يختر مليكا سواك،   فـانشـــــر لـواك، فكلنا فــي هـــواك

الأوزان والقوافي مستعجلة لحشر الكلمات فيها ردما للهوة التي تفزع من الفراغ الشعري.

وبعد فافعل مـــا تشا في فتاك   فشفتاك حسبي، فماذا تبتغي مقلتاك؟

شفتا الصداح، ومقلتاه، لا سر فيهما، بل السر في منقريه، وجناحيه، فإلصاق الفتنة في عيني الصداح وشفتيه، عمليه ردم لا دوزنة عمارة شعرية. وأين النحت، والتحكيك في رخام اللفظ والفلذة الشعرية عندما يقول:

آه يــــا هــــنــــد لـــو تـــرين

مــــوقـــفي بــــين حــــائـــطـــين

فأية حائطية طينية في هذين الحائطين؟. وتفوته البراعة في قصائده المقتبسة عن اللغات الأخرى كما تفوته البراعة في معظم شعره. قبل سنة ١٩١٤ نلاحظ الفتور في الصفحات ٤٤ –٥٥ – ٦٤ تحت عنوان: قلب خافق – أنا لو كنت يا سليمى، وماذا أقول له، سواها.

وفي قصيدته الطويلة «الريال المزيف» يدعو الى الملاحظة: فالأبيات الأربعة الأولى، تبدو منقطعة عن باقي المنظومة، وإن كان بارعا في رصف مداميك الكلمات، وتنسيقها.

على أنني لا أستثني من موشحاته التي لم يوفق بها إلا موشحته «اسقنيها بأبي أنت وامي» والتي غنتها ذات الحنجرة الفضية أسمهان، تلك التي تصور لنا صهيل حصان من نحاس، يرقل على خدود القمر، وإن كانت هذه الموشحة مقتبسة الوزن، والأجواء من قصيدة ابي العتاهية.

قـل لمـن لـــــــســـت أســـــــمّـي

بــــــــــــأبــي أنـــت وأمـــي

اختم الحديث عن هذه المرحلة الثانية التي عرضت فيها لشعر الأخطل الصغير قبل سنة ١٩١٤ وما يليها بقليل فشعره في هذه الفترة كان يجب أن يلغى، وإن كنا نلمح استلانة الألفاظ، وطواعية القافية في بعض قصائد هذه الفترة، كقصيدة «هند وأمها» ، إلا أننا نفتقد الأبعاد الشعرية، كالعباب، والذرى، والأغوار، وبقينا في ضحضاح من الماء، عذب، صاف، يترقرق على رخام أملس، ملون، لا غير.

هذه الفترة تعرض لنا شعر بشارة الخوري المتميز بخصائص الشاعر، وتناغمه في الشكل والمحتوى، مع ما نسميه العمارة الشعرية. إذ نلتقي بالكلمة المختارة، بالمكان الملائم، بالجو الأنيق المنغوم، لنقابل أبا عبدالله رقيقا، عذبا، جليلا، محلقا:

قـــــبــــــة مـن مـــــكـــــــارم، وجــــــدار

من فـــخـــار، وعـــتــــبـــة من جـــبـــاه

كلمات تترقرق على قلم أبي عبدالله، مشوقة الى أخواتها فإذا بثريا العناقيد تأتلق، وبنسيج الطيلسان يهدل بجلال رب من الأولمب، ورشاقة حورية على عشب مزهر، يومئ البحر الى عاج ساقيها فتنزلق في الماء تتبرد، ارتماء الهنيهة في المطلق كما يقول أخونا سعيد عقل مهندس الكلمة الشعرية.

رقــدت تــرشف الــكــرى مــقــلــتــاهــا

مــثــلــمــا يــرشف الــعــطــاش المــيــاهــا

صـــاعـــدات أنـــفـــاســـهـــا هـــادئـــات

كـــصلاة الأطـــفـــال طـــهـــر شـــذاهـــا

تحــلــم الحــلــم لــؤلــويــاً فــتــمــلــيه

طـــهـــورا عـــلـــى الـــصـــبـــا شـــفـــتـــاهـــا

وأزاح الــنــســيــم عن صــدرهــا الــثــوب

فلاحـــــا، ولا تـــــقل نـــــهـــــداهـــــا

كلمات أبراج، صور معنبرة، مقصوبة من تفتا الشمس، من برفير القمر، لكن الكلمة التي لا يقولها بشارة في البيت الأخير، أغدق نعمة، وحركة، ورمزا.

لنقف عند قصيدة «قد يغني الفتى» وقصيدة «عمر ونعم» حيث تقابلنا شواهق العمارات الشعرية، بقناطرها وأعمدتها التي تشارف الفلك، ولا تمنح إلا في نادر العطاء.

وإن كنت ألاحظ كثرة حروف العطف التي يجنح بنا تتابعها الى شيء من التساهل في رصف حبات العقد، والتي يخفف من أثرها التساؤل الحلو المستساغ:

تـــعـــرت الـــشـــمس عـــلـــى وجـــنـــتـــهـــا

وانـــشق - لـــو تـــعـــلـــم أين - الـــقـــمـــر

وقوله:

مــا الحــسن لــولا الــشــعــر إلا زهــرة
يــلــهــو بــهــا في ســاعــتــين الــنــظــر
حــــتــى إذا مــــا أدركــــتــــهــــا رقــــة
من شـــاعـــر أو دمـــعــــة تـــنــــحـــدر
ســـالت دمـــاء الخـــلـــد في أوراقـــهـــا
ونـــام تحت قـــدمـــيـــهـــا الـــقـــمـــر

وكلماته: رأس ملاك أشعر، وصدر حنون أشقر وشهدا تقطر، هي من فلتات التوفيق في جري السباق الشعري، كما أن الشاعر هنا يعمد الى الإشارة المفصحة عن أصالة في فهم الفن التي مؤداها أن الشاعر كفنان يعمد الى الصورة فيجسدها بالكلمة، وعملية التجسيد هذه محاولة للتفوق على الزمان، وإمساك جريه فلا تنهمر شآبيب الفناء.

إن العمل الفني في حقيقته تخط للفناء، لأنه موصول بالمنطق الذي يقف المكان والزمان عند شواطئه، لهذا لا سبيل الى خلاص أي كيان بشري إلا بالفن، خلاصا يحمل الى مدار الغبطة والفرح والدوام.

غاية الفن التعبير عن الجمال، الفن وسيلة الجمال النهائية، الجمال وفاق مع النفس، والوجود، لأنه عنوان الوحدة.

هنا نرى أن بشارة الخوري أدرك نسبة ما بين عمل الطبيعة المتغير، وعمل الفن الخالد، فزهرة الطبيعة غير زهرة الفن، تلك تذبل، وتفنى، وتلك ينفخ فيها فنان خلاق من روحه فتتخطى دائرة التغير.

على أن عملية الخلق إذا أمعنت في خطوط الشكل وعالم الظواهر تنسيقا، كان ذلك بمثابة تطريز دروب التغير، بعيدة عن تجسيد الشوق، وتشخيص الحنين النابعين من أعماق الكائن المبدع، في سبيل الاتحاد الكامل بالنهائي.

إن عمل الفنان يتم برفع الوسائل، التي هي ظاهرية الى أن تنطلق، وتتصل بعالم الكمال، أما الاقتصار على التصنيع فهو عمل إلهاء، وخداع سرابي عن حقيقة الضمنيات.

بشارة الخوري قد يمعن في التصنيع أحيانا، فيبعدنا عن سماء الخلق، ويلهينا بقواقع لا حياة فيها، وذلك يحصل لكل فنان، في بعض أعابيثه الطفلية، حيث يروقه البهرج ويغفل عن درر القاع.

قتل الورد نفسه حسداً منك

وألقى دماه في وجنتيك

قتل، حسد، دم، كل ذلك مسلط على وجه حسناء فيالأصداء أبي تمام في مقابلاته القوقعية وطباقاته، التي بعدت به عن جوهر الفن!

وربما انفتحت أبواب الهنيهة الخلاقة، والشاعر يعبث بأصدافه على الشاطئ، فإذا به ينفض جناحي شراعه، ثم يطفر فوق العباب، ويمسح جوانب الآفاق.

عيناه عالقتان في نفق

كسراج كوخ نصف متقد

الكلمات في حد ذاتها موحية، لكنها في التركيب، فتحت أمامنا بالخيال مدى رحباً على كثافة الصور، ويا ليته خرّج في قصيدته «خيال من دمر» هذه الرياض والغابات التي توطئ لدخول الشام، عن تسطيحه التشابيه والاستعارات، الى رفيف الشراع، وخفق الريش.

أيها الدوح دوح دمَّرَ إني

لست أنسى تلك الليالي اليتامى

ولعله إن فعل ذلك يرضينا بمثل قوله:

لم يلبسا ريش الهوى لكنما

هو ريش أحلام وريش أمان

وقوله:

فجرى يرقص عوده الشعري على

صدر المروج ومعصم الغدران

فيصوغ هنيهة النسيم قصائدا

ويرد زمزمة الغدير أغاني

ولا أدري هل وفق أبو عبدالله في جعله الشعر سببا من أسباب الكشوف العلمية الحديثة في مثل فريدته:

له على الآفاق فتح زاهر

وفي عباب الماء فتح أزهر

تعلَّق العلم على أسبابه

فحلَّق الطود، وقال الحجر

بشارة تأثر بالرومنطيقية أكثر من شعراء عصره، وتلاقى بالآخرين الذين اتخذوها مثالا ينسج على غراره، لكن الكلاسيكية، والرومنطيقية، والرمزية، وخلافها من مدارس الشعر والرمز، إذا كانت وسائل تعبيرية للنسج والتفصيل، والهندمة، فهي قبل كل شيء عمل فكر ينبع، ومشاعر تفيض.

أنا أدرى بالطير حين تغني

كم جراح سالت على الأعواد

ومن هذا قوله:

عذرتك يا قلب مَن للهوى

أنتركه بعدنا يذبل

سكتنا فما غرد العندليب

وتبنا فما صفق الجدول

هويناك يا أبا عبدالله، كدت تفجر قلوبنا جراحا ونحن في مدارج الخمسين! ولا يغيبن عن البال أن الجناح الحسوني في ساعة يرف من قوافي الأخطل الصغير على الأقحوان، والغصون اللدنة، يبقى على طراوته، ورقته ساعة ترجف الأعاصير، وتزأر الأزمات. إنه مفن الكلمة الصناع، فهو يختار لها البحور حسب الزخم الزاخر في قريحته وأجوائه.

ضجت الصحراء تشكو عريها

فكسوناها زئيرا ودخانا

وما كنت أظنه سيلبس بردة النؤاسي، ويمد يده الى كيانه فيتناول قلبه، ويعلقه الى جانب قلبه، نابضا بمشاعره وأحاسيسه، ذاك الذي له سكرتان وللندمان واحدة، ثم يلتفت الى الحسين بن الضحاك الأشقر الخليع، فتعجبه أبعاد التجنيح في الكلمة، كما تروقه صناجية الأعشى، وخشاخش الأخطل الكبير، فيطلع على آفاق الشعر العربي المعاصر بفريدة الفرائد:

فــتن الجــمــال وثــورة الأقــداح
صـبـغت أسـاطـيـر الـهـوى بـجـنـاحي
وُلــد الــهــوى والخـمـر لـيـلـة مـولـدي
وسـيُـحـمـلان غـداً عـلـى ألـواحي
أشـتف روحـهـمـا وأعـطي مـثـلـهـا
روحـاً، وأُسـلـم لـيـلـتي لـصـبـاحي

وهو مثلما كان يمعن في المحسنات اللفظية، عند مدارج شبابه، أصبح يزهد فيها بعد اتكائه على عرش الشاعرية، صنو المعري في مستهل أمره، وإذا بدرت تصنيعية في شعره الواثق من ذاته، فإنما هي حيث وضعت، ويبدو التميز عنده في لطف الكنايات والاستعارات، ودقة المقابلات التشبيهية:

جــمع الأحـســنــين في أوزانه
روح حَـسّـانِه، ووجه حِـسَانه

ولا أدري كيف تحضرني في البال صور من رومنطيقية لامارتين، ووهمية ابن الرومي ساعة اقرأ هذه الأبيات:

يـحـمل الابـتـسـام في شـفـتـيه
والمـنـايـا تـسـيل من أردانه
كـسـراج في جـوف ديـر قـديم
هـرقت روحه عـلـى جـدرانه
كـعـلـيل عـلـى فـراش من الـسل
بـعـيـد المـزار عن إخـوانه

كـلـمـا ألحف الـسـعـال عـلـيه
أطـعم المـوت قـطـعـة من جـنـانه
هـكـذا الـشـاعـر الـشـقي يـغـني
لـيـغـذي الأفـراح من أحـزانه

أما براعته في التقطيع، والتوزيع، وهما غير الترصيع الشعري الذي يقابل السجع النثري، الشيء الذي يريح في توزيع الفلذات الشعرية، والموجات النغمية، فهو فريد بها:

حـسامـهم مـا نـبـا في وجه من ضـربـوا
ومـهـرهم مـا كـبـا في إثـر مَنْ هـربـا

إلى جانب الصور التي يشرح بها انفعالات الأعماق، وتشوفات الخواطر:

أو هـضـبـة من خـرافـات مـرقـعـة
بـأعـين من لـظى أو من رؤوس ظُـبى

وقوله:

مـاذا نـسـمـيه؟ قـال الـبـعض صـاعـقـة
فـقـال كلا، فـقـالـوا عـاصـفـاً فـأبى

إلى قوله:

يـرى الـسـراب عـبـابـاً هـاج زاخـره
والـرمل يـلـتـحف الأزهـار والـعـشـبـا

يلتفت إلى ابن الرومي في قوله عن أمواج دجلة:

كـأني أرى فـيـهن فـرسـان بـهـمـة
يـلـيـحـون نـحـوي بـالـسـيـوف الـقـواضب

هنا، أجدني فتحت الباب، مدخلا لشعر الأخطل الصغير، الحبيب أبي عبدالله، متخذا من عبقريته في اكتشاف كنوز اللفظة وأجواء التركيب، وطريقة النسيج، والرصف، والتنغيم، كي أعود إليه مرة أخرى في منازع فكره، وأغراض شاعريته، التي رفّت وحدها في مجرى ثلاثين عاما على دنيا العرب، تغني أفراحهم، وتبكي مآسيهم، وتزرع اللهب، والعصف في يقظاتهم وثوراتهم.

هنا، قولوا لي، أي شاعر عربي في مدى ربع قرن لم ينهمر على مائدة بشارة الخوري، وينسج على طريقته؟ أقول واثقا ولا أستثني.

د.علي شلق

****

شعر الأخطل الصغير
بشارة عبدالله الخوري

يوسف الخال

النقد مشكلة مطروحة على بساط البحث. هل تصح أو لا تصح؟ فإن صحت فكيف، وعلى أي أساس، وإلى أية غاية؟ أينطلق الناقد من الأثر، فيشرحه ويحلله ويستخلص منه، كعمل إبداعي مستقل، حدوده وأحكامه وعالمه الخاص به وعطاءه الفريد؟ أم يتناول الأثر، فيقيسه بمقاييس سالفة تمت إلى هذا المذهب أو ذاك؟ ومن جهة أخرى، هل يجوز للناقد تقييم الأثر والحكم عليه، إطلاقاً، أم يكتفي بالإعراب عما تركه الأثر في نفسه وما أثاره فيه من مشاركة وتفاعل؟

هناك تساؤل من نوع آخر، هو ما يعنيني هنا. هل ننقد الأثر من ضمن إطاره التاريخي وبمفاهيم الحقبة التي وضع فيها، أم ننقده بمعزل عن الزمان والمكان وبمفهومنا الراهن، بما في ذلك ذوقنا الناجم عن تطور الحياة حولنا وفينا؟ وبكلمة أخرى، هل للأثر الإبداعي، في حضرة الحقيقة المعراة أمام بصيرة الناقد، شفيع خارجي؟ هل يجوز تبريره بحدود الزمان والمكان؟

جوابي على ذلك أن لا. إذ لو أقام كل جيل شفيعاً خارجياً لآثار الأجيال التي سبقته، فلم ينتق منها ما يجد فيه معنى لحياته الحاضرة المتطورة وعوناً له في سعيه نحو الأفضل – لأن هذا، في الأخير الأخير، علة وجود الأدب والفن إطلاقاً – لاختلط جيدها برديئها وتراكم بعضه فوق بعض في استمرارية توقع الأدب والفن في خطر الجمود. فمن طبيعة الحياة الحركة والتغير، كما من طبيعة العقل اليقظ إعادة النظر

■ شعر، عدد ٢٢ ، السنة ٢٦ ، ص١٠٧، سنة ١٩٦٢.

دائماً وفي كل لحظة، فكيف من جيل إلى جيل. وكثيراً ما يكتشف النقد آثاراً سالفة مغمورة، أو يبرز ناحية ما من نواحي أثر لم يكن له في زمنه، لأهل زمنه، المعنى الذي أصبح له اليوم. بل كثيراً ما يخفض النقد من قدر أثر سالف أو يرفع منه، والأمثلة على ذلك عديدة في تاريخ الآداب والفنون.

في عملية الغربلة الدائمة هذه، جيلا بعد جيل، تسمو بعض الآثار إلى مرتبة «الروائع»، وهي في تاريخ الحضارة قليلة. من خصائص هذه الروائع أنها تنطوي على قيم ذات معنى لكل جيل متعاقب، مهما تغيرت الحياة حوله وفيه. ويعود ذلك الى انفلات «الرائعة»، من حيث هي شكل ومضمون معاً، من حدود الزمان والمكان واستقرارها في الوجدان الإنساني الذي لا يحده زمان ومكان. فالإنسان يتغير في الرأي، وفي طريقة الحياة، وفي العادات والتقاليد، وفي الإصرار على هذه القيمة أو تلك من قيم الحياة والوجود، إلا أنه في جوهره يظل هو: يحب أو يبغض، يسالم أو يحارب، يفرح أو يتألم، يأمل أو يخيب، يعدل أو يظلم، يطيع أو يتمرد، يصادق أو يخون، الخ...، كما كان شأنه منذ آلاف السنين.

من هذا كله يتضح أن النتاج الإبداعي الذي يتجاوب مع جيل ما لأنه وجد فيه معنى لحياته، قد لا يتجاوب مع الأجيال اللاحقة لأنها لم تجد فيه أي معنى لحياتها. والعكس صحيح. على أن هنالك شرطاً أساسياً لا يصدق هذا القول إلا به، وهو أن يكون الوجود الثقافي في الأجيال اللاحقة وجوداً متحركاً لا جامداً، حراً لا مقيداً، منفتحاً على الحضارة لا منغلقاً عليها. ففي مثل هذا الوجود فقط، يتاح للعقل الناقد الباحث أن يعيد النظر في مآثره الإنسانية السالفة.

هذا الشرط قد بدأ يتحقق لنا اليوم، للمرة الأولى، منذ زوال آخر معقل لثقافتنا العربية الإسلامية في الأندلس. فوجودنا الثقافي، بل وجودنا عامة، هو اليوم على طريق الحركة. لقد انطلق ولن تقوى على تجميده ثانية أية عقيدة كلية، ثابتة، معصومة، تلجأ إلى البقاء والاستمرار عن طريق الأنظمة الزمنية الفوقية وما تنطوي عليه من تشجيع لـ «عبادة الفرد»، ومن مد الكائن الإنساني جسراً تعبره الدعوات المثالية المجردة إلى بناء

«المجتمعات الفضلى».

ساقتني إلى هذا القول مطالعتي الأخيرة لـ «شعر الأخطل الصغير»، بشارة عبدالله الخوري، هذا الشاعر الذي تبوأ بين الحربين العالميتين، ولا يزال، مكان الصدارة في الشعر العربي المعاصر: درسنا له القصائد ودرّسناها، وروين لنا ورويناها، وغنيت على مسامعنا فرددنا الغناء. كان يمثل لبنان في المناسبات الكبرى، هنا وفي العواصم العربية، فيبيض الوجه ويخلع على المناسبة وشاح الرقة والصفاء والزهو. وكان الى ذلك رفيق كبار شعراء الجيل وجليسهم، ولعله كان أصغرهم سناً. حتى لقد سأله شوقي أن يرثيه بعد وفاته، كما يروي هو، وكما نعلم من هذا البيت في مرثيته:

سألتنيه رثاء خذه من كبدي

لا يخرج الشيء إلا من مصادره

وهي من خير قصائد الديوان، بل لعلها من خير ما قيل في الرثاء.

كان، إذن، لشعر الأخطل الصغير معنى لحياة اللبنانيين، بل العرب أجمعين، في الحقبة التي قيل فيها، أي ما بين الحربين العالميتين. كانت حياتنا آنذاك، في جوهرها لا في مظاهرها السياسية والاقتصادية، هادئة مستسلمة في ظلال عصبة الأمم والسيطرة الخارجية المشمولة برعايتها. لم يكن في العالم العربي دعوة دينمائية تتناول، بالنقض والرفض وإعادة النظر، أسس وجودنا القديمة. كان هنالك دعوة الى الاستقلال الوطني والتحرر من النفوذ الأجنبي، إلا أن غاية هذه الدعوة لم تتجاوز ذاتها. لم نكن نحن وحدنا هكذا. كان العالم كله، على وجه العموم، هادئا مستسلماً في ظلال الرجعية المتجددة التي حاولت الدول الاستعمارية والرأسمالية تعزيزها بواسطة عصبة الأمم. وحين بدأت أسس ذلك العالم تنهار، بدءاً من الضائقة المالية التي زعزعت أسس المجتمع الأميركي، مروراً بانتهاج النازية والفاشية سياسة متطرفة لم تكن في الحسبان (التوسع الألماني واحتلال الحبشة)، وبالحرب الأهلية الاسبانية وبسقوط عصبة الأمم، حتى الانتهاء بوقوع الحرب، ظللنا نحن هادئين مستسلمين. حتى القنبلة الذرية لم

تحركنا، كما أن نكبة فلسطين لم تحركنا أيضاً إلا بعد حلولها بسنوات. وإذا كنا قد تحركنا، بتأثير هذا السبب وحده أو بالإضافة الى أسباب أخرى، فلا يعني أننا دخلنا المرحلة «الثورية» في الصميم، إذ نحن لا نزال منها على الجوانب والأطراف.

وهكذا نجد وضعنا في تلك الحقبة منعكساً في شعر الأخطل الصغير، بل في شعر مجايليه جميعاً. وكان ، إذن، في هذا الشعر معنى لحياتنا، فنصفق له، ونردده، ونغنيه.

فما هي خصائص هذا الشعر؟ إنه شعر وجداني رقيق الأسلوب مشرق اللفظ، كأنما كتب للطرب والغناء. لا أثر للهموم الكيانية فيه، ولا للقلق أمام الوجود والمصير، إنه شعر بلا قضية. الموضوع المفضل: الحب. ولكنه الحب بمعنى شخصي ضيق – بث لواعج، ووصف جمال، ومطارحة، وعتاب لصد وهجران ، وتحرق لوصل أو استرجاع له. لقد عرفنا هذااللون في تراثنا الشعري بالغزل. وظل هو إياه، جيلا بعد جيل، منذ الشنفرى. وما كان ليدوم هكذا على تعاقب الأجيال لو لم يكن وجودنا الثقافي، بل وجودنا إطلاقاً، على ما ذكرته من الجمود.

إن موضوع الحب يظل الموضوع المفضل في الشعر. ولكنه الحب الذي ينطلق من تجربة الشاعر الشخصية الى المجابهة الشاملة التي تتكشف عندها قضايا المصير. إنه الحب الذي، وقد لمس بأنامله السحرية قلبين بشريين، يرتفع على الجلجثة في طريق صعوده الى الملأ الأعلى. كل حب، لكي يكون موضوع الشعر، يجب أن يكون الفداء والخلاص معاً. هذا النوع من الحب، كما يدل على ذلك شعرنا، لم نعرفه في تاريخنا الطويل. وما ذلك إلا لأن المرأة في تقاليدنا العربية كانت جسداً للحب لا تجسيداً له. لذلك انتهت وظيفتها عند حدود الجسد، عوضاً عن أن تبدأ به.

هل من لزوم التمثيل على ذلك من شعر الأخطل الصغير؟ لنكتف بهذا المثل من قصيدته «إلى امرأة»:

هل كـــنت في أبـــهى لـــيـــالي الـــهـــوى
أيـــام كـــنت فـــتـــنـــة الـــنـــاظـــرين
هـل كـــــــنت إذ ذاك ســــــوى آلـــــة

ألحـانـهـا مـني ومـنـهـا الـرنـين

... إن جـاءت الألحـان تـسـبي الـنـهى

فـأي فـضل عـنـدهـا تـدعـين

... لـقـد كـفـاني أنـني عـاشق

وأنـني كـنت من المـؤمـنـين

ومن قصيدة «يا حب، أهلا»:

يـا حب أدركت قـلـبـاً

لـولاك كـان تحـطـم

... يـا حـب، يـا حـب أهـلا

يـا مـشـتـهى الـعـين والـفم

أصـبـحـت أعـظم مـثـر

عـنـدي سـوار ومـعـصـم!

لقد اشتهر الأخطل الصغير بين أقرانه بهذا النوع من الغزل الوجداني الرقيق، الدائر إلى حد بعيد في مدار الغزل العربي المتوارث. على أنه عُني كمجايليه بأغراض الشعر التقليدية، كالمديح والهجاء والرثاء الخ، ولم يقصر فيها. وله قصائد ناجحة، منها في رثاء شوقي وفيصل الأول. وكأني به قد أراد أن يبعد عن نفسه صفة كونه «شاعر مناسبات»، فأحب لقب «شاعر الهوى والشباب» وآثر أن يغفل الإشارة في صلب الديوان إلى المناسبات التاريخية التي قيلت فيها القصائد. بل إنه اقتطع، في بعض القصائد، الأجزاء الخاصة بالمناسبة، وأثبت ما تبقى على أنها قصائد مستقلة. وهو أمر، في نظري، لا يجوز. إذ إن القصيدة التي توحي بها مناسبة ما، هي جزء لا يتجزأ من القصيدة نفسها.

قلت إن من خصائص شعر ما بين الحربين العالميتين، وهي الفترة التي نظم فيها الأخطل الصغير معظم قصائده، الوجدانية والرقيقة والشكلية واللفظية وما إلى ذلك مما ليس، بالضرورة، خصائص تفرد بها الشعر في تلك الحقبة، وما ذلك، كما ذكرت،

إلا لأن الوجود الثقافي العربي ظل في جوهره هو إياه. وأريد أن أضيف هنا خاصية أخرى لهذا الشعر، هو أنه كان شعراً انتقالياً بين القديم والحديث، كحياتنا في تلك الحقبة تماماً. كان استمراراً للقديم، ولكنه كان ينطوي على بذور للجديد. لقد انتهى إلى شعرائنا آنذاك، أكثر من أي وقت مضى، خبر وجود شعر في العالم، فأقبلوا عليه إقبالا متفاوتاً في السطحية أو العمق. ومن الطبيعي أن يتأثروا به (شكلا أكثر مما تأثروا به مضموناً)، فقويت عند بعضهم وحدة بناء القصيدة، وعند البعض الآخر النزعة الرومانسية أو الرمزية. وحاول آخرون المسرحية والملحمة، كما حاولوا القصة الشعرية على غرار ملتون وشلي ولامارتين ودي موسه وسواهم من شعراء الحركة الرومانسية في القرن التاسع عشر. وإننا نجد هذا الأسلوب الشعري عند الأخطل الصغير، كما في قصيدتي «الحرب العالمية الأولى»، و «رب... قل للجوع». وهو أسلوب أول من أدخله إلى الشعر العربي المعاصر، على ما أعلم، خليل مطران.

هذا الشعر الانتقالي، الحائر بين الاتباع الصارم والتجديد الخائف المتردد، نعتبره مرحلة هامة وضرورية في تاريخ تطور شعرنا العربي. لقد مهد لحركة الشعر الحديث، في مطلع النصف الثاني من هذا القرن، إذ فتح أعيننا على الشعر في العالم، وأثار اهتمامنا به على مختلف فنونه ومذاهبه. وإذا كان هذا الشعر العربي، في مرحلة الانتقال هذه، قد افتقر، كحياتنا، إلى قضية تتناول وجودنا ومصيرنا وتضعنا في مستوى الإنسان الحديث، بمشاكله وهمومه، فإنما يكفيه أن يكون الجسر الذي عبرنا عليه إلى ضفة الحاضر.

هذه أفكار أثارتها مطالعتي لـ «شعر الأخطل الصغير». وهي لا تطمح إلى أن تكون دراسة نقدية تفي هذا الشاعر حقه، وهو الذي يتبوأ مكانته المرموقة في شعرنا المعاصر.

يوسف الخال

****

صفحات مجهولة
من حياة الأخطل الصغير

ذهابه إلى بغداد لرثاء فيصل الأول

فوزي سابا

فـــــــراشي يــــــا وقـــــاك الـــــــله
مـــــــنه بـــــــعض أعـــــــشـــــاب
وهــــذي كـــــوبـــتي الـــــفــــخّـــار
مــــا فـــيـــــهــــا ســــوى صـــــاب
فــــمـــــا تـــــبـــــغـــــيه من بــــابي
ومـن أنـت؟ أنـــــــا الجـــــــــابـي

كانت مجلة «البرق» لا تترك آهة من آهات هذا الشعب إلا وسجلتها بأحرف من نار حتى تمادى الجور وبلغت الأزمة المالية أقصى حدودها، وخيف من مجاعة تضرب هذا البلد، والدولة لاهية، لا هم لها سوى الإكثار من الضرائب وجمعها بدون شفقة أو رحمة من الفقراء والقرويين الجائعين، بينما راحت هي تقيم المآدب وتولم الولائم وتسفح الخمور والكرامات على أقدام أصحاب الانتداب.

وكانت مأدبة – عين تراز – التي أقامها حبيب باشا السعد – رئيس الجمهورية – إكراماً لأركان المفوضية الفرنسية بمناسبة عيد أول أيلول – عيد استقلال لبنان، تلك المأدبة التي تحولت الى ما يفوق ليالي ألف ليلة وليلة، باعثاً لقصيدة (عين تراز) التي طلع بها بشارة في مجلته «البرق» صبيحة العيد:

لـــبـــنـــان عـــيـــد مـــا أرى أم مـــأتم
لــــله أنت وجـــرحك المـــتـــبـــسمُ
عـــصـــروا دمـــوعك وهي جـــمـــر لاذع

■ المواسم ، نيسان ١٩٦٦ .

يــتــنــورون بــهــا وصــبــحك مــظــلم
قل لـــلـــرئـــيس إذا أتـــيت نـــعـــيـــمه
إن يــشْقَ رهــطك فــالــنــعــيم جــهــنم
أيــطــوّف الــســاقي هــنــا بــكــؤوسه
ويــزمــجــر الجــابي هــنــاك ويــرزم
تــعــرى الــصــدور هــنــا عــلى قُــبل الــهــوى
وهــنــاك عــاريــة تــنــوح وتــلــطم
والــكــهــربــاء هــنــا تــشع شــمــوســهــا
وســراج أكــثــر من هــنــاك الأنجم
لــبــنــان يــا بــلــد الــسذاجــة والــوفــا
حــلم وهل غــيــر الــطــفــولــة تحــلم
هــذا حــصــيــرك والحــبــيــبــات الــتي
كــانت غــذاؤك والــلــحــاف المــبــهم
بــيــعت لــتــهــرق في الــكــؤوس مــدامــة
هــي لا روتــهــم أنــفس تــتــألم

ويهوي نسر قريش، فيصل الأول، ويتهافت العرب الى مدينة المنصور، بغداد ويتلفت لبنان فلا يرى سوى بشارة الخوري، يرفع لواء الشعر على ضفاف النهرين.

يحجم بشارة أول الامر، لسببين لا ثالث لهما، أنه وقد أرخت النوائب أثقالها عليه، من مادية وسواها، لا يريد أن يزيد في حقدها، وثانيهما أن الانتداب، ولم يبق بينه وبين بشارة، حتى ولا شعرة معاوية، يكره أن يقول لبناني كلمة الحق في فيصل.

أحجم بشارة لكن إحجامه لم يطل، وقد ألح عليه أصدقاؤه، ولأن لبنان في الميزان ومن لها إذا لم يكن هو؟ فذهب الى بغداد وكانت قصيدة – مصرع النسر – :

فــيــصل الــعــرب مــا هــززنــاك إلا
بــالجــفــون المــقــرّحــات الــســواجمْ
بــالمــنى الــذابلات بــالأمل الــدامي
بــثــكل الــهــوى وفــقــد المــراهم
فــهــززنــا لمــا هــززنــاك دنــيــا

من جـــــمـــــال وجـــــنـــــة من مـــــراحم

قل لــتــلــك الــعــهــود في رهج الحــرب

وفي ســـكـــرة الـــقـــنـــا والـــغلاصم

قـــد لمحـنـــاك في عـــيـــون الـــثـــعـــالي

ولمـــســـنـــاك في جـــلـــود الأراقم

حـــدثـــونـــا عن الحـــقـــوق فـــلـــمـــا

كـــبـــر الـــنـــصـــر أعـــوزتـــنـــا الـــتـــراجم

كنا نتساقط أخبار وافدي العرب في يوم فيصل الأول في بغداد، ويد على قلب وابتهال الى الأعالي، أن لا يسوء لنا فأل ولا تسود لنا صحائف، لا سيما ونحن على سنان رمح والعالم أعين الى وافدنا وما طلعت علينا قصيدة الأخطل الصغير إلا ونحن على أبعد مما عنى الشاعر:

أفـــســـحـــوا في مـــحـــفل الـــشـــعـــر لـــنـــا

نـــحن من لـــبـــنـــان من عـــلـــيـــا دنى

رحنا نضرب سهامهم على أهدافنا، ونحك جوهرهم على محكنا، وكم كان من أشواط بين مرامينا ومراميهم ولكم تفاكهنا على مطلع قصيدة أحدهم:

أبـــوغـــازي قـــضى فـــأقـــيم غـــازي

فـــأجـــزلـــنـــا الـــتـــهـــاني والـــتـــعـــازي

كلما جلست الى بشارة، تروح بي الذكريات الى أيامنا تلك فلا أزال حتى أتمثل قوله:

هـــكـــذا مـــهـــبط الـــنـــســـور وســـاد

من جـلال وقـــــــبـــــــة من طـلاسم

وتسير الركبان على حداء شاعرنا وتعم النعمى العالم الفني، ويرجع بشارة الى لبنان، ليجد السلطات المختصة قد انتقمت من مجلته – البرق – لأنه أظهر وجه لبنان الوضاح وأعلى اسمه الفني.

مجلة البرق، الولد الذي نماه، وغذاه من روحه وجوانحه ونشأ وإياه على مجاملة أين منها مجاملة الملوك، شب والبرق، وارتاح إليها، خادنها وآخاها ولما الربيع يكاد يزهر، جاء السيف فقطع الوداد وشطر الحياة فبقي بشارة كفاً مفردة،

ووتراً تكاد به الريشة.

تألم وأي نفس تنعم باللمسة المنقاة وتستحم بالأرج الإلهي المنور ولا تذوب شجى أو تحني ذاتا متى زوغان مئخاذ، واعتزاز على مهانة..

(البرق) ذهبت لأن كلمة حق صدرت عن شفاه استحلى الندى أن يكون قطرة طيب مع لهاثها.

ذهبت (البرق) لأن سيفاً من عندنا ظن به الفلول، فلما جرد كان للنصل بهر على العيون ورواح الى الكبود، فراحوا إليه على ثأر وثني، ولما لم يجدوا سوى - البرق - يشبعون منها غلهم - انقضوا عليها وأطفأوها..

ما هاون هذا الرجل ولا حابى ولا لان، ولئن ذهبت (البرق) فليبق شعره، فراح منسجماً مع المزايا التي صدرت مخلوقاً على مخلوق يستأنس بالفردوسي على بروق ورعود:

أدهى النصيحة ما يأتيك مرتديا
ثوب الصداقة تضليلاً وتمويها
ضننت بالذهب ابن الترب تمنعه
عنه وجاءك بالأفلاك يهديها
إن الملوك على العلات إن وعدت
فليس غير زوال الملك يثنيها
الله أكبر نفس الشاعر انفجرت
حمر القذائف لم تخطئ مراميها
رمى بها العرش فاصطكت قواعده
وطوقت جيد محمود أهاجيها
يا للعقوق أيبني مجد أمته
حتى إذا ساورت نفسا أمانيها
حتى إذا مد للألاء راحته

نــحــو الأريــكـــة عــضـــتـه أفـــاعـــيـــهـــا
فــارتـــد يـــلـــمس جـــنـــبـــيه أأنـــصُـــلـــهـــا
أهـــوت عـــلـــيه أم انـــقـــضت ضـــواريـــهـــا
أإن وفت أمـــــة يــــومـــــاً لـــــشــــاعـــــرهــــا
رمـــاه ســـافـــلـــهـــا عن قـــوس بـــاريـــهـــا
إذا أســــــاءت الى الآداب ممـــــــلـــــــكـــــــة
فـاصـبـر عـلـيـهـا فـقـد قـامت نـواعـيـهـا

لئن لم يلن أو يحاب، زمن الانتداب، أيطلب منه أن يفعل ذلك ولبنان يسترجع أمجاده؟. سنة ١٩٤٣، ولبنان يتسلم مقاليد الحكم ويعز على اقتدار، وقف بشارة الأخطل الصغير، يتطلع الى الأفق فلم ير برقا ولا لمعا، وانتظر وصبر، علهم يفكرون فيردون إليه بعض ما له من أياد عليهم، ويرجعون البرق الى الحياة، إن لم يكن إكراماً وعرفاناً بالجميل، فعلى الأقل، كي لا يقال: ذهب الوفاء من الجبل..

انتظر بشارة بادرة خير من رفاق – المنزل الخشن – الذين أصبحوا حكاماً للبلد اللبناني، وأبت عليه كرامته، ثم ضناً بكرامتهم، أن يذكرهم أو ينبههم، فتجاهلوا أمره، وبقي هو صابراً يضم ألمه الى سره، فقد آلفه وبات من جوانحه، حتى كان زوال الرفاق وقيام سواهم، فظن الناس أن بشارة سيثأر منهم بالتقرب الى سواهم، ناسين أنه ما تقرب ولا تودد، ولا ساير إلا الحق، وكانت قصيدة – تشرين – وكان صفحهُ عنهم – الرفاق الذين نسوه – أقتل لهم من الحكم عليهم:

يـــخـــضب الـــشـــوك من كـــفي ومن كـــبـــدي
دم عـــلـــيه جـــني الـــورد قـــد نـــفـــحـــا
ألـــبـــست تـــشـــرين مـــنه يـــوم مـــولـــده
ألا تـــراه بـــلـــون الـــورد مـــتـــشـــحـــا
عـــرس أهـــازيـــجه جـــمـــر وأكـــؤسه
يـــرويك مـــغـــتـــبـــقـــا مـــنـــهـــا ومـــصـــطـــبـــحـــا
أرزيـــة يـــعـــربـــيـــات شـــمـــائـــلـــهـــا

لـو قـبّـلت أبـكـمـا في ثـغـره فـصـحـا
لـــكـــنـه وطن فـــديت مـــهـــجـــتـه
بمـــهـــجــتـي نـــبــذ الأحـــرار واطـــرحـــا
ســقـــيت ريـــحـــانه من مـــدمـــعي ودمي
هـــذا إذا انـــهل أو هـــذا إذا ســـفـــحـــا
شـــطـــران قـــلـــبي، شـــطـــر لـــلـــمـــقـــيم به
عـــلى الـــوفـــاء وشـــطـــر لـــلـــذي نـــزحـــا
تـــشـــرين قل لـــلـــتـــشـــارين الـــتي ســـلـــفت
لـــنـــا عـــتـــاب ولا نـــرضـــاه إن جـــرحـــا
أســـمى وأكـــرم عـــفـــو أنت مـــانـــحـه
عـفـو الـذبـيـح عن الـسـيف الـذي ذبـحـا

خلال جميع أحاديثي مع الأخطل الصغير، وفي أضنى حالاته النفسية، وحتى إبان مرضه، لم ألحظ عليه يأساً مشلاً مثلي عندما كنت أذكره بالبرق وتلك الحقبة الدكناء الموجعة..

قال لي، ونحن على سمر، وكأني بالذكريات تتكاثف مجسدة ذاتها هنا وهناك في الزوايا وعلى المقاعد، قال لي: أعجب العجب في الناس، أنني أنا الذي ضحيت بكل ما أملك، والتفت الى البنايات الشامخة التي تحيط بداره والتي كان يملك أرضها، أنا بعت كل هذه الأملاك، بعتها كلها بأبخس الأثمان من أجل الإنسان الذي في صدري ومن أجل الكرامة التي صنتها لي وللآخرين، فلما يسروا وتربعوا على منصات الحكم تنكروا لي ضاربين بالقول عرض الحائط:

إن الـــكــــرام إذا مــــا أوســـــروا ذكـــــروا
من كـــان يـــألـــفـــهم في المـــنـــزل الخـــشن

حتى مجلتي ـ البرق ـ التي شغلت العالم الأدبي وكانت منبراً لأقلام العرب الحرة، من شعر وأدب، ضنوا علي بها، وماشوا أسياد الانتداب في تحريمها، لكن:

عـــجـــبـــاً لـــشـــاعـــر أمـــة حـــســـنـــاته
في جـــيـــدهـــا ويـــكـــافـــأ المـــتـــمـــلقُ
أنـــا لا أمنّ رضـــيت أني طـــيـــرهـــا الـــشـــا

دي وأني جـــفـــنـــهـــا المـــغـــرورق

نعم أنا لا أمن، إنما أشفق على هؤلاء، فالتاريخ لا يرحم، ولئن مروا على صفحاته فسيعلم الناس أيّنا الصدي.

أنا لا أمن، وحسبي ما قلته عندما تكرموا بدعوتي الى حفل من مآدبهم، ثم راحوا يسألون عن أوسمتي كما يفرضه قانون التشريفات:

أيــفــرضـــون عــلــى مــثــلـي ملابــســهم
ويــســألــون ثــيــابي عن نــيــاشــيــني
كــأنـــني لم أكن عـــنـــوان فـــخـــرهم
يــوم انــطلاق الــقــوافي في المــيــادين
إنـي لمن مـــعـــشــر لـــولا يـــراعـــتـــهم
مــا كـان لــبــنــان غــيــر المـاء و الــطــين

ما عرفت في هذا الرجل إلا الرجولة، كثيرون أخذوا عليه لدانة العود ولين الجانب، وآخرون حسبوا رقته ضعفا، حتى لقد ذهب بعضهم الى نعته بالشاعر البكّاء، وأصدروا كتيبا على هذه الناحية منه، أما عارفوه فمتأكدون من أن مماشاة عليا المثل وكمالها، هو أن تكون أنت كاملا وأن بشارة قد أصاب بقوله:

ومن الـــدمع مـــا يـــهـــزك لـــلـــعـــطف
ومـــــنه المـــــدمِّـــــرات الـــــهـــــوادم

لكنه لم يأبه بهم، لأنه لو راح يسود الصفحات على هؤلاء وأولئك داحضا مزاعمهم لتقززت نفسه وأصيب بالسهم الذي أرادوه له.

حسب بشارة أنه والعرب يسعون الى ذكرى شاعر النيل حافظ ابراهيم، والأعين شاخصة والأكف على الصدور، أن يكون هو الواحد الذي غنّى الموت جاعلاً منه عرسا:

عـــرس مـــاجت الـــبـــشـــائـــر فـــيه
وتـــوالت صـــبـــابـــة وعـــنـــاقـــا
واســـتـــثـــار الأرواح في الملأ الأعـــلى
فـــأتـــلـــعْن نـــحـــوه الأعـــنـــاقـــا

يـــتـــضـــاربن بـــالجـــوانح تـــزحـــامـــاً
ويمـــعن في الـــفـــضـــاء ســـيـــاقـــا
ومـــشى بـــالـــدنـــان حـــور وولـــدان
عـــــصـــــرن الخـــــدود والأحـــــداقـــــا
ونـــثـــرن الأزهـــار ممـــا كـــســـا الـــروض
وممـــا كـــســـا الـــقـــدود الـــرشـــاقـــا
وهـــززن الـــنـــهـــود من خـــلل الـــوشي
ولمـــلـــمن مـــا أحـــاط الـــســـاقـــا
فـــتـــغـــنى وشـــبب المـــتـــنـــبي
وتـــصـــابى الـــصـــابي أبـــو إســـحـــاقـــا
مـــرحـــبـــا روح حـــافظ دونك الخـــلـــد
عـــيـــونـــا وأكـــؤســـاً ورفـــاقـــا

قلت: اني عرفت بشارة الخوري على أبعد ما في المعرفة من حقائق، أما في عرس حافظ ابراهيم، فقد عرفه العالم على أبعد متاهات الفن الرفيع، وعرفه العرب على مطلق السماح:

مـا نـسـيـنـا لك الـقـصـائـد حـمـراً
يـوم عـاثـوا في المـشـرقـين شـقـاقـا
فـغـسـلتَ الجـراح بـالـسـلـسل الـعـذب
وصـــيَّـــرت كل خـــلـــف وفـــاقـــا
ودوى صـــوتك الـــنـــذيـــر بمـــصـــر
كـــمـــا رُعت حـــالمـــا فـــاســـتـــفـــاقـــا
أو كـــســـرب من الحـــمـــام نَـــهـــيكٍ
أثـــخَـــنْـــته يـــد الـــنـــوى إرهـــاقـــا
يـــزرع الـــريش في المـــفـــاوز جـــمـــراً
مـــثـل زرع الـــعـــواصف الأوراقـــا

كذا كان أمر بشارة مع الجماعة، ذهبوا بالبرق وتناسوا بشارة، ولما العياء واللهث

يكاد... رجعوا الى الواقع، وكان بشارة صناجة العرب، لا جودا ولا كرما منهم بل حاجة ماسة لا يأخذ بها ظن، أمرت وكان أمرها حكمة.

كنت وإياه والعصر يكاد يستقدم المساء، ونحن على وساوس، عندما جاءوه يتمنون عليه أن يمثل لبنان في ذكرى شوقي، فترجح بين القبول والرفض، قال لي: ما حيلتي مع هؤلاء، لئن بادلتهم ـ عواطفهم ـ أكون على شاكلتهم، وأنت تعلم ما يضمرون، إنما لبنان الآن في كفة ميزان، أضف الى ذلك صداقتي لشوقي، فهل أتخلى عن الأمر ضاربا بالمثل والصداقات والمكارم لأنهم هم..؟.

وذهب بشارة الى مصر، وحان موعد المهرجان قال لي: أحس بحمى في العظام وحمى في النفس أين منها حمى المتنبي، وهم يريدونني أن أكون على المنبر، آمنت بالجنة، ما أنا فاعل؟ قلت: لا بأس عليك، يجب أن تذهب، أنت لست لنفسك، أنت لست بشارة الخوري، الأخطل الصغير، أنت الآن لبنان:

أنت: زمن لا كلمة بل نطق كان لنا الأرجوان
زمن نطق ولا حرف كان لنا الحاضرات،
زمن نطق ولسان وحرف كان لنا العالم،

هل شهر سيف إلا ونحن على ذؤابتيه، هل كان لبنان لولا أفراد منه جذبوا الكل اليه فلما عمر بالكل نهد وكان.

لا، لا.. يجب أن تتجالد، وتذهب الى الحفل، لبنان له أوجه عديدة، أما الوجه الحق فوجه أبنائه البررة.

وتهافت الكبار، الأدباء والشعراء الى غرفة بشارة في الفندق، فارس باشا نمر، خليل مطران شاعر القطرين، إميل زيدان صاحب دار الهلال، وأصحاب الأهرام، وسواهم، كلهم هرعوا يفتقدون بشارة فالمهرجان قد ابتدأ والخطباء يتتالون على المنبر، وبشارة تحت وطأة الحمى...

ولما شاهدوه على حالته تلك، قالوا له يجب أن تذهب مهما كلف الأمر أنت الآن

لست صديقنا ولا حبيبنا، أنت نحن كلنا.. أنت لبنان.. وراحوا إليه بعضهم أحضر الدواء، وبعضهم ألبسه ثيابه، وحملوه حملا الى المنبر والشفاه على ابتهال والأيدي الى الأعالي كي تسمح له الحمى بالوقوف وإتمام رسالته..

في حفلة شوقي التأبينية، صفق النظارة ذلك أن لبنانيا هو الأخطل الصغير تناول السحر ورمى به العالم..

عرس كان مأتم حافظ ابراهيم على يدي بشارة أما مأتم شوقي فكان مهرجانا ذلك ان خالدا من عندنا شهد بالحق لشاعر، فحاز الشهادة وكانت له الجنة..

قال الملائكُ من هذا فقيل لهم
هذا هوى الشرق هذا ضوء ناظره
هذا الذي نظم الأرواح فانتظمت
عِقداً من الحب سِلك من خواطره
هذا الذي رفع الأهرام من أدب
وكان في تاجه أغلى جواهره
هذا الذي لمس الآلام فابتسمت
جراحها ثم ذابت في محاجره
كم في ثغور العذارى من بوارقه
وفي جفون اليتامى من مواطره

بعد ربع قرن من هذا الحدث الأدبي في دنيا العرب، يقوم شاعر سوداني اسمه طه ياسين ويخرج قصيدة بشارة الخوري في رثاء شوقي، أوبرا ويقدمها الى العالم.. قال لي بشارة، كم يبعد هذا الشاعر السوداني عن أولئك الذين أخذوا علي قولي في شوقي:

سألتنيه رثاء خذه من كبدي
لا يؤخذ الشيء إلا من مصادره

فقالوا لقد تاه بشارة على شوقي ودل، ومنَّ عليه، حتى في الرثاء، وهم لو عرفوا حديث ما وراء هذا البيت من الشعر لكفوا أنفسهم استنباط الأعذار والحوادث، وكم

يفهم الشعر متى عرفت ظروفه، دوافعه وممنعاته.

أنا لا أدلُّ ولا أمنّ على شوقي إنما هي حقيقة مرت في هذا البيت من الشعر..

كنت أخبرتك أنني تعرفت بمحمد عبدالوهاب في المأدبة التي أقامها في عاليه فخامة رئيس الجمهورية الأستاذ شارل دباس على شرف أحمد شوقي وكنت من المدعوين الى المأدبة.

وصلنا عاليه، وما كدنا ندخل القصر الجمهوري، حتى وجدنا أحمد شوقي تحت يدي الطبيب معصوب الرأس، أصفر الوجه، فعرفنا أنه وهو في طريقه الى عاليه تعرضت سيارته لحادث أدى الى بعض الرضوض والجراح..

وكنا مدعوين معا لتأبين فقيد سوريا آنذاك ـ فوزي الغزي ـ فلما رآني شوقي قال لي ما حرفيته: كنت يا بشارة حتقول مرثايتين... يعني مرثاة به وأخرى بفوزي الغزي، وبالطبع طيبنا خاطره، وبما أن الحادث كان بسيطا فقد جلس معنا على المائدة ثم ذهبنا سوية الى دمشق وألقى قصيدته المشهورة في فوزي الغزي.

✲✲✲✲✲

وتروح الأيام، وهدأة الشعر عند بشارة تكاد تتحول إلى قيلولة أو إغفاءة، ويتلفت العرب مفتقدين ركنا كبيراً لهم، فيحس عالمهم الأدبي بميلان من هنا وترجح من هناك، فقسطاط قد مال. وصداح قد مل الغناء فلا عندلة ولا ترجيع ولا شجو ولا سموط مرصعة ، ويرجع عالمنا مفتشا منقبا ليكون مهرجان الأخطل الصغير، وتتويجه أميرا للشعر.

في قاعة الأونيسكو، ووافدو الأقطار العربية يقولون في بشارة الخوري، عادت بي الذكريات ، لا سيما وأنا أستمع إلى شاعر العراق، محمد مهدي الجواهري، إلى يوم الزهاوي في بغداد، وقصيدة بشارة البائية، فالوزن ذاته والقافية ذاتها، إنما هنا

– حلقة أخرى من المقالة... المواسم ، أيار ١٩٦٦

الجواهري، وهناك الأخطل الصغير.

عادت بي الذكريات إلى يوم ذهب بشارة يحمل إلى بغداد أمجاد لبنان وفصاح لبنان وجمال لبنان في يوم صديقه الزهاوي، فرجعت إلى الأثر الذي تركه في النفوس. وإنني ما زلت أذكر ساعة قام رهط من المتأدبين الذين ساءهم أن يحلق بشارة إلى أجواء متى التفتوا إليها أصابهم خدر وبهر، فراحوا إلى عصمائه تلك ولما لم يجدوا فيها شفاء لسقمهم عابوا عليه قوله:

وتـلـفـتت زمـر الجـنـادب
من فـويـهـات الـثـقـوب
يـتـسـاءلـون من الـفـتى
الـعـربـي في الـزي الـغـريب

قالوا: ومن أين جاء بشارة بالجنادب إلى الصحراء، وقال بشارة: حسبنا الله ونعم الوكيل، لئن خلت الصحارى من جنادب فأين نجدها؟ أتريدني أن أنزل إلى مستواهم وهم من تعرف فتذكرت قوله في موقف كهذا:

ورب أخ رأى فـرحـاً بـذمـي
فـقـلـت رضـيـت ذمك لـو شـفـاكـا
أتـطـمـع أن تحـلـق لـلـثـريـا
فـتـطـفـأهـا عـدمت إذاً حـجـاكـا

قال لي الجواهري بعدما جاء ممثلا العراق في مهرجان بشارة الخوري، أنا ما قصدت معارضة قصيدة بشارة في الزهاوي، إنما وأنا في الطائرة الى لبنان، لم يجل في خاطري إلا هذه القصيدة، وزناً وقافية، وكم مانعت وكم حاولت طردها لحنا ونغما فبقي شجوها على مفاصلي، وكنت كلما تهالكت للانفلات من جوها علقني منها طيب وأخذتني نعم، وما زلت إلا وبين يدي هذان البيتان:

وأتـيـت لـبـنـانـاً بـجـا
نـحـتـين من ريح غـضـوب
مـثل المـسـيـح الى الـسـمـا
ءِ وقـد حـمـلـت عـلـى صـلـيب

عصر بشارة، الأخطل الصغير، دورة خيرة في مدار الدائرة النيرة التي من إشعاعها كان تحلي الزمن للتمني المتجسد أقنوما موحداً في انطلاق المكون نحو التكوين البديع..

مما يروى عن أحد كبار شعراء الفرنسيس، أظنه لامرتين، أنه وهو جالس على غزل مع إحداهن، أخذ التدله منها استيعاب النشوة فسألته في خفر وغنج لماذا تنبت لكم انتم الرجال لحى ولا تنبت لنا نحن النساء؟

أكاد أجزم أن الشاعر الكبير كان على رخاء ريق، غلبت فيه العبقرية حلاوة التلذذ فأجابها على انسراح: هذا لأننا رجال وأنتن نساء..

لما بويع بشارة الخوري بإمارة الشعر، راح بعضهم يتساءل، لماذا بويع؟ وآخرون قالوا بإنكار الإمارة في الشعر، فما أقرب هؤلاء وأولئك الى المحظيات، وما أحراهم بجواب الشاعر الفرنسي الكبير..

شعر بشارة، على لسان المفكرة الريفية، ثياب رعيان تفوح منه رائحة الحقل، بغوانيه، من قصعين ومردكوش الى النسرين والزئبق، وأحيانا تنبت اللحى على ذقون النساء.

يقول شكسبير، دع أصحاب الألقاب والرتب يفخرون ويتباهون بما ورثوه واتركني أنا قانعا بما جنته يداي، فأنا أحب وأحب ولا ينازعني في حبي منازع – الأخطل الصغير على تراثه الخير، يبقى على لسان شكسبير، راضيا قانعا بما جنته يداه وكم يصدق قول عمر بن أبي ربيعة على حال شاعرنا:

حسد حملنه من أجلها

وقديما كان في الناس الحسد

من يقل إن بشارة الخوري ليس إلا غزلا لعوبا بالكلام، يتجنى على الأرواح في مدارها، قلت له، يقولون إنك لا تبرع إلا الغزل وتسميط الألفاظ وأنك بكّاء، قال: سامحهم الله، هم لا يعلمون ما يقولون، فيوم طغى الطاغي علينا، وتأرجح شهداؤنا

على أعواد المشانق وأصبحت فلذاتنا على السابلة، من منهم جازف براحته – ولا أقول بحياته – وجابه الطاغية، أظنهم لم يقرأوا قصيدة (المهى أهدت اليها) ولا قصيدة (الريال المزيف) – ولا غيرها من ثائراتي. ثم عندما أرسلوا الجباة يروعون النساء والأطفال باسم جباية الضرائب المتأخرة، وكان لبناننا يرزح تحت أزمة خانقة من منهم تجرأ ونطق حرفا، ولا أقول كتب مقالا أو أنشد قصيدة تدور على حالتنا المزرية، وفي نكبة فلسطين هل استطاعوا اللحاق بغبار قولي:

سائل العلياء عنا والزمانا
هل خفرنا ذمة مذ عرفانا
المروءات التي عاشت بنا
لم تزل تجري سعيرا في دمانا
ضجت الصحراء تشكو عريها
فكسوناها زئيرا ودخانا
مذ سقيناها العلى من دمنا
أيقنت أن معدا قد نمانا
شرف للموت أن نطعمه
أنفساً جبارة تأبى الهوانا
وردة من دمنا في يده
لو أتى النار بها حالت دخانا

لئن أخذهم ما في شعري من شجو، فغابت عنهم ممنعاته، أيكون ذلك ذنبي، لاسيما وللحرف عندي نغم ولحن، وللكلمة إيقاع خاص تجعل من الشعر سمفونية متماسكة الأصوات.

لما أصدر ابن المقفع كتاب كليلة ودمنة استسهل الناس أسلوبه، ولما أرادوه امتنع عليهم في خفر ورقة وكبرياء، ولما استعصى أمره، دعوه (بالسهل الممتنع) بعد ثورة على صاحبه أوصلته الى الموت حرقا في أتون.

في القرن العشرين، وقد مضى على الوأد أجيال، عادت بعدها السهولة الى الكلمة وزها الامتناع والتدله، والغنج والرواء المياس على كبر التيه المستحب في

قشيب مطارف وتجرير أذيال، على ليونة انعطاف، فكان أن أرادها الناس لسلاسة روي وتحنان وتر في تنغم رخيم، فلما سهل عليهم السماع وعصى الوقع عادوا الى مالك والخمرة، وقالوا عن شعر بشارة الخوري، وترٌ بحّ على ريشة مكسال.

لم يأسف بشارة لشيء أسفه للتداول والتنابذ وأولئك – فكلما ألمحت إليهم، ونحن نتنادم الذكريات صمت، فقلت له ذات يوم، أنت مُلاعب أفعى ومراقص لنمر، إعجابك بقدرتك وانطلاقك، ولذتك المنجذبة الى تفاعل – الأنا – مع رخاء الروح، تفوق الخوف والرهبة، وللأرواح مدار ورضى، فكما تتقزز من القبح والنتن، كذلك يغور النغم على أنامل الحقارة.

قال أصبت وأخطأت معاً، فمن الخصال الذميمة عند بعض المتألهين في – عالمنا الأدبي والشعري – الذين لا تبتعد آفاقهم أكثر من مدى أنوفهم، أنهم بدلاً من رفع أخصامهم إلى أعلى مستوى ثم إظهار أنفسهم أعلى مرتبة من الأخصام يحاولون الحط من الآخرين، علهم يرتفعون هم، كأنهم لم يسمعوا قول عنترة:

ومدجج كره الكماة نزاله
لا ممعن هرباً ولا مستسلمِ
جادت له كفي بعاجل طعنة
بمثقف صدق الكعوب مقوّم

من المشارق والمغارب يأتون الى أحضان (ابراهيم) وفي أعراس الشعر خلال جيل كامل جلاه وافدنا على مرايا صقيلات، لم يرتفع صوت على صوتنا ولا شاعر على شاعرنا فكان لأمين نخله أن يقول عن حق، في مهرجان الأخطل الصغير.

فارفع الصوت إنه صوت
لبنان وردد به ونعم الجهير

لكل ثورة، شهداء، بعضهم يطوب وأكثرهم يزج بهم جماعات في حفرة يكتبون على حجارتها هنا يرقد جندي مجهول، والثورة الأدبية التي شملت البلاد العربية

سألت التطويب لذاتها ومنعته عن شهدائها، فلما استعلت الشهادة على الذات، ولا يأتي ذلك الأغرار في جبين الأدهار، كان بشارة الخوري، رسولنا الخير، علامتنا الدامغة على الأعصر، هو الذي جعل الذات أن تكون امتدادا لعصر وإكمالاً لرسالة في مصر، زمن حافظ ابراهيم وفي دمشق زمن فوزي الغزي، وفي بغداد زمن فيصلها وزهاويها، كان بشارة أمينا على قوله:

أنـــا دمـــعـــة الأدب الـــكـــئـــيب

رســـالـــة الـــشـــعـــر المـــذيب

وهو على غياض بردى، زمن راق النغم ورق، وتثنى الغصن مياسا على بوحة النهر وتهليل الضياء.

سل عن قـــديم هـــواي هـــذا الـــوادي

هل كـــان يـــخـــفق فـــيه غـــيـــر فـــؤادي

ولما عزت النفوس في دمشق على تالد وتليد نشوى إحلال أحلامها موضع اليقين، وجرى مع بردى صداح كادت تروح به الأعصر كان بشارة على عهدنا به:

بـــردى نـــظـــمت لـــنـــا الـــزمـــان قـــصـــائـــدا

بـــيـــضـــاً وحـــمـــراً من نـــدى وصـــفـــاح

أما في لبنان، فهل ترك بشارة يوما ولم يؤرخه ممهورا بقلائد حسبها أنها على الشفاه تدور مع اللمى وفي الخاطر ما حلمت به الخواطر حتى تتجسد حقيقة.

✡✡✡✡

نشء لـــبـــنـــان هـــذه رايـــة الأرز

فـــإمـــا الـــفـــداء بـــالـــنـــفس أو... لا

قم نـــخـــشن مـــنـــا الـــيـــدين فلا

نـــحـــصـــد حـــقلا إلاّ ونـــزرع حـــقلا

– حلقة أخيرة من المقال... المواسم ، حزيران ١٩٦٦

الأكف الـــلـــدان من شـــغف الـــغـــيـــد
فـــحـــدد مـــنـــهن لـــلـــحق نـــصلا
شـــقـــيت أمـــة إذا المجـــد نـــاداهـــا
تـــلـــوَّت عـــلى الأســـرَّة كـــســـلى
أي فـــتـــى الأرز هب نـــســـتـــبق
الـــفـــجـــر بـــفـــجـــرٍ من نـــاظـــريك أطلاً
اغل مـــهـــر الـــعـــلى إذا كـــنت شـــهـــمـــاً
هـــان من نـــام في الـــطـــريق وذلا

لما أحلت هيلانة نفسها الى باريس، وزهت أطيابه مشواقة رغائب، أهدى إليها ثوبا لبناني الصنع، كانت زواهيه المغرية هي التي حملت الملكة على ترك كل ما في بلادها من مشوقات والالتحاق بفاتنها...

ووافد من عندنا، يبتهل الملهم لو استطاع أناقته، ولطافته، أحل الوئام محل السيف، وكان أن اجتمعت سجايا عريقة الأصل على أنمل لو زفت العود لغنى وصبا وحدث على استلهام.

لم يكن شعر الأخطل الصغير لونا واحدا بل ألوان متعددة، اجتمعت على تألق راح به بشارة الى معامي الخوافي يفتق عنها الطلاسم ليزفها الى الشعر مزهوة الرواء، في برود من تماوج ألوانها عمرت دنيانا بما لم يحلم به شفق أو تغنه صوادح على سوحة عطر وافترار صباح:

أنـــا في شـــمـــال الحب قـــلب خـــافق
وعـــلى يمـــين الحق طـــيـــر شـــادي
غـــنـــيت لـــلـــشـــرق الجـــريح وفي يـــدي
مـــا في ســـمـــاء الـــشـــرق من أمـــجـــاد

لو أنصف النقاد بشارة، لقالوا عنه عاد عمر بن أبي ربيعة، كما قال نقاد الفرنسيس من قبل في شكري غانم، عاد راسين الى الحياة، وكفاه قصيدته – عمر ونعم – أن يكون ذلك الغزل:

قل لي بـــنـــعم وبـــأتـــراب لـــهـــا
يـلــعــبن مـا شـاء الـصـبـا والأشــرُ
لـــيـــلـــة ذي دَوْران هل كـــانت كـــمـــا
حـــدثـت أم أخـــيـــلـــة وصـــور
ونـــعم هل كـــانت كـــمـــا صـــورت أم
بـــالغ في تـــلـــويـــنـــهـــا المـــصـــور
وذلـك المجــن مـــــا أوهـــــنـه
يـــكـــاد من رقـــتـه يـــنـــتـــثــــر
يـــا لـــلـــمـــنى أعن يمـــين كـــاعب
وعن شـــمـــال كـــاعب ومـــعـــصـــر
فـــمن هـــنـــا حـــيث تـــنـــدى الـــزهـــر
ومن هـــنـــا حـــيث تـــدلى الـــثـــمـــر
وأنت لا تـــألـــو دعـــابـــا في الـــهـــوى
شم وتـــقـــبـــيل وأشـــيـــا أُخـــرُ

قلت له عمرت الدنيا بشعرك وعطرت أجواء العرب، فكيف أنت والناس اليوم؟ قال وماذا يبتغي الشعراء مني، وماذا أبتغي بعد الذي حزته؟ أما الماديات فهل التفت إليها في أشد الأزمات وأدهى النوائب حتى ألتفت إليها الآن؟ ألم أقل:

أنـــا لا أمنٌّ رضـــيـت أني طـــيـــرهـــا
الـــشـــادي وأني جـــفـــنـــهـــا المـــغـــرورق

أنا لا أمنّ، كفاني ثروتي الأدبية، وراح الى أدراج مكتبه يقلب رسائل كبار أدباء العرب إليه، فكنت وكأني أعيش حياة هؤلاء العباقرة الخالدين مجسدة في هذا الرجل، فأنظر اليهم وأنشق فواغيهم من خلال شعره:

لا تـــقل خـــانت الـــقـــوافي فـــحـــسب
الـشـعـر مـنـهـا أبـيـاتـهـا المـعـدوده
يـــتـــهـــادين في غلائل كـــالـــورد
ويـــهـــبـــطن من ســـمـــاء بـــعـــيـــده
شـــهـــد الـــله مـــا لمـــسن جـــبـــيـــنـــاً

الشاعر بشارة الخوري

الأب رفائيل نخلة اليسوعي

ليس من يجهل بشارة الخوري – الأخطل الصغير من الواقفين على تطور قريضنا العصري، ولو لم تظللهم سماء لبنانه الصافية الزرقة والشفافة الضياء في أكثر الأحيان، فقد انتشرت قصائده في كثير من صحف العالم العربي ومهاجره، وظهر له ديوانان، «الهوى والشباب» سنة ١٩٥٣، و «شعر الأخطل الصغير» سنة ١٩٦١ .

قلما عالج فلسفة الحياة، بيد أنه يجاهر في شأنها بآراء مادية محضة، يتحذلق مدعيا أن العقل البشري عاجز كل العجز عن تأكيد وجود إله قيوم، لامتناهي القدرة قد أخرج من العدم جميع الخلائق الروحية والمادية، فيقول عن الكون الشاهد بربوات بدائعه على كمال بارئها، الفائق اسمى العقول:

سمّه الضفة التي يعبر الأحـ
ـياء منها، أو سمِّ ذلك جسرا
سمِّه المصنع الذي يفعل التحـ
ـليل في جوفه عجائب كبرى
يتلقى الأجسام، وهي جماد
ثم يعطيكها حياة وفكرا
سمِّه الهازئ العظيم، إذا را
قك، أو سمِّه، إذا شئت، قبرا

....

تالله ما معنى الوجود، وحكمه
حكم الفناء، وأمره لنفادِ

■ المشرق، تموز ١٩٦٦، سنة ٦٠، ج٤–٥.

إلا مــشــقـــات الــطـــريق الى الـــثـــرى،

بــــين الأسى وتــــفــــتت الأكــــبــــاد؟

في قصائد أخرى يترنم بعظمة الله، بل يسجد لها :

ربِّ، إن الــكـــون، مـــهـــمـــا عـــظُـــمـــا

هـــو في عـــيـــنـــيك لا يُـــحـــسبُ شيْ

قـــدرةٌ ذلت لـــديـــهـــا الـــعُـــظـــمـــا

كـــلـــهم فـــانٍ، وســـبـــحـــانك حي!

بيد أنه، في القصيدة ذاتها، يعدّ الله تعالى مسؤولا عن جرائم البشر، ولاسيما سفكهم دماء ملايين إخوتهم في الحروب الضروس المتواترة، فتبلغ وقاحته حد طلبه من مولاه السامي الحكمة، أن يلاشي القمرين ويستأصل أبناء آدم برمتهم :

ربِّ، قل لـــلـــجـــوع يـــصـــبح شـــبـــعـــا،

وانـــقـــذ الـــطـــهـــر الـــذي قـــدســـته

أو مُـــر الـــفـــسق فـــيـــغـــدو ورعـــاً

....

إلى آخر الأبيات.

لا غرو من ماديته البادية في بعض منظوماته، والمستشفة في غيرها، ولا من قلة احترامه لله تعالى، فإنه قد ألّه المرأة كل التأليه، فوقف على عبادتها جل أفكاره وخيالاته وعواطفه، ونظم في وصف محاسنها الفتانة معظم قصائده، ومازال متيما بها في شيخوخته كما كان في كهولته، بل في عنفوان شبابه. كثيرا ما نراه، في شعره الغزلي، يهذي هذيانا، لا معنى له على الإطلاق إلا في عقله المصاب بالجنون الجنسي. هاكم عدة أمثلة على ذلك اللغو المستهجن :

فـــتن الجـــمـــال وثـــورة الأقـــداح

صـــبـــغت أســـاطـــير الـــهـــوى بـــجـــراحي

ولـد الـهـوى والخـمـر لـيـلـة مـولـدي

وسـيـحـملان مـعي عـلى ألـواحـي

☆☆☆☆☆

أنـا طـيف من خـيـالات الـلـيـالي

من صـدى الـوادي ومن هـمس الـدوالي

كم عـلى الـصـحـراء وشي من خـيـالي

وعـلى الـبـحـر يـتـيـمـاتي الـغـوالي

....

منهما صغت حلاك، ومنى النفس رضاك؛ أنا والشعر فداك

....

لم يـشُـقـني يـوم الـقـيـامـة لـولا

أمـلي أنـني هـنـاك أراهـا!

وأيم الحق إن من المضحكات المبكيات زعمه الكفري أن أهل السماء المسحورين على الدوام بجمال الله المتجلي لهم، يتنازلون فيصغون الى شكوى غرامه، ويشاطرونه الهيام بأصنامه ! لم يأنف عابد النساء من التصريح بأن تلك العبادة السافلة كل السفالة في نظر كل إنسان عاقل شريف، هي دين الحق، بل دين الأبد :

يـا لـهـا الـلـه أُويـقـات الـصـبـا

من أُويـقـات لـهـا عـنـدي يـد

مـعـبـداً قـامت عـلى دين الـهـوى

....

بجانب ذلك الغزل الإباحي المحض، الفاحش التطرف في الكيفية والكمية، نجد عدداً قليلاً من الروايات الجميلة .منها «آتيلا والشاعر»، يصور لنا فيها بشارة ذلك الفاتح الطاغية، القتول والهدام، تصويرا حسن الإيجاز، قائلا إنه لم يكن «سوى نقمة

الله وسيف الغضب، ملأ الأيام هولا ودما !» أتاه ذات يوم شاعر من الرومان يتزلف اليه بتعظيمه وتمليقه، فاستاء الجبار من مينه وفرط تذلله .

قــال اتــيلا: «اجــمــعــوا لي حــطــبــا
واربــطــوا من فــوقه هــذا الــغــبي ...
«ويك !» نــــاداه، «لــــئن تـــرجع الى الـ
ــــكــذب، أحـــرقك جـــزاء الــكـــذب !»
لـــو بُـــلــيــنــا بــآتــيلا ســاعـــة،
لــشــكــونــا من نــفــاد الحــطب !

فــي ذلك البيت الأخير مــا فيه مــن الاستهزاء المضمــر اللاذع بقوم مـن بنـي الشرق العربي، قد بالغوا في تعفير وجوههم أمام العظماء استعطاءً لآلائهم وطمعا بحمايتهم.

قد أجاد كذلك الأخطل الصغير في «سقوط السلطان عبد الحميد الثاني»، بعد وصف بعض مظاهر ظلم هذا العاهل المستبد لرعاياه، وهبوطه الفجائي من أوج العز الى مهواة الذل والأسر، يخاطبه الشاعر بهذه اللهجة البليغة :

كـنت تُـبـكي، فـصـرت تَـبـكي، وعــهـدي
بك، عــبــد الحــمــيــد، غــيــر بــعــيــد!
يـــا لـــيـــالـــيه في سلانـــيك، قـــولي
لـــلـــيـــالي في يـــلـــدز: «لن تـــعـــودي!»
يــا لــيــالــيـــه، لا تـــريه ضـــحـــايـــاه،
فـــتـــعـــروه رعـــشـــة الـــرعـــديـــد!
وارحـــمـــيه، فـــالـــشـــيخ هـــاوٍ، ومـــا
لـــلـــشـــيخ طـــاقـــة عـــلـى الـــتـــســهـــيـد

كـــان بـــالأمس، والـــرعـــايـــا عـــبـــيـــد،
فــغــدا الــيــوم صــاغــرا لــلــعــبــيــد!

رواية «عروة وعفراء» جديرة بأن تعد من فرائد شعرنا القصصي الحديث، موضوعها أن الفتى عروة قد وعده عمه وعداً كاذباً بأن يزوجه ببنته عفراء، وإنما سبب تلك المخاتلة فقر الشاب، وكان هذا قد خالط عفراء منذ طفولته، فهام بها هياما عذريا.ثم أراد عمه إبعاده حتى يعقد لسليلته قرانا آخر، فأشار على عروة بالسفر الى الشام سعيا وراء تجارة رابحة، وانتهز فرصة غيابه لاختيار زوج آخر لعفراء، وهو «اثالة» الوافر الثروة، بلغ عروة ذلك النبأ الفاجع، فطارت نفسه شعاعا، بل كان هول تلك المصيبة سبب موته العاجل .فاستأذنت عفراء بعلها في أن تحج قبر ابن عمها ورفيق صباها ومحبوبها الوحيد، فنزل عند رغبتها. يقول بشارة في ختام تلك الرواية الشعرية:

....

فـــمـــا هي غـــيـــر بـــعـض ثـــوانٍ
حـــتـى رأيت بـــقـــبـــر عـــروة بـــانـــةً
مـــحـــنـــيـــة - وا لـــهـــفـــتـــا لـــلـــبـــان -
وســـمـــعـت أيـــة زفـــرة وشـــهـــدت أيـ
ـــة ثـــورة ولمـــست أي حـــنـــان!
«وا عـــروتـــاه!» ولـم تـــتـم نـــداءهـــا
حـــتى ارتـــمت، فـــإذا هـــنـــا مـــيْـــتـــان؛
ضـمـوا الـفـتـاة الى الـفـتـى في حـفـرة،
من فـــوقـــهـــا غـــصـــنـــان مـــلـــتـــفـــان!
روحـان ضـمـهـمـا الـهـوى فـتـعـانـقـا
وتـــعـــاهـــدا، فـــتـــعـــانق الـــكـــفـــنـــان

«الريال المزيف» آخر مثال نذكره من ذلك النوع الروائي. يقص علينا بشارة في تلك القصيدة حادثا أليماً جرى في وطنه لبنان، إبان الحرب العالمية الأولى. امرأة تركها زوجها في الفقر المدقع وانضوى الى الجيش، وكانت لها طفلة كاد المرض يوردها

حتفها، وقد حال إملاق أمها دون شراء الأدوية اللازمة. ثم سام عرضها نذل رآها في ذلك الموقف الحرج غنيمة باردة بين يديه، فأوهمها الشيطان الرجيم وحنانها الوالدي سواغ الانقياد لذلك المجرم الوغد، فسقطت في حباله. بعد قضائه نهمته فيها أرادت تخفيف آلام بنتها بالريال الذي باعت به ماء وجهها، فإذا هو زائف ؛ فيالمرارة خيبتها، وقد زادت فدح عارها ! هي رواية حادث مبتذل، قد شاهد الملوان آلافا مؤلفة من أمثاله، على أن قريحة الشاعر قد صاغت به قصيدة رائعة بإجادة الوصف وبكثرة الخيالات الجديدة ؛ دونكم أبياتها الأولى:

ويح الفقير ! فما تُراه يلاقي ؟
سُدت عليه منافذ الأرزاقِ!
عصفت به وبسربه ريح الشقا
فتساقطوا كتساقط الأوراق!
فإذا بصُرت به، عجبت لشمعة
كالزعفران تجول في الأسواق!
علَقُ المجاعة مص نصف دمائه
وتعسف الحُكام مص الباقي!
أخذ الشقا يدها، فسارت خلفه،
والليل ممدود على الآفاق
سارت فماس الخيزران بقدها
ورنت فذاب السحر في الأحداق !
وتلوح آثار النعيم بخدها
كالفجر قبل تكامل الإشراق !

الشعر الوصفي المحض قليل جداً تحت يراع بشارة ؛ هاكم أجمل أبياته على شاب مسلول :

عيناه عالقتان في نفَق
كسراج كوخ نصف متقدِ ...

تــهــتــز أنمــلــهُ فــتــحــســبــهــا
ورق الخــريف أُصــيب بــالــبــرد...
يمــشي لــعــلــتــه عــلــى مــهَــل
فــكــأنه يمــشي عــلــى قــصَــد
ويمجّ أحــيــانــا دمــاً، فــعــلــى
مــنــديــلــه قــطعٌ من الــكــبــد ! ...
قــطع تــقــول لــه «تــمــوت غــداً»
وإذا تــرقّ، تــقــول «بــعــد غــد» !
والمــوت أرحم زائــر لــفــتــى
مــتــزمل بــالــداء مــغــتــمــد !

لقد أجاد أيضًا وصف المهاجر ؛ يخاطبه قائلا :

أشــجَــاك أنك رائح، لا تــرجعُ
وهــواك والأوطــان بــعــدك بــلــقعُ ؟
مــتــلــفتٌ ؛ مــا تــبــتــغي ؟ مــتــوجع
مــا تــشــتــكي ؟ مــتــنــصت ؛ مــا تــسمع ؟
تــلــك الــزغــالــيل الــتي غــادرتــهــا
جف الــثــديّ ومــات عــنــهــا المــرضع !
لا الــريش مــكــتــمل، ولا أوكــارهــا
خُــضــر، ولا الــسجع الــبــكيّ يــشــفَّع !
ولــكــنت تــســفك نــاظــريك لــيــرتــووا
وتــذيب قــلــبك في يــديــك لــيــشــبــعــوا !
جــرس الــكــنــيــســة، لــو تــكــلم، لاشــتــكى
ولــبــــان فــيــه، مــذ نــأيت، تــصــدع !...
الجــوزة الخــضــراء بــعــدك صُــوحت
إلا وُريــقــات تــكــاد تــودع

تفضي الى النسمات في غدواتها
عما تكابد في نواك وتجرع
لو في الألى خذلوك بعض حنانها،
لتقصفت جزعاً عليك الأضلع !...
لله انت مغرّباً ومشرقاً،
تذريك عاصفة وأخرى تزرع
حتى اندفعتَ، فكل صخر روضة -
سلمت يداك - وكل أفق مطلع
وفتحت فتح العبقرية تاركاً
في مسمع الدنيا صدى يترجع !

قال في وصف رزايا الحرب :

كم شموس في سما الماضي وكم
من نجوم في سما المستقبل
ويتيمات فنون جمة
حُسبت من معجزات الأول
فإذا تلك انطفت شعلتها
وإذا هذي كبالي طلل
ولكم روضة بيت ذبلت
وهي لولا حرها لم تذبل !
وفتاة طفلة قد سألت
أمها : «أين أبي لم يُقبل
فلقد طالت بنا غيبته
وأنا اشتقت لتلك القُبل ؟»

قد أجاد بشارة في بضع قصائد صوغ الشعر الوطني، ولاسيما في نشيد لبنان ذي الوزن السريع كخطى جيش حامل على العدو، أو كصيحات عالية متتابعة مثل قصفات الرعود، ملتهبة بنار الحماسة، ملؤها الافتخار بمجد لبنان والغيرة على الذود عن حماه، إليكم لازمته ودورين منه :

لـبـنـانْ ، لـبـنـانْ !
حـرَم الأرز ، عـلَم المجـد ، وطن الأحـرارْ
سـلامْ !
الجـمـال رصّـعـا
بـأزاهـيـرٍ رُبـاكْ
والجـلال تـوجـا
بمـصـابـيح هـداك !
والـيـراع والحـسـامْ
في المـلـمـات الجـسـامْ
كـل آنْ، كـل آنْ
ذائـدان عـن عُـلاكْ
حـارسـان لـلـواكْ
نـحن في الـسـلم ابـتـسـامْ
وصـفـاء ووفـاءْ
وأكـفّ مـن غـمـامْ
ووجـوه مـن حـيـاءْ
وإذا دق الـنـفـيـرْ
نمـلأ الـغـاب زئـيـرْ
وحـديـداً ودخـانْ !
مـات مـن رام أذاكْ
عـاش مـن مـات فـداكْ !

رثى لشقاء مئات قُرى لبنانية غادرها كثير من أهاليها، طمعاً بمكسب أوفر في المدن، فحثهم بأبيات جميلة على العودة الى ضياعهم واستغلال مواردها:

عـــودوا الى تـــلك الـــقـــرى، فـــلـــقـــد
ســـلـــخـــتـــكمُ عن قـــلـــبـــهـــا المـــدنُ
لا الحـــقل يـــبـــسم عن مـــعـــاولـــكم
فـــــيه، ولا تـــــتـــــرنم المـــــهن
ذوت الـــــريـــــاض، ومـــــاؤكم عـــــممٌ
وتـــعـــطـــلت من حَـــلـــيـــهـــا الـــقُـــنن
مـــحـــراثـــكم صـــدىء الحـــديـــد به
والـــفـــأس ملء عـــيـــونـــهـــا الـــوسن
وخـــوت زرائـــبـــكم ، وكـــان عـــلى
جـــنـــبـــاتـــهـــا يـــتـــدفق الـــلـــبن
خـــلت المـــرابط من ســـوابـــقـــهـــا
وتـــثـــاءبت بـــحـــبـــالـــهـــا الأتن
عـــودوا الى تـــلك الـــقـــرى، فـــعـــلى
بـــســـمـــاتـــهـــا يـــتـــمـــزق الحـــزَن!

سنة ١٩٣٥ كان أهل ضياع لبنان في ضيق شديد، وقد تفاقمت تباريحه بقسر الجباة إياهم على دفع بقية الضرائب، فألهم ذلك الخطب الفادح بشارة قصيدة «الجابي» التي نعدها من أحسن قصائده ؛ هاكم بعض أبياتها:

إلـــــــــهـي، أي دهـــــــــيـــــــاءٍ
يـــــردّي مـــــثـــــلـــــهـــــا مـــــثـــــلي
ويـــــشـــــكـــــو فـــــقـــــرَه قـــــبـــــوي
ويـــــشـــــكـــــو مـــــحْـــــلَه حـــــقـــــلي
وشـــــــاتي، وهـي أم الـــــــبـــــــيت،
يـــــشـــــكـــــو ضـــــرعـــــهـــــا طـــــفـــــلي!

رويـــداً، يـــا أخـــا الـــهـــيـــجـــاء،
قـــــد أســـــرفت في الـــــقـــــتل!
ألا تُـــــبـــــقي عـــــلى شيء ؟
فـــــمن يـــــحـــــيـــــا بـلا أكل؟
كـــــفـــــانـــــا أنـــــنـــــا نمـــــشي
مـن الـــــبـــــؤس بـلا نـــــعـل
وأنّـــــا نمـــــضغ المـــــوتـــــين
مـــن ظـــــــــلـــم ومـــن ذل!
فـــــمن أغـــــرى الـــــرزايـــــا بي،
ومـن أنـت ؟ - أنـــــا الجـــــابي

قد ثارت وطنيته أشد ثوراتها حين شاهد في أربعة أعوام الحرب العالمية الأولى، الجوع الهائل، الذي قصد به الأتراك استئصال أهالي قرى لبنان، يفتك فتكًا متواصلاً بربوات منهم، فقال بقلب جريح :

أعـــشق الـــلـــيل، ومـــا لي والـــضـــحى ؟
عـــشتَ، يـــا لـــيل، ألا فـــانـــســـدلِ!
انـــسَـدِلْ تحـــجبْ عن الـــطـــرف الـــشـــقـــا ؛
يـــا لـــطـــرف بـــالـــشـــقـــا مـــكـــتـــحـل
لا يـــرى ، إذ تـــطـــلـع الـــشـــمس، ســـوى
ســـــائل أو عـــــاجـــــز أو وكـــــل
عـــصف الـــفـــقـــر بـــهم ، فـــانـــتـــشـــروا
كـــانـــتـــشـــار الـــوابىء المـــســـتـــفـــحل!
يـــلـــهـــمـــون الـــعـــشب من جـــوعـــهم ؛
ويـــحـــهم ؟ مـــا تـــركـــوا لـــلـــهـــمـل؟
بـــجـــســـومٍ هُـــزّل تحـــمـــلـــهـــا
بـــعـــيـــاءٍ واهـــيـــات الأرجل

ووجـــــوه كـــــتب المـــــوت عــــلى
صــفــحــتــيــهــا «هــذه الأوجه لي» !
صـــدق المـــوت بمـــا قـــد قـــالـــه ؛
مـــا تـــرى أشلاءهم في الـــسُـــبل ؟

لم يتمالك بشارة عن الاقتداء بمعظم شعرائنا المعاصرين، في نظم قصائد المدح والرثاء عند سنوح الفُرص، وهي أكثر من أن تُعد في الشرق العربي .

والحال أن كل خبير في كنه القريض وسمو غايته، يعلم علم اليقين أنه بعيد عن المدح والرثاء بُعد الثريا عن الثرى، إلا في بعض الظروف النادرة التي يفيضان فيها عفواً من أعماق فؤاد الشاعر، لا من شفتيه أو أسلة قلمه فقط .

من أمثال فساد ذوق الأخطل الصغير في تبجيل العظماء، قصيدته للترحيب بملك العراق الطفل، فيصل الثاني، عند قدومه الى لبنان سنة ١٩٣٩ . في البيت الثاني منها يخاطب سيادة الضيف الجليل، صائحاً بها، وهو لا يأبه لتكلفه المضحك :

يـــا ســلـــيل الـــبـــخـــار ، كم من فـــؤاد
ود لـــو كـــان بـــين جـــنـــبـــيك وقـــدا !

ثم يتطرق بمثل ذلك التصنع الى ذكر النكبة التي أودت بحياة والد فيصل الثاني، وهو راكب سيارته في إحدى ليالي نيسان سنة ١٩٣٩ :

يـــــا ابـن من أذهـل الـــــنـــــجـــــوم إذ
انــقضّ شــهــابــاً عــلـى الــثـرى وتـردّى
مـا نـسـيـنـا جـرحـاً عـلـى الـلـيل، أمـست
فـحـمـة الـلـيل مـنه جـمـراً ونـدا !
قـــطـــعت شـــعـــرهـــا الـــكـــواكب كي
تـــمـــسح جُـــرحـــاً وكي تـــوسّــد خـــدا
وانـــحـــنت كل نـــخـــلـــة كـــجـــنـــاح
أخـــضـــر الـــريش، ودّ لـــو كـــان زنـــدا

نجد ذلك العيب ذاته في رثاء بشارة لوديع عقل :

العبقرية، ما حييتَ، جناية،
فخُذ الذمام لها من الإلحاد
تمشي على حسك الصدور وشوكها
وتُلف بعد الموت بالأوراد !...
أيُقام وزنٌ للبيان، وقد رمى
سهم المنية منه قلب الضاد
فتقطعت مُهج وفاضت أعين
رمت الخدودَ بكل أوطف صاد
مطرٌ كما انتثر الجمان على اللظى
وتكسّر البلّور في الأجياد!

لا نرى مثل تلك المغامز في رثائه لنصير المرأة الشهير مختار بيهم. نعلل ذلك بكون الشاعر قد أخرج ذلك الرثاء من فؤاد مفعم بأحر عواطف الإجلال والمحبة للفقيد العزيز، فأتت قصيدته مضطرمة بلهيب شعوره، مزدانة بحُلى الابتكار الطبيعي ولاسيما إذ يندب بيهم قائلا عنه :

الذي كان خادماً لبلادهْ،
الذي كان جذوةً تتوقدْ
الذي كان صافياً كالغدير
الذي كان ماضياً كالمهنَّدْ !

☆☆☆☆☆

الهميني، يا ربة الشعر، شعراً
كالنور والنارْ،
كالهوا، كالأطيار، كالفكر حُراً،
كنفس مختار!

كـــالأعـــاصـــيـــر ، إن دعـــتـه الـــبلادُ

وخـــافت الــــعـــار

كـــالأزاهـــيـــر، إن دعــــاه الـــودادُ

وحُـــــرمـــة الجـــار

قد أطلنا الكلام في تحليل معاني شعر الأخطل الصغير، مع التمييز بين غثها وسمينها. أما لغته، فليست خالية من الأخطاء الجسيمة، كاستعمال جوانح بمعنى أجنحة، ووديان بدلا من أودية، وقوله «الجحيم الأعظم» مع أن ذلك الموصوف مؤنث، وإتباعه بعض الأفعال المتعدية باء الجر :

«أرادوا بأن أكون العريس»، «لا تنسي بأن تستري ذلك الجبين»

من جهة أخرى تكثر في شعره الكلمات المماتة التي يمجها كل ذي ذوق سليم . الوضوح ناقص جداً في مئات من أبياته، فهي ألغاز غامضة. نضرب لكم مثلاً على ذلك، وهو حفنة من كثيب :

لـنـا الـكـروم ؛ فـهل في الـقـول من حـرج

إذا سـألـنـاهمُ «اين الـعـنـاقـيـدُ»؟

ولا سلاح سـوى الـوعـد الـذي قـطـعـوا،

تـفـنى الحـيـاة ولا تـفـنى المـواعـيـد

لا ننكر أن لبشارة نزعة شديدة الى ابتكار الخيالات، وقد ابتدع منها عدداً لا يستهان به، هاكم باقة بهيجة منها :

فـيـصـوغ هـيـنـمـة الـنـسـيم قـصـائـداً،

ويـــردّ زمـــزمـــة الــــغـــديـــر أغـــاني

....

ضـــرب الجـــوعُ بـــصـــمـــصـــام رهـــيفْ،

فـــــإذا قـــــتلاه ملء الــــــسُـــــبلِ

«هلال الأفق في حضن المغيب»، «تلبسون خوذة الإقدام»، «فتى كاسي الغنى عارٍ من الأخلاق»، «ترعى السفالة في مجاهل قلبه»، «أيها الفقر، إن كنت قوّاد الزنى ...»، «شعاع الشمس يضحك لي»، «قسمتُ فؤادي بين بؤسي والهوى»، «زحم الصبحُ الظلام»، «آمال مجنّحة» .

بيد أن التكلف المستهجن في الخيالات أكثر جداً من ابتكارها. يسهل علينا إثبات ذلك الرأي بمئات الأمثال، بيد أن ضيق المجال يضطرنا الى الاكتفاء بذكر هذه:

«سكرَ الروض سكرةً صرعته
عند مجرى العبير من نهديك»

☆☆☆☆☆

«أنا في شمال الحب قلب خافقٌ،
وعلى يمين الحق طيرٌ شادِ»

«الله برى ريشة من جناح الملاك، وغمسها بفؤاد الصباح»، «أكاد أمشي بلا رأس»، «تختال فاطمة على خدود رياض لبنان»، «استلني الشقاء حساماً في نهاري، وصيّر الليل غمدي»، «رآها الليل فاختار المقام في شعرها»، «ساعدٌ من الضحى مفتول، تغمره بالقُبل الحقول»، «قلبي فاغرٌ فمه للحب»، «براعم الأقلام لم تتفتق»، «يكسو الجراحَ افتراراً»، «يا قامة (قامة فتاة) من قصب السُكر رخص العُقد»، «الكواكب قطعت شعرها لكي تنسج بُرداً» .

تلك الخيالات المشينة بالتكلف ترد تترى في كثير من قصائده، كما يرى القراء في المثلين التاليين. قال بشارة في وصف زحلة ونُهيرها البردوني وسهل البقاع المتاخم لها:

أسرفتِ في فتن الجمال، كأنما
تخذ الجمال على ذُراك منابرا ! ...
والنهر روح العاشقين ودمعهم،
مُلقى على قدميك، يلهث خائرا
سالت جراحات الهوى في صدره
ليلاً، فقبّلها النسيم محاذرا

والــســهل يــحــلم، مــنــذ كــان، بــزورة
لــبس الحُــليّ لــهــا نــدًى وأزاهــرا
لـو كـان يمـكـنـهـا الـرُبى، لـتـسـابـقت
لأعــزّهــا، تــســعى الــيك حــواســرا،
وتــقــطــعت خُــصل الحــســان ونُــثّــرت
بــدل الــكــروم عــلـى الــتلال غــدائــرا

قال في وصف سلمى الكورانية :

تــعــجّب الــلــيل مــنــهــا عــنــدمــا بــرزت
تــسلــسل الــنــورَ في عــيــنــيه عــيــنــاهــا
فــظــنــهــا، وهي عــنــد المــاء قــائــمــة
مــنــارةً ضــمــهــا الــشــاطي وفــدّاهــا !
وتــمــتــمت نجــمــة في أذن جــارتــهــا
لمــا رأتــهــا وجُــنّــت عــنــد مــرآهــا :
«انــظــرن، يــا إخــوتــا ؛ هــذي شــقــيــقــتــنــا
فــمن تُــراه عــلـى الــغــبــراء ألــقــاهــا ؟
«أتــلك من حــدّثت عــنــهــا عــجــائــزنــا
وقــلــن إن مــلــيك الجن يــهــواهــا ؟»

فضلاً عن التصنع المتواتر ، كثيراً ما تشين شعر بشارة المبالغة الفاحشة. نكتفي بذكر ثلاثة أمثلة عليها، خوفاً من إضجار قرائنا : يقول بعد موت فوزي المعلوف «**تعرّى روض البيان من السجع**»، وفي رثاء الياس فياض :

خــبــا كل ســاطع في ســمــاهُ
وذوى كل زاهــر في جــنــانهْ

وفي وصف انهيار صرح شامخ : «**جبل من البنيان زُلزل فوقهم** .»

مع كل العيوب التي فصّلناها وأثبتناها بالبراهين الدامغة، نرى الأخطل الصغير يجاهر في «نياشين» – وهي كلمة غير عربية – بفرط إعجابه بذاته، وذلك من أقصى درجات الكبرياء والادعاء. هاكم تلك الأبيات بحذافيرها :

أيفرضون على مثلي ملابسهم

ويسألون ثيابي عن نياشيني

كأنني لم أكن عنوان فخرهم

يوم انطلاق القوافي في الميادين ؟

إني لمن معشر، لولا يراعتهم

ما كان لبنان غير الماء والطين !

من المعلوم أنه لا يجوز، في جميع الأقطار المتمدنة، لقاضٍ، أياً كانت درجته في مراتب القضاء، ان يصدر حكماً في شؤونه الشخصية . قد نسي بشارة أو تناسى ذلك المبدأ السديد، فتوهم عن غرور محض، أنه في مقدمة نوابغ شعرنا العصري الناهض. أما نحن، فإننا لا نشاطره ألبتة ذلك الرأي الفائل. مع اعترافنا بأن في قصائده بعض الدرر، وإن شابتها شوائب، يضطرنا النقد الجريء النزيه الى التصريح بكثرة ما فيها من اللؤلؤ البهرج. هذا لا يروق سطوعه إلا عيون جاهلي أصول الأدب الصحيح، الثابتة في كل عصر ومصر، في أرقى بلاد العالم، بدليل كون أعظم أدباء الخافقين يتقيدون بها ولا يحيدون عنها أصلاً ؛ ولولا ذلك لما بقي جمال مؤلفاتهم كاملاً فتانا في ترجماتها الى أشهر اللغات .

الأب رفائيل نخلة اليسوعي

****

ابيض

الأخطل الصغير
شاعر الشعب والحرية والإنسانية

توفيق إبراهيم

للأخطل الصغير مكانة رفيعة في عالم الشعر يحسده عليها كبار الشعراء في جميع الأقطار العربية. وهو رجل ظريف، أنيق الشكل. لطيف المعشر، مرهف الحس، رقيق الشعور حاضر النكتة. وعندما يتلو قصائده الرائعة أمام مستمعيه ورواد مدرسته تتدفق خواطره الشاردة من رموش عينيه البراقتين ، وتترقرق درر الألفاظ على عقيق شفتيه الرقيقتين، وتتألق الصور الشعرية في صفاء ذهنه المتوقد وتتناثر كالأحلام المجنحة، وتذوب كما يذوب الأرج الناعم في مهب الريح.

وشاعرناالكبير، بل أمير الشعراء، ينظم القصيدة وينحتها نحتا دقيقا، وينقحها بروية وإتقان ويسكب عليها أرجاً من روحه وفيضاً من جروحه، فتأتي آية في الروعة والإبداع. إنه أمير الكلمة الحلوة والمصور المبدع الخلاق، قصائده الخالدة جواهر نادرة تتألق على لوحة الفن بأجمل الصور وأطرف الألوان. طوى الثمانين من عمره وما يزال يتمتع بنضارته ورونقه وخفة روحه. وهو الشاعر الوحيد الذي ينعم ويتمتع بتقدير ومحبة العالم العربي على اختلاف مذاهبه ونزعاته، وأول من رصع جيد الشعر العربي الحديث بأغلى الجواهر والعقود.

والأخطل الصغير شاعر الشعب الثائر، وعدو الاستعمار والمستعمرين. ثار على الظلم التركي، وتمرد على الجور والطغيان، ووقف بوجه الانتداب الفرنسي وقفة الند للند، وصفع «أمنا الحنون» تلك الصفعة الموجعة عندما خاطب وطنه الحبيب لبنان بقصيدة أقتطف منها هذا البيت الرقيق الموجع:

كثرت عليك الأمهات وما درت
أرحامهن وكل أم ضيغم

■ الرحمة، نيسان ١٩٦٧، العدد ٤ ، السنة الثالثة.

أجل، لقد كثرت علينا الأمهات والجدات، والأوصياء الأعداء الألداء، وكلهم ضياغم ووحوش تتكالب على أرزاقنا وخيرات بلادنا.

إن الشاعر الذي يتحدى الاستعمارالفرنسي في أوج مجده، ويصفع «أمنا الحنون» بمثل هذا البيت الرقيق الموجع، هو أمير الشعر العربي دون منازع.

وعندما كشف الاستعمار البريطاني أوراقه وطلع علينا بمشروع «صهينة» فلسطين.. ثار الأخطل الصغير ونظم رائعته الخالدة وقذفها حمماً مدمرة في وجه هذا الاستعمار. وكان لصيحاته الهادرة دوي الرعود في صدور المستعمرين. قال حفظه الله:

يا فلسطين التي كدنا لما
كابدته من أسى ننسى أسانا
نحن يا أخت على العهد الذي
قد رضعناه من المهد كلانا
يثرب والقدس منذ احتلما
كعبتانا وهوى العُرب هوانا
قم إلى الأبطال نلمس جرحهم
لمسة تسبح بالطيب يدانا
قم نجع يوما من العمر لهم
هبه فصح الصوم، هبه رمضانا
إنما الحق الذي ماتوا له
حقنا نمشي إليه أين كانا
ضجت الصحراء تشكو عريها
فكسوناها زئيراً ودخانا

وهذا البيت الأخير تردده قبيلة عربية في صحراء «موريتانيا» معروفة بقبيلة «البيضان». وقد روى لي أحد أفراد تلك القبيلة قصيدة طويلة للأخطل الصغير عنوانها «على ضفاف بردى»، منها هذه الأبيات الجميلة التي يصف فيها شاعرنا الكبير «أبناء جفنة»:

إني وقفت بها أسائل عن فتى
من آل جفنة رائح أو غاد

الحـــامـلـــين الــشـــمس فـــوق وجـــوهـــهم
والحـــامــلـــين الـــشــــهب في الأغـــمـــاد
رفـعـوا الـشـآم عـلـى الـصـفـائح والـنـدى
وبـــنـــوا من الـــصـــلـــبـــان بـــيت الـــضـــاد

فلا يسعنا إلا أن ننحني بخشوع أمام روعة تلك الأبراج الشامخة، والصور الساطعة والقوافي المتألقة في سماء الشعر العربي الرفيع. لقد جمع الشاعر بأسلوبه الرشيق الشفاف بين دقة الوصف.. والرقة والعذوبة.. وسمو الخيال وقوة التعبير. وها هو الأخطل الصغير يصف نفسه بنفسه ويعطينا صورة صادقة حية عن الثورة الهادرة المتفجرة في صدره:

ولـــربمـــا خـــدعـــتك صـــفـــحـــة هـــادئ
مـــــني وفي الأحـــــشـــــاء عـــــصف ريـــــاح
إنـي إذا جـــــنت ريـــــاح ســـــفـــــيـــــنـــــتي
ذهب الجـــــنـــــون بـــــحـــــكـــــمـــــة الملاّح

أما القصائد الخالدة التي ارتفعت بشاعرنا الكبير إلى ذروة الشعر والشهرة والمجد فهي تلك المراثي التي توجت جبين الأهرام بأكاليل الغار، وغناها النيل ورددتها أمواج دجلة والفرات، ومنها قصيدته المشهورة في رثاء سعد زغلول ومطلعها:

قـالـــوا دهت مـــصـــر دهـــيـــاء فـــقـــلت لـــهم
هل غـــيّض الـــنـــيل أم هل زلـــزل الـــهـــرم؟
قـــالـــوا أشـــد وأدهى قـــلت ويـــحـــكم
إذن لـــقـــد مـــات ســـعـــد وانـــطـــوى الـــعـــلم

وقصيدته الرائعة في رثاء أمير الشعراء أحمد شوقي ومطلعها:

قف في ربى الخـلـد واهـتف بـاسم شـاعـره
فـــســـدرة المـــنـــتـــهى أدنى مـــنـــابـــره
وامـسح جـبـيـنك بـالـركن الـذي انـبـلـجت
أشـــعـــة الـــوحي شـــعـــراً من مـــنـــائـــره

ومنها:

شوقي، أتذكر إذ «عاليه» موعدنا
نمنا وما نام دهر عن مقادره؟
شوقي، سلوا الأفق هل ثارت عجاجته
لما انطوى المتنبي في دياجره؟
في موكب الشعر والأقلام مطرقة
فإن أرادته غصت في محابره
سألتنيه رثاء خذه من كبدي
لا يؤخذ الشيء إلا من مصادره

أما قصيدته الرائعة في رثاء الملك فيصل الأول فقد روى لي الصديق يوسف ابراهيم يزبك أن بغداد قد زحفت عن بكرة أبيها لتلثم يد الأخطل الصغير بعد خروجه من القاعة التي جرت فيها حفلة تأبين الملك الراحل. وقد أصبحت قصيدة الشاعر اللبناني الكبير حديث الشعب العراقي بأسره، ومطلعها:

لبست بعدك السواد العواصم
واستقلت لك الدموع المآتم
ود لو يفتديك صقر قريش
بالخوافي من الردى والقوادم
أسندوا البيت بالصدور فقد ماد
وخانت جدرانهن الدعائم
فيصل العُرب أي غمديك للفخر؟
أغمد الندى؟ أغمد العزائم؟
لك في كل ذروة من فؤاد
منبر فوقه مصلٍّ وصائم

والعراق لا يزال يردد قصيدة الأخطل الصغير في رثاء الفيلسوف العراقي جميل صدقي الزهاوي، ومطلعها:

قولي لشمسك: لا تغيبي
وتكبدي فلك القلوب

بـــــغــــداد، يـــا وطن الجـــهـــا
دِ ومـــــرتـع الأدب الخــــصـــــيب
غــــنّـــاك دجـــلـــة والـــفـــرا
ت قـــصـــائـــد الـــزمن الـــعـــجـــيب

ومنها:

بـــغـــداد، مـــا حـــمل الـــســرى
مـــــني ســــوى شـــبـح مـــريب
جـــفـــلت لـه الـــصـــحـــراء والـ
تـــفت الـــكـــثـــيب إلى الـــكـــثـــيب
وتـــنـــصـــتت زمـــر الجـــنـــا
دبِ من فـــويـــهـــات الـــثـــقـــوب
يـــتـــســـاءلـــون وقـــد رأوا
قـــيس المـــلـــوح في شـــحـــوبي
والـــتـــمـــتـــمـــات عـــلـى الـــشـــفـــاه
مـــخـــضـــبـــات بـــالـــنـــســـيب
يـــتـــســـاءلـــون: من الـــفـــتـى الـ
ـــعـــربي في الـــزي الـــغـــريب؟

وفي المهرجان الكبير الذي أقمناه للأخطل الصغير في بيروت عام ١٩٦١ شاء الشاعر العراقي الكبير محمد مهدي الجواهري أن يرد التحية بأحسن منها، فنظم قصيدته على القافية والوزن نفسهما ومطلعها:

لـــبـــنـــان يـــا خـــمـــري وطـــيـــبي
هلا لمـــمت حـــطـــام كـــوبي
هـلا أعـــدت لـي الـــصـــبـــا
نـــشـــوان يـــرفل بـــالـــطـــيـــوب
نـــزق الـــشـــبـــاب عـــبـــدته
وبـــرئت من حـــلـم المـــشـــيب

ومنها:

الأخطل الجبار جا
ءَ الكوفتين على «نجيب»
وأبو العلاء على بنا
تِ الماء تحدى بالجنوب
وذعرت صحراء العرا
قِ بموكب النار المهيب
وأتيت لبنانا بجا
نحتين من ريح غضوب
مثل المسيح إلى السما
ءِ وقد حملت على صليب
كأسي تصفّق بالغما
مِ بكف غيداء لعوب
سخرت عصافير السما
ءِ بخائفين من الوثوب
بمزعزعين توجساً
ومحزّمين على الجنوب
واستصغرت «زمر الجنا
دبِ» في فويهات الثقوب

هذه تحية شاعر العراق الكبير الذي شبه نفسه بـ «جنادب العراق» عندما أطل على سمائنا وشاهد من خلال ثقوب الطائرة عصافير لبنان طليقة حرة تسخر به وتثأر للعندليب اللبناني من «الجندب العراقي» المحزم بحزام الطائرة.

أما روائع الأخطل الصغير الغزلية فهي تلك القصائد التي غناها مطرب الجيل الأستاذ محمد عبدالوهاب، ومنها «الهوى والشباب» ، «جفنه علّم الغزل»، «يا ورد مين

يشتريك»، «الصبا والجمال»، وكذلك قصيدته «اسقنيها بأبي أنت وأمي» التي لا تزال درة الغناء الشعري في حنجرة أسمهان.

هذه لمحة خاطفة وصورة مصغرة عن عبقرية شاعرنا الكبير الذي كحَّل أهداب الشعر العربي بألوان ريشته الساحرة وكتب صفحة خالدة من صفحات العزة والكرامة في تاريخ لبنان وطن النجوم ومعقل المجد والحرية.

هذا وأجمل ما في الأخطل الصغير ذلك الصدر الرحب، المرصع بأوسمة الشرف التي أوحت إليه هذه الأبيات الساطعة سطوع الشمس في وضح النهار:

أيــفــرضــون عــلــى مــثــلـي ملابــســهم
ويــســألــون ثــيــابي عن نــيــاشــيــني؟!
كــأنــنــي لم أكن عــنــوان فــخــرهم
يــوم انــطلاق الــقــوافي في المــيــادين!
إني لمن مــعــشــر لــولا يــراعــتــهم
مــا كــان لــبــنــان غــيــر المــاء والــطــين

هذا هو الأخطل الصغير، شاعر الشعب، شاعر الحرية، شاعر الإنسانية، الذي احتفلنا بتكريمه عام ١٩٦١ وأقمنا له ذلك المهرجان الضخم في قصر الأونيسكو الذي تحول إلى سوق «عكاظ» وجرت فيه مبايعة الأخطل الصغير إمارة الشعر العربي.

توفيق إبراهيم

****

ابيض

مدخل الى دراسة
الشعر العربــي الحديـث

أنطون غطاس كرم

فيما كان خليل مطران يتوق إلى هذا التحدي من كمال الصياغة والنفس المديد والصنع الوعر، قيض للأخطل الصغير[١] أن يتلقى، على نحو الخليل، ثقافة مزدوجة، وأن يأخذ أصول الضاد على أحد أساطينها عبدالله البستاني[٢]. وكان البستاني أستاذه من أنبه المعنيين باللغة وفقهها، قبسها عن ناصيف اليازجي والشيخ يوسف الأسير. ووضع معجمه، وروى القديم، وشطَّر معلقة عنترة، ونظم الشعر على سيادة في العروض. وترجم عن الفرنسية واقتبس، وألف في المسرح منظوما ومنثورا. وقد انحدرت هذه الأصالة اللغوية الأدبية، وهذا الازدواج الثقافي منه الى طلابه وفيهم: شكيب أرسلان (١٨٧٠-١٩٤٦)، وديع عقل (١٨٨٢-١٩٣٣)، أمين تقي الدين (١٨٨٤-١٩٤٧)، شبلي الملاط (١٨٧٨-١٩٦٣) والأخطل الصغير.

حتى لينتهي الى الخاطر، ونحن على قراءة «الهوى والشباب» و «شعر الأخطل الصغير» أن صاحب هذا النتاج يمور بين ذوقين أدبيين هما وليدا ثقافتين مفترقتين، وأن هذين الذوقين ينفصلان الى حد، في أول عهده، ويتمايزان؛ ثم ينصهران مندمجين في الحقبة المتأخرة من منظومه.

أما الذوق الأدبي الأول فقد شارك فيه المخضرمين من حيث بنية القصيد، وطبيعة الموضوع، وحياكة الإنشاد ؛ ولا يخلو ان تلتمس، هنا وثمَّ، بعضا من مصطلحاتهم وقوافيهم ولمعاً من أغراضهم. ولكنما هذا القدر المشترك قد لطفته من ثقافة الأخطل

■ من كتاب صدر سنة ١٩٦٧ عن الجامعة الأميركية في بيروت في عيدها المئوي ١٨٦٦ ـ ١٩٦٦ .

الصغير عوامل. منها رجوعه إلى الموروث العربي من خلال كتاب الأغاني بالأخص. ويستوقفك من هذه الموسوعة أن تكوينها النثري مباين للمحنطات الحريرية والانحطاطية التي حركت ميول العروضيين ومقلدي الآداب القديمة في القرن التاسع عشر؛ وفي كتاب الأغاني ما يشبه البيان المرسل أنيق على غير افتعال، يسير على غير ابتذال، مشرق على حلاوة تردك عفوا او كأن. متنوع على مستوى المتحاورين من لغى الأقوام من السوقة والأعاجم الى أشد العلماء تزمتاً. كما يستوقفك أنه مختارات شعرية سيقت على الألحان، فإذا منظوم القدامى يأتيك منه على قيمتين: أنه شعر وأنه غناء. وأن الطرب هو الغرض كيفما دارت الوسائل. ويعنيك أيضا منه بالنسبة الى الأخطل الصغير ما اجتمع فيه من الإباحة والفتك ومن صفاء العذريين. حتى يتهيأ أن المكتبة العربية قد انفتحت لشاعرنا من خلال كتاب الأغاني تاريخاً وقصصاً وأخباراً وأدباً وغناء . ويترجح لديك أن تلك الحلاوة العفوية المرسلة في ديباجته، وأن طلاوة الغناء والإباحية التي شدها الخفر في غزله، والشهوة المقنعة بالبراءة أو بالعبث الحائر بين تحقيق الشهوة والامتناع، وأخبار عمر ونعم، وعروة وعفراء، لا ترى تفسيرها إلا في هذا المنبت الأول.

ومن هذه العوامل الملطفة أيضا أنه انصرف الى الصحافة، وسلخ في جريدة «البرق» حقبة من دهره. وما كان سبيل الى فصل الشاعر عن الصحفي: فكما تسنى للصحيفة حينذاك أن تبيت موئلا لجمهرة من الأدباء وسجلاً لنتاج شعري يأتيها من الأعلام الشعراء في تلك الحقبة، ومن أقلام المهجريين فتبثه في الناس وتعممه؛ كذلك تسنى للأخطل الشاعر أن يستل من الصحافة بعض قضاياها، وأن يدمجها في أحواله الفنية على ما يشبه الالتزام، بل يتضح كيف أن الهول العثماني قد فرض عليه الحيطة والتقية بحيث لا يجهر بالتحدي الصراح، فيتخذ من الغزل ومن لوحات الطبيعة حيلة فنية لتغطية ذاك التحدي السياسي، ويبطن بالغزل الرقيق أغراضه السياسية اللماحة، مما لم يسنح في الشعر القديم، ورافق هذا الحرص المستتر معظم شعره المتصل بقضايا العصر. يقل مجاهرة في العهد العثماني ويزداد صراحة في عهد الانتداب.

بل إنني أذهب الى أن اليسر الذي لا بد منه في الأداء الصحفي كان داعيا من دواعي اليسر في تركيبه الشعري، وإن ثبت لديك أن العبارة الصحفية في جريدة «البرق» لم تتأنق لتظل على مستوى الجمهور الأعم، فلا مراء أن الصحافة قد صرفت الشاعر عن الكد، والإغراب، والتركيب المجهود، والمنظوم المقفل، والفكر المستعمق، الى لون من الإشراق السهل الذي أسعف على تعميم منظومه في الناس، وأعده للمنابر حيناً وللغناء حينا. ويلوح لي، فوق ذلك، أن المتنفس الصحفي كثيرا ما كفاه مؤونة الشعر، إذ استرفدت «البرق» بعض شواعره وخواطره ونشاطه، فقل منتوجه الشعري رغم طواعية العروض، وطول معاناته القريض زمانا مديدا.

أما الذوق الأدبي الثاني فمرده الى أن هذا العامل الصحفي بالذات جعل جريدته ترجمانا لمختلف النشاطات الأدبية، ولا سيما ما انبث فيها من نقل الآداب الرومنطيقية وطلائع النتاج المهجري، حتى اختلط المجموع فرنسيّه ومهجريّه، فكان ذاك امتدادا لما تلقاه في دراسته الثانوية[٣]. وبصر بالرومنطيقية تنتقل الى الذوق العربي بفضل الترجمات أو مسوقة على صيغ المهجرين. وهكذا اشتبك الرافدان في تكوينه، ثم ترى لديه أن القصة الرومنطيقية تمتزج بالشعر الرومنطيقي الخالص، أو تستلهم أخبار الحب من «الأغاني» وتزفها الى المستهلك العربي قصصا شعريا مماثلا للمقتبس الغربي. حتى إذا تبقى من قوالب القدامى رواسب فأثارت حفيظة المجددين عليه، راح يسهم في تعميم الأثر الذي خلفته مبادئ الثورة الفرنسية عندنا، ويرافق الحركة القومية والتعاطف الاجتماعي واليقظة الإصلاحية العامة ويدرأ الظالم العثماني، ويربط هذي المفاهيم بفاجع العالم العربي ولبنان، ولا سيما ما دار في مأتم الحرب العالمية الأولى مجاعة ومشانق واستبدادا. ثم إن الطبيعة قد اكتست أشكالا وألوانا وقيمة استاتيقية وحالات نفسية مرت إليه بالعدوى من شعر الفرنسيين ومن نثر جبران، وطفق، على غرارهم، يستعين برسومها استكمالا لتركيب القصيد؛ فإذا كبا به الموضوع، أو هبط القصص الى مستوى النثر، اعتصم باللوحة الوصفية ليستعيد مرتفعه الشعري أو ضمن موضوعه المحلي مقتطفات مترجمة أو مقتبسة من شعر الرومنطيقيين في ضرب من المجاز المرسل. (انظر بعض مقتبساته مثلا وتضمينه في قصيدة عروة وعفراء: الهوى والشباب ص ٧٠ – ٧١ بعض أبيات الشاعر الفرنسي ألفرد ده موسه).

غير أن المجددين الذين عيروه باقتباسه الأجهزة القديمة، عابوه أيضا بالسرقة عن شعراء فرنسا[٤]. ولكن هذا المقتبس الصريح ما عتم أن ذاب ليفنى في حقيقة الشاعر وفرديته. ومن هنا أن الأخطل الصغير يمثل في الشعر العربي الحديث مرحلة مكملة، ولا يمثل بداية في النوع. هي مرحلة اقتباس وصهر وتفاعل، وليست مرحلة توليد لمذهب أدبي جديد. ومن هنا أيضا موقفه المعتدل من نزاع المحافظين والمجددين. وصحيح القول أن هذا النزاع لم يجاوز الأعراض السطحية لأنه لم يستعمق نقديا وفلسفيا وعلميا، ولا هو أحاط بثقافة أدبية إنسانية شاملة كفيلة بأن تصبو به الى منحى مفارق لمنحاه: فإما أخذ عن القدامى عبر المخضرمين، وإما اقتباس مسطح لبعض آثار الفرنجة، يعقبها صهر معتدل خلو من التجلي الخلاق.

ولما شاعت مفاهيم الرمزيين في العقد الرابع من هذا القرن وقع للأخطل من شعرائها جهاز تعبيري مختلف عن أنماط الرومنطيقية الغالبة على ماضي نتاجه وهكذا تراه لا يعول على العمق الفكري، فيقف عند حكمة شوقي العارضة، وتستمر فيه نكهة عمود الشعر، ويتخلله نسيم الغناء العربي الحديث حتى يبلغ المنظوم الشعبي[٥]، ويتبدل المصهور من ثقافته الأدبية الى عطاء ماهد للرومنطيقية المتجسدة في شعر الياس أبوشبكة.

☆☆☆☆☆

فإن أَبْين ما يستوقفك من بناء المركب الثقافي في شاعرية الياس أبوشبكة، إنما يرد في أعلى ما يرد، الى تكوينه بالمسيحية، بل إنني أذهب إلى أنه لا يدرك بكلية شاعريته، انطلاقا من هذا التكوين المسيحي. حتى كأنه هو الأصل وكل ما تبقى فروع لهذا الرافد، وتكملة. وأقول، على سبيل القطع، إن هذه الثقافة بعينها هي التي ذوبت فيه موشور الرومنطيقية بألوانها جمعاء، على اعتبار أن الرومنطيقية، وما اتصل بالتصوف منها، موروث مسيحي. ولذا أيضا ظل شوقي، وعلي محمود طه، وأحمد زكي أبوشادي من جماعة أبولو، عند ظواهر الرومنطيقية وأعراضها ولم يلجوا هيكلها الروحي. وهذه هي الآفة التي سقط فيها رزوق وشوقي ضيف عندما درسا شعر أبي شبكة، إذ غفلا عن الطبقة الثقافية الأولى التي نمت فيها غذاءاته الأُخر.

أنطون غطاس كرم

الهوامش

١ - ولد في عام ١٨٨٤ . تعد الآنسة أبوجودة الآن رسالة للماجستير في الأخطل الصغير. راجع ديوانيه: الهوى والشباب (دار المعارف ١٩٦١، مع مقدمة بقلم سعيد عقل)؛ مجموعة جريدة «البرق»؛ مجلة المعرض ١٩٢٨ ـ ١٩٣٢؛ مجلة المكشوف ١٩٣٦ ـ ١٩٣٩ . شرارة، عبداللطيف: الأخطل الصغير في سلسلة «شعراؤنا» دار صادر ودار بيروت ١٩٦١ .

٢ - ١٨٥٤ ـ ١٩٣٠ . انظر بشأنه: داغر، يوسف أسعد: مصادر الدراسة الأدبية، ج ٢ ، ص ١٩٣ ـ ١٩٥ تذكار اليوبيل، بيروت ١٩٢٨؛ مناظرة لغوية أدبية بين الأساتذة عبدالله البستاني، عبدالقادر المغربي، أنستاس الكرملي، القاهرة، مكتبة القدس ١٣٥٥هـ؛ يوبيل عبدالله البستاني الذهبي، مجلة الحارس، المجلد (٥) عام ١٩٢٨ .

٣ - راجع الرسالة التي وجهها الينا أحد طلاب مدرسة الحكمة في ذلك العهد ١٨٩٨ ـ ١٩٠٦ وقد أوردنا خلاصة ما تضمنته في محاضراتنا في جبران خليل جبران، القاهرة ١٩٦٤ ، ص ٢٣ ـ ٢٥ . وانظر بخاصة ما هو متعلق بنظام التدريس ومنهاجه والعناية بمطالعة نتاج الأدباء المحدثين أمثال فرنسيس المراش، وأديب إسحق. وغني عن البيان ذكر الأدب الكنسي، وترجمة التوراة، والإلماع الى بعض الأساتذة الفرنسيين القادمين من «سان سولبيس» و «وروان».

٤ - راجع مآخذ الياس أبوشبكة وعصبة العشرة عليه في مجلة المعرض، ثم في مجلة الجمهور، ومآخذ كرم ملحم كرم في مجلة العاصفة، ولا سيما ما جاء منها في قصيدته:الهوى والشباب، والمسلول من حيث اقتباسه عن الفرنجة؛ وقصيدته «مآسي الحرب» من حيث اقتباسه أجهزة القدامى ومطلعها: «المهى أهدت إليها المقلتين... والظبا أهدت إليها العنقا» وقصيدته «يا عاقد الحاجبين».

٥ - الهوى والشباب ص ١٥٧ ـ ١٥٨ .

****

ابـــــــــــــــــــــيـــض

بشارة عبدالله الخوري

صاحب جريدة البرق ـ الأخطل الصغير

أبو عبدالله ـ أمير الشعراء

الياس خليل زخريا

سافر أمس صديقنا «أبوعبدالله» سفرته القريبة في الأرض البعيدة.

تمدد في بزته الجديدة الأنيقة، وسبحته اليسر، وناظريه الهادئين الباردين، وعكازه المتوكئ القصير، وتابوت مشرع الباب من الخشب السنديان المحفر الملمع، وشمعتين نصرانيتين، طويلتين من الجبل، واقفتين وحدهما في مسرجتي النحاس، عن اليمين والشمال، تحت العلم تتمتمان على جدران القاعة الواسعة، العارية، في صمت المدينة الجامعية الصاخبة.

نظرت إليه ملياً، فكأنه هو نفسه.

مطل وحده من الزاوية في شرفة مكتبه الى رصيف «الشهداء» في ساحة العاصمة بين النخلات العاليات، وبركة الماء العثمانية التي انصب فوقها تمثال بحري غريب لشهداء غير غرباء.

.. وينساب «الأخطل الصغير» بخياله على مسارب نظارتيه.

ويتنقل بجسده النحيل المفتول فتلاً على عصاه المتعبة المتزنة.

ويقتنص هنا، ويتربص هنا، وينتظر انتظاره هناك ويكر الدقائق على حبات سبحته القصيرة. ويبتسم ابتسامة شفافة دائمة كأنها الرضى الى كل شيء والاستخفاف

■ الأديب، ١٩٦٨ ، السنة ٢٧، عدد: ٩، ص: ٢.

بكل شيء. ويلف، ويدور، ويرود، ويتأمل، ويرحب، ويغض النظر. يدخل في قنطرة من قناطر البرج ليخرج من قنطرة برجية أخرى. يستقبل في عرض الطريق بالشم والتقبيل، ... وقد يغرق في التودد.. ... وقد يتناهى في الجفاء.

ثم تراه يفيء عند كأس، ودن، في ضجة أو خلوة، أو نشوة منتشية لا أبهة، ولا ترف، ولا مظاهر ثراء، في حي كان زاخرا بالمظاهر ومدارج الرتب وأبواب الفخفخة وبيوت الثراء وسارية العلم ونفخ البوق.

ويصحو صحوه عند الالتفات في غمزة، أو لمزة، أو رفة عين وينسحب من المجلس، على السكت، انسحابا خفيا.

وقد تراه يتوارى على الوقار في أكمام ثيابه تحت نظارتيه الدائمتين.

وقد تراه ينزوي على التبصر في مداخل نفسه وحفيف أجنحته.

وقد تراه ينفعل انفعال النار في دفع الريح.

وقد تراه ينطفئ انطفاء الموت في برودة التراب.

يعربد ويثور.. إذا ما غمزت قناته. ينفر ويجافي.. إذا ما قوطعت كلمته. يحقد وينقم.. إذا ما مست قافيته.

يحب النقد مديحا في شعره ومديحا في نثره في كل شعره وفي كل نثره.

فإذا ما تحرك القلم أو اللسان في لفظة قلقة من ألفاظه، أو إلى بيت مضطرب من أبياته، أو على صورة غير مكتملة من صوره، أو قصة شاردة من أقاصيصه، انتفض كما ينتفض الثأر، فلم يترك للناقد نثرا قائما ولا شعرا منتظما ولا رأيا سليما، وقد يجرحه في خلقه، في أدبه، وفي أهل بيته.

إني إذا جـــنَّت ريـــاح ســـفـــيـــنـــتي

ذهب الجـــنـــون بـــحـــكـــمـــة الملاح

وأشياء، وأشياء، من حكايات العمر في رفقة طويلة غنية، في ثلث قرن، نتركها الى الغد لروايات الخبر ومجالس الحديث المنبسط.

☆☆☆☆☆

ويعود «أبوعبدالله» من تطوافه النائي في الساحة إلى غرفته، إلى بيته، إلى داره. كـانت غرفته تلك، أيامذاك، في غربي ساحة الشهداء، أو في جنوبها، كل داره، كل بيته.

فيها «البرق» والمطبعة، والمحبرة، والدفاتر القديمة، والسجلات الجديدة، والمكتبة، والرسائل، والديوان، والمسند، والمائدة، وأدراج الضيافة، وسلة المهملات العتيقة، وخزانة الثياب، وأخبار المحبين، وأثاث كامل من أثاث الدنيا غير الكاملة.

كانت هذه الغرفة، هذه الدار، أعمق ما كانت. إنها الصومعة اللبنانية العالية التي نزل فيها على نصف قرن في شق من كرسي واحد بقميص واحد، على اللاهوت الشعري، ثلاثة قدامى «ابن أبي ربيعة» و «ابن هاني» العباسي، و «أبوالطيب».

ورقّة عفوية فطرية «كالصوت للطير أو كالنشر للزهر» على حبكات مطيبة في سهولة التسلسل، ولين الحوار، وحرارة السرد، وتنغم الكلمة، وسكب القافية، وإبراز الصورة، والاقتباس العيني والخطف الأذني، وتأملات التتبع، وجمال الأرض، ولذائذ هن من غير لذائذ «نعم وعمر».

ثم دالية عجيبة تفتح في الجسد، وفي النفس، مغالق السر، ومكامن اللذة، ومصاعد الجموح.

ثم حكمة دهرية انصهرت فيها الأحداث، والبطولات، انصهار الماء في الغمام، والغمام في السماء، والسماء في الضمير المتيقظ المتعطش أبداً الى معطيات الجمال، وقرابين الحق ومقدسات الحرية.

ثم طموح دنيوي عجيب الى فوق.

قد يغضب فلا يتمرد إلا في الكبرياء، والترفع، والتعالي، ونحت الصور، وإطلاق الخيال، وبناء القصيد بناء الصعوبة الفخمة.

وقد يجنح أحيانا الى مثل: «التأمر»، أو التولي، أو التحكم، أو القناعة الوديعة، المنحدرة عن الضجر والحرمان الى القليل القليل من أوسمة هؤلاء الحاكمين، الفقراء، المحتاجين الى من يرفع قدرهم في عين الكلمة.

أو قل معي في غبار تلك الصومعة التي سمعتها أمس تقهقه قهقهتها في وجه قاعة الاستقبال الكبيرة، الكبرى، من قاعات كلية الحقوق في الجامعة اللبنانية.

وفوق هذا، وذاك، قبة صافية من قباب الجبل، رفعها «الأخطل الصغير»، ورفاق «أبي عبدالله» وتلاميذ صاحب «البرق» ـ وقد كان معلما سخيا من معلمي الجيل ـ على هذه الدنيا العربية، الواسعة، تستظلها الأرزة فلا تيبس، وتنبسط فيها الصحراء الحالمة فلا يجف فيها الماء، ويمتد تحتها الريف فلا ينقطع فراته ولا ينضب نيله، ويتدفق بردى، جارنا بردى، فلا يبقى في واديه الخصيب إلا هذا القلب اللبناني العربي الذي يخفق كالشعاع على قمة حرمون، ويذوب كالندى على ضفاف الغوطة، ويسيل كالأمل على «العاصي» المتفجر من قلب الصومعة الهرملية من عندنا في الجبل الأخضر.

ويسألون الوادي الدمشقي عن قديم هوى «هذا الفتى العربي في الزي الغريب» فلا يجدون غير خفقات قلبه مع المجد، والسرى، والسراب، والأمل الأكبر، الى الرمل، والنخيل وجبال الشمس في واحات الزمن.

ويوم نادينا، شاعرنا، بهذه الأسماء الثلاثة:

«أبو عبدالله ـ الأخطل الصغير ـ أمير الشعراء» كنا نشعر بأن هناك اسما رابعا فوقها تنتهي فيه هذه الروافد اللفظية.

تتساقط عن مجده ويبقى، تنتثر عن دوحه ويدوم. ألم يعشق «بشارة عبدالله الخوري» نفسه كما يعشق البلبل حنجرته؟!

ألم تكن هذه الأسماء تمدحا به، نعوتا عابرة في معدنه.

ألم يلقب نفسه باسم شاعر بني أمية فخورا بمفاخره مطمئنا الى نصرانيته، ومكانته، ومجاله، وأفيائه في مشارف الأفياء، حتى إذا سرى اسمه، وتناقل على ألواح القلوب، تضايق فخلعه، وتألم فأنكره، وتمنى علينا مرارا في محبتنا له أن نهمل التسمية:

«ذلك عبث من أيام الصبا في طفولة الشاعرية».

ألم يناج أبا الطيب:

طلـبت بـالـشـعـر دون الـشـعـر مـرتـبـة

فـــشـــاء ربك أن لا تـــدرك الـــطــلـــبـــا

ويسعى إليـه منظمـو مهرجـان الإمـــارة، شعراء الكهـولة الراغبـين في الإرث غير الموروث، فيرحب باللقب، ويهلل بالتتويج، ويحني رأسه العالـي لإكليل المهرجان وصولجانـه.

وألتقيه بعد «التآمر» وأذكره ولا أهنئه، فيعتب بجفاء ويودع بقساوة، وكم وددت حقاً لو تحركت فيه علي شاعريته الغضبى فهجا كما كان يهجو، وحطم كما كان يحطم، غير أنه أنطوى عنا في لين الغربة على عتابه الأخير، وموته الأخير.

وأدركت أن أقصى ما كان يطمح إليه «بشارة عبدالله الخوري» في أوائل حياته وأواخر هذه الحياة الدنيا لقب «أمير الشعراء» وإن كان في قرارة ذاته واثقا بأنه ليس للشعر إمارة وليس للإمارة (ولي عهد) وليس لولاية العهد (إكليل أو صولجان).

ويا صديقي.. يا أمير الشعراء.

لا أوتارك انقطعت عن عودك.

ولا شموسك توارت عن مشارفك.

ولا أقمارك غابت عن ضلوع جبلك.

أراك في نفسي كأنك الجبل.

غرد يا أبا عبدالله ففي كل واد حداء من قلبك.

سلم قلبك من الموت.

الياس خليل زخريا

****

ابيض

الشاعر بشارة الخوري

الأب رفائيل نخلة اليسوعي

ليس من يجهل بشارة الخوري – الأخطل الصغير من الواقفين على تطور قريضنا العصري، ولو لم تظللهم سماء لبنانه الصافية الزرقة والشفافة الضياء في أكثر الأحيان، فقد انتشرت قصائده في كثير من صحف العالم العربي ومهاجره، وظهر له ديوانان، «الهوى والشباب» سنة ١٩٥٣، و «شعر الأخطل الصغير» سنة ١٩٦١ .

قلما عالج فلسفة الحياة، بيد أنه يجاهر في شأنها بآراء مادية محضة، يتحذلق مدعيا أن العقل البشري عاجز كل العجز عن تأكيد وجود إله قيوم، لامتناهي القدرة قد أخرج من العدم جميع الخلائق الروحية والمادية، فيقول عن الكون الشاهد بربوات بدائعه على كمال بارئها، الفائق اسمى العقول:

سمّه الضفة التي يعبر الأحـ
ـياء منها، أو سمِّ ذلك جسرا
سمِّه المصنع الذي يفعل التحـ
ـليل في جوفه عجائب كبرى
يتلقى الأجسام، وهي جماد
ثم يعطيكها حياة وفكرا
سمِّه الهازئ العظيم، إذا را
قك، أو سمِّه، إذا شئت، قبرا

....

تالله ما معنى الوجود، وحكمه
حكم الفناء، وأمره لنفادِ

■ المشرق، تموز ١٩٦٦، سنة ٦٠، ج٤–٥.

إلا مــشــقــات الــطــريق الى الــثــرى،

بــــين الأسى وتـــفـــتت الأكـــبــــاد؟

في قصائد أخرى يترنم بعظمة الله، بل يسجد لها :

ربِّ، إن الــكــون، مــهــمــا عــظُــمــا

هــو في عــيــنــيك لا يُــحــسبُ شيْ

قــدرةٌ ذلت لــديــهــا الــعُــظــمــا

كــلــهم فــانٍ، وســبــحــانك حي!

بيد أنه، في القصيدة ذاتها، يعدّ الله تعالى مسؤولا عن جرائم البشر، ولاسيما سفكهم دماء ملايين إخوتهم في الحروب الضروس المتواترة، فتبلغ وقاحته حد طلبه من مولاه السامي الحكمة، أن يلاشي القمرين ويستأصل أبناء آدم برمتهم :

ربِّ، قل لــلــجــوع يــصــبح شــبــعــا،

وانــقــذ الــطــهــر الــذي قــدســته

أو مُــر الــفــسق فــيــغــدو ورعــاً

...

إلى آخر الأبيات.

لا غرو من ماديته البادية في بعض منظوماته، والمستشفة في غيرها، ولا من قلة احترامه لله تعالى، فإنه قد ألّه المرأة كل التأليه، فوقف على عبادتها جل أفكاره وخيالاته وعواطفه، ونظم في وصف محاسنها الفتانة معظم قصائده، ومازال متيما بها في شيخوخته كما كان في كهولته، بل في عنفوان شبابه. كثيرا ما نراه، في شعره الغزلي، يهذي هذيانا، لا معنى له على الإطلاق إلا في عقله المصاب بالجنون الجنسي. هاكم عدة أمثلة على ذلك اللغو المستهجن :

فــتن الجــمــال وثــورة الأقــداح

صــبــغت أســاطــيــر الــهــوى بــجــراحي

ولــد الــهــوى والخـمــر لــيـلــة مــولــدي

وســـيـــحـــملان مـــعي عـــلى ألـــواحـــي

☆☆☆☆☆

أنـــا طـــيف من خـــيـــالات الـــلـــيـــالي

من صـــدى الـــوادي ومن هـــمس الـــدوالي

كم عـــلى الـــصـــحـــراء وشي من خـــيـــالي

وعـــلى الـــبـــحـــر يـــتـــيـــمـــاتي الـــغـــوالي

....

منهما صغت حلاك، ومنى النفس رضاك؛ أنا والشعر فداك

....

لم يـــشُـــقـــني يـــوم الـــقـــيـــامـــة لـــولا

أمـــــلي أنـــــني هـــــنـــــاك أراهـــــا!

وأيم الحق إن من المضحكات المبكيات زعمه الكفري أن أهل السماء المسحورين على الدوام بجمال الله المتجلي لهم، يتنازلون فيصغون الى شكوى غرامه، ويشاطرونه الهيام بأصنامه ! لم يأنف عابد النساء من التصريح بأن تلك العبادة السافلة كل السفالة في نظر كل إنسان عاقل شريف، هي دين الحق، بل دين الأبد :

يـــا لـــهـــا الـــلـــه أُويـــقـــات الـــصـــبـــا

من أُويـــقـــات لـــهـــا عـــنـــدي يـــد

مـــعـــبـــداً قـــامت عـــلى دين الـــهـــوى

....

بجانب ذلك الغزل الإباحي المحض، الفاحش التطرف في الكيفية والكمية، نجد عدداً قليلاً من الروايات الجميلة .منها «آتيلا والشاعر»، يصور لنا فيها بشارة ذلك الفاتح الطاغية، القتول والهدام، تصويرا حسن الإيجاز، قائلا إنه لم يكن «سوى نقمة

الله وسيف الغضب، ملأ الأيام هولا ودما !» أتاه ذات يوم شاعر من الرومان يتزلف اليه بتعظيمه وتمليقه، فاستاء الجبار من مينه وفرط تذلله .

قال اتيلا: «اجمعوا لي حطبا
واربطوا من فوقه هذا الغبي ...
«**ويك !» ناداه، «لئن ترجع الى الـ**
ـكذب، أحرقك جزاء الكذب !»
لو بُلينا بأتيلا ساعة،
لشكونا من نفاد الحطب !

في ذلك البيت الأخير ما فيه من الاستهزاء المضمر اللاذع بقوم من بني الشرق العربي، قد بالغوا في تعفير وجوههم أمام العظماء استعطاءً لآلائهم وطمعا بحمايتهم.

قد أجاد كذلك الأخطل الصغير في «سقوط السلطان عبد الحميد الثاني»، بعد وصف بعض مظاهر ظلم هذا العاهل المستبد لرعاياه، وهبوطه الفجائي من أوج العز الى مهواة الذل والأسر، يخاطبه الشاعر بهذه اللهجة البليغة :

كنت تُبكي، فصرت تَبكي، وعهدي
بك، عبد الحميد، غير بعيد!
يا ليالية في سلانيك، قولي
لليالي في يلدز: «لن تعودي!»
يا لياليه، لا تريه ضحاياه،
فتعروه رعشة الرعديد!
وارحميه، فالشيخ هاوٍ، وما
للشيخ طاقة على التسهيد

كـــان بـــالأمس، والـــرعـــايـــا عـــبـــيـــد،
فـــغـــدا الـــيـــوم صـــاغـــرا لـــلـــعـــبـــيـــد!

رواية «عروة وعفراء» جديرة بأن تعد من فرائد شعرنا القصصي الحديث، موضوعها أن الفتى عروة قد وعده عمه وعداً كاذباً بأن يزوجه ببنته عفراء، وإنما سبب تلك المخاتلة فقر الشاب، وكان هذا قد خالط عفراء منذ طفولته، فهام بها هياما عذريا.ثم أراد عمه إبعاده حتى يعقد لسليلته قرانا آخر، فأشار على عروة بالسفر الى الشام سعيا وراء تجارة رابحة، وانتهز فرصة غيابه لاختيار زوج آخر لعفراء، وهو «اثالة» الوافر الثروة، بلغ عروة ذلك النبأ الفاجع، فطارت نفسه شعاعا، بل كان هول تلك المصيبة سبب موته العاجل .فاستأذنت عفراء بعلها في أن تحج قبر ابن عمها ورفيق صباها ومحبوبها الوحيد، فنزل عند رغبتها. يقول بشارة في ختام تلك الرواية الشعرية:

....

فـــمـــا هي غـــيـــر بـــعض ثـــوانٍ
حـــتـى رأيت بـــقـــبـــر عـــروة بـــانـــةً
مـــحـــنـــيـــة - وا لـــهـــفـــتـــا لـــلـــبـــان -
وســـمـــعت أيـــة زفـــرة وشـــهـــدت أيـ
ـــة ثـــورة ولمـــست أي حـــنـــان!
«وا عـــروتـــاه!» ولم تـــتـــم نـــداءهـــا
حـــتـى ارتـــمت، فـــإذا هـــنـــا مـــيْـــتـــان؛
ضـــمـــوا الـــفـــتـــاة الى الـــفـــتـى في حـــفـــرة،
من فـــوقـــهـــا غـــصـــنـــان مـــلـــتـــفـــان!
روحـــان ضـــمـــهـــمـــا الـــهـــوى فـــتـــعـــانـــقـــا
وتـــعـــاهـــدا، فـــتـــعـــانق الـــكـــفـــنـــان

«الريال المزيف» آخر مثال نذكره من ذلك النوع الروائي. يقص علينا بشارة في تلك القصيدة حادثا أليماً جرى في وطنه لبنان، إبان الحرب العالمية الأولى. امرأة تركها زوجها في الفقر المدقع وانضوى الى الجيش، وكانت لها طفلة كاد المرض يوردها

حتفها، وقد حال إملاق أمها دون شراء الأدوية اللازمة. ثم سام عرضها نذل رآها في ذلك الموقف الحرج غنيمة باردة بين يديه، فأوهمها الشيطان الرجيم وحنانها الوالدي سواغ الانقياد لذلك المجرم الوغد، فسقطت في حباله. بعد قضائه نهمته فيها أرادت تخفيف آلام بنتها بالريال الذي باعت به ماء وجهها، فإذا هو زائف ؛ فبالمرارة خيبتها، وقد زادت فدح عارها ! هي رواية حادث مبتذل، قد شاهد الملوان آلافا مؤلفة من أمثاله، على أن قريحة الشاعر قد صاغت به قصيدة رائعة بإجادة الوصف وبكثرة الخيالات الجديدة ؛ دونكم أبياتها الأولى:

ويح الفقير ! فما تُراه يلاقي ؟
سُدت عليه منافذ الأرزاقِ!
عصفت به وبسربه ريح الشقا
فتساقطوا كتساقط الأوراق!
فإذا بصُرت به، عجبت لشمعة
كالزعفران تجول في الأسواق!
علقَ المجاعة مص نصف دمائه
وتعسف الحُكام مص الباقي!
أخذ الشقا يدها، فسارت خلفه،
والليل ممدود على الآفاق
سارت فماس الخيزران بقدها
ورنت فذاب السحر في الأحداق !
وتلوح آثار النعيم بخدها
كالفجر قبل تكامل الإشراق !

الشعر الوصفي المحض قليل جداً تحت يراع بشارة ؛ هاكم أجمل أبياته على شاب مسلول :

عيناه عالقتان في نفَق
كسراج كوخ نصف متقدِ ...

تـــهـــتـــز أنمـــلهُ فــتـــحـــســـبـــهـــا
ورق الخـــريف أُصـــيب بـــالـــبـــرد...
يمـــشي لـــعـــلـــته عـــلـى مـــهَـل
فـــكـــأنه يمـــشي عـــلـى قـــصَـــد
ويمجّ أحـــيـــانـــا دمـــاً، فـــعـــلـى
مـــنـــديـــله قـــطعٌ من الـــكـــبـــد ! ...
قـــطع تـــقـــول له «تـــمـــوت غـــداً»
وإذا تـــرقّ، تـــقـــول «بـــعـــد غـــد» !
والمـــوت أرحم زائـــر لـــفـــتـى
مـــتـــزمل بـــالـــداء مـــغـــتـــمـــد !

لقد أجاد أيضًا وصف المهاجر ؛ يخاطبه قائلا :

أشـــجَـــاك أنك رائح، لا تـــرجعُ
وهـــواك والأوطـــان بـــعـــدك بـــلـــقعُ ؟
مـتـلـفتٌ ؛ مـا تـبـتـغي ؟ مـتـوجع
مـا تـشـتكي ؟ مـتـنـصت ؛ مـا تـسـمع ؟
تـلك الـزغـالـيل الـتي غـادرتـهـا
جف الـثـديّ ومـات عـنـهـا المـرضع !
لا الـريش مـكـتـمل، ولا أوكـارهـا
خُـضـر، ولا الـسـجع الـبـكيّ يـشـفّع !
ولـكـنت تـسـفك نـاظـريك لـيـرتـووا
وتـذيب قـلـبك في يـديـك لـيـشـبـعـوا !
جـرس الـكـنـيـسـة، لـو تـكـلم، لاشـتـكى
ولـبـان فـيـه، مـذ نـأيت، تـصـدع !...
الجـوزة الخـضـراء بـعـدك صُـوحت
إلا وُريـقـات تـكـاد تـودع

تفضي الى النسمات في غدواتها
عما تكابد في نواك وتجرع
لو في الألى خذلوك بعض حنانها،
لتقصفت جزعاً عليك الأضلع !...
لله انت مغرّباً ومشرقاً،
تذريك عاصفة وأخرى تزرع
حتى اندفعتَ، فكل صخر روضة -
سلمت يداك - وكل أفق مطلع
وفتحت فتح العبقرية تاركاً
في مسمع الدنيا صدى يترجع !

قال في وصف رزايا الحرب :

كم شموس في سما الماضي وكم
من نجوم في سما المستقبل
ويتيمات فنون جمة
حُسبت من معجزات الأول
فإذا تلك انطفت شعلتها
وإذا هذي كبالي طلل
ولكم روضة بيت ذبلت
وهي لولا حرها لم تذبل !
وفتاة طفلة قد سألت
أمها : «أين أبي لم يُقبل
فلقد طالت بنا غيبته
وأنا اشتقت لتلك القُبل ؟»

قد أجاد بشارة في بضع قصائد صوغ الشعر الوطني، ولاسيما في نشيد لبنان ذي الوزن السريع كخطى جيش حامل على العدو، أو كصيحات عالية متتابعة مثل قصفات الرعود، ملتهبة بنار الحماسة، ملؤها الافتخار بمجد لبنان والغيرة على الذود عن حماه، إليكم لازمته ودورين منه :

لــبـنـانْ ، لـبـنـانْ !
حــرَم الأرز ، عــلَـم المجــد ، وطـن الأحــرارْ
ســلامْ !
الجــمــال رصّــعــا
بــأزاهــيــرٍ رُبــاكْ
والجــلال تــوجــا
بمــصــابــيـح هــداك !
والــيــراع والحــســامْ
في المــلــمــات الجــســامْ
كــل آنْ، كــل آنْ
ذائــدان عــن عُــلاكْ
حــارســان لــلــواكْ
نــحن في الــســلم ابــتــســامْ
وصــفــاء ووفــاءْ
وأكـفّ مـن غــمــامْ
ووجــوه مـن حــيــاءْ
وإذا دق الــنــفــيــرْ
نمـلأ الــغــاب زئــيــرْ
وحــديــداً ودخــانْ !
مــات مــن رام أذاكْ
عــاش مـن مــات فــداكْ !

رثى لشقاء مئات قُرى لبنانية غادرها كثير من أهاليها، طمعاً بمكسب أوفر في المدن، فحثهم بأبيات جميلة على العودة الى ضياعهم واستغلال مواردها:

عودوا الى تلك القرى، فلقد
سلختكمُ عن قلبها المدنُ
لا الحقل يبسم عن معاولكم
فيه، ولا تترنم المهن
ذوت الرياض، ومأوكم عممٌ
وتعطلت من حَليها القُنن
محراثكم صدئ الحديد به
والفأس ملء عيونها الوسن
وخوت زرائبكم، وكان على
جنباتها يتدفق اللبن
خلت المرابط من سوابقها
وتثاءبت بحبالها الأتن
عودوا الى تلك القرى، فعلى
بسماتها يتمزق الحزَن!

سنة ١٩٣٥ كان أهل ضياع لبنان في ضيق شديد، وقد تفاقمت تباريحه بقسر الجباة إياهم على دفع بقية الضرائب، فألهم ذلك الخطب الفادح بشارة قصيدة «الجابي» التي نعدها من أحسن قصائده؛ هاكم بعض أبياتها:

إلهي، أي دهياءٍ
يردّي مثلها مثلي
ويشكو فقرَه قبوي
ويشكو محْلَه حقلي
وشاتي، وهي أم البيت،
يشكو ضرعها طفلي!

رويـــداً، يـــا أخـــا الـــهـــيـــجـــاء،
قــــــد أســــــرفت في الـــــقـــــتل!
ألا تُـــــبــــــقـي عـــــلى شيء ؟
فـــــمن يــــحــــيـــــا بلا أكل؟
كــــفـــانـــا أنـــنـــا نمـــشي
من الـــــبــــــؤس بلا نــــــعل
وأنّـــــا نمـــــضغ المـــــوتـــــين
مـــن ظــــــــــــــــــلـــم ومـــن ذل!
فـــــمن أغـــــرى الــــرزايـــا بي،
ومن أنت ؟ - أنـــــــا الجــــــابي

قد ثارت وطنيته أشد ثوراتها حين شاهد في أربعة أعوام الحرب العالمية الأولى، الجوع الهائل، الذي قصد به الأتراك استئصال أهالي قرى لبنان، يفتك فتكًا متواصلاً بربوات منهم، فقال بقلب جريح :

أعــشق الــلــيل، ومـــا لي والــضــحى ؟
عـــشتَ، يـــا لـــيل، ألا فـــانـــســـدلِ!
انــسَــدِلْ تحــجبْ عن الــطــرف الــشــقـا ؛
يـــا لــطـــرف بـــالـــشـــقـــا مـــكـــتـــحل
لا يـــرى ، إذ تـــطـــلـع الـــشـــمس، ســـوى
ســــــائل أو عــــــاجــــــز أو وكـــــل
عــصف الــفــقــر بـــهم ، فـــانـــتـــشـــروا
كـــانـــتـــشـــار الـــوابىء المـــســـتـــفـــحل!
يـــلــــهــــمــــون الــــعــــشب من جـــوعــــهم ؛
ويـــحــــهم ؟ مــــا تـــركـــوا لــــلـــهـــمـــل؟
بــــجــــســــومٍ هُـــزّل تحــــمـــلـــهـــا
بــــعـــــيـــــاءٍ واهـــــيـــــات الأرجل

ووجـــــوه كــــــتب المــــــوت عــــــلى
صــــفــحـــتـــيـــهـــا «هـــذه الأوجه لي» !
صــــدق المـــــوت بمـــــا قـــــد قـــــالـــــه ؛
مـــــا تـــــرى أشلاءهـم في الـــــسُـــــبل ؟

لم يتمالك بشارة عن الاقتداء بمعظم شعرائنا المعاصرين، في نظم قصائد المدح والرثاء عند سنوح الفُرص، وهي أكثر من أن تُعد في الشرق العربي .

والحال أن كل خبير في كنه القريض وسمو غايته، يعلم علم اليقين أنه بعيد عن المدح والرثاء بُعد الثريا عن الثرى، إلا في بعض الظروف النادرة التي يفيضان فيها عفواً من أعماق فؤاد الشاعر، لا من شفتيه أو أسلة قلمه فقط .

من أمثال فساد ذوق الأخطل الصغير في تبجيل العظماء، قصيدته للترحيب بملك العراق الطفل، فيصل الثاني، عند قدومه الى لبنان سنة ١٩٣٩ . في البيت الثاني منها يخاطب سيادة الضيف الجليل، صائحاً بها، وهو لا يأبه لتكلفه المضحك :

يـــا ســـلـــيل الــبــخـــار ، كم من فـــؤاد
ود لـــو كـــان بـــين جـــنـــبـــيك وقـــدا !

ثم يتطرق بمثل ذلك التصنع الى ذكر النكبة التي أودت بحياة والد فيصل الثاني، وهو راكب سيارته في إحدى ليالي نيسان سنة ١٩٣٩ :

يـــــا ابـن من أذهـل الـــــنـــــجـــــوم إذ
انـــقضّ شــهـــابـــاً عـــلـى الـــثـــرى وتـــردّى
مـا نـسـيـنـا جـرحـاً عـلى الـلـيل، أمـست
فــحـــمـــة الـــلـــيل مـــنه جـــمـــراً ونـــدا !
قـــطـــعت شـــعـــرهـــا الـــكـــواكب كي
تـــمـــسح جُـــرحـــاً وكي تـــوسّـــد خـــدا
وانـــحـــنت كل نـــخـــلـــة كـــجـــنـــاح
أخـــضـــر الـــريش، ودّ لـــو كـــان زنـــدا

نجد ذلك العيب ذاته في رثاء بشارة لوديع عقل :

العبقرية، ما حييتَ، جناية،
فخُذ الذمام لها من الإلحاد
تمشي على حسك الصدور وشوكها
وتُلف بعد الموت بالأوراد !...
أيُقام وزنٌ للبيان، وقد رمى
سهم المنية منه قلب الضاد
فتقطعت مُهج وفاضت أعين
رمت الخدودَ بكل أوطف صاد
مطرٌ كما انتثر الجمان على اللظى
وتكسّر البلّور في الأجياد!

لا نرى مثل تلك المغامز في رثائه لنصير المرأة الشهير مختار بيهم. نعلل ذلك بكون الشاعر قد أخرج ذلك الرثاء من فؤاد مفعم بأحر عواطف الإجلال والمحبة للفقيد العزيز، فأتت قصيدته مضطرمة بلهيب شعوره، مزدانة بحُلى الابتكار الطبيعي ولاسيما إذ يندب بيهم قائلا عنه :

الذي كان خادماً لبلادهْ،
الذي كان جذوةً تتوقدْ
الذي كان صافياً كالغدير
الذي كان ماضياً كالمهنَّدْ !

☆☆☆☆☆

الهميني، يا ربة الشعر، شعراً
كالنور والنارْ،
كالهوا، كالأطيار، كالفكر حُراً،
كنفس مختار!

كــــالأعــــاصــــيــــر ، إن دعــــتـه الـــبلادُ

وخــــافت الـــعـــار

كـــالأزاهــــيـــر، إن دعــــاه الـــودادُ

وحُــــرمـــة الجـــار

قد أطلنا الكلام في تحليل معاني شعر الأخطل الصغير، مع التمييز بين غثها وسمينها. أما لغته، فليست خالية من الأخطاء الجسيمة، كاستعمال جوانح بمعنى أجنحة، ووديان بدلا من أودية، وقوله «الجحيم الأعظم» مع أن ذلك الموصوف مؤنث، وإتباعه بعض الأفعال المتعدية باء الجر :

«أرادوا بأن أكون العريس»، «لا تنسي بأن تستري ذلك الجبين»

من جهة أخرى تكثر في شعره الكلمات المماتة التي يمجها كل ذي ذوق سليم . الوضوح ناقص جداً في مئات من أبياته، فهي ألغاز غامضة. نضرب لكم مثلاً على ذلك، وهو حفنة من كثيب :

لـنـا الـكـروم ؛ فـهل في الـقـول من حـرج

إذا سـألـنـاهـمُ «اين الـعـنـاقـيـدُ»؟

ولا سلاح سـوى الـوعـد الـذي قـطـعـوا،

تـفـنى الحـيـاة ولا تـفـنى المـواعـيـد

لا ننكر أن لبشارة نزعة شديدة الى ابتكار الخيالات، وقد ابتدع منها عدداً لا يستهان به، هاكم باقة بهيجة منها :

فـيـصـوغ هـيـنـمـة الـنـسـيم قـصـائـداً،

ويــردّ زمــزمــة الــغــديــر أغــاني

....

ضــرب الجــوعُ بــصــمــصــام رهــيفْ،

فــإذا قــتـلاه مـلء الــسُــبلِ

«هلال الأفق في حضن المغيب»، «تلبسون خوذة الإقدام»، «فتى كاسي الغنى عارٍ من الأخلاق»، «ترعى السفالة في مجاهل قلبه»، «أيها الفقر، إن كنت قوّاد الزنى ...»، «شعاع الشمس يضحك لي»، «قسمتُ فؤادي بين بؤسي والهوى»، «زحم الصبحُ الظلام»، «آمال مجنّحة» .

بيد أن التكلف المستهجن في الخيالات أكثر جداً من ابتكارها. يسهل علينا إثبات ذلك الرأي بمئات الأمثال، بيد أن ضيق المجال يضطرنا الى الاكتفاء بذكر هذه:

«ســـكـــرَ الـــروض ســـكـــرةً صـــرعـــتـه

عـــنـــد مـــجـــرى الـــعـــبـــيـــر من نـــهـــديك»

☆☆☆☆☆

«أنـــا في شـــمـــال الحب قـــلب خـــافقٌ،

وعـــلى يمـــين الحق طـــيـــرٌ شـــادِ»

«الله برى ريشة من جناح الملاك، وغمسها بفؤاد الصباح»، «أكاد أمشي بلا رأس»، «تختال فاطمة على خدود رياض لبنان»، «استلني الشقاء حساماً في نهاري، وصيّر الليل غمدي»، «رآها الليل فاختار المقام في شعرها»، «ساعدٌ من الضحى مفتول، تغمره بالقُبل الحقول»، «قلبي فاغرٌ فمه للحب»، «براعم الأقلام لم تتفتق»، «يكسو الجراحَ افتراراً»، «يا قامة (قامة فتاة) من قصب السُكر رخص العُقد»، «الكواكب قطعت شعرها لكي تنسج بُرداً» .

تلك الخيالات المشينة بالتكلف ترد تترى في كثير من قصائده، كما يرى القراء في المثلين التاليين. قال بشارة في وصف زحلة ونُهيرها البردوني وسهل البقاع المتاخم لها:

أســـرفتِ في فـــتن الجـــمـــال، كـــأنمـــا

تـــخـــذ الجـــمـــال عـــلى ذُراك مـــنـــابـــرا ! ...

والـــنـــهـــر روح الـــعـــاشـــقـــين ودمـــعـــهم،

مُـــلـــقى عـــلى قـــدمـــيك، يـــلـــهث خـــائـــرا

ســـالت جـــراحـــات الـــهـــوى في صـــدره

لـــيلاً، فـــقـــبّـــلـــهـــا الـــنـــســـيم مـــحـــاذرا

والـســهل يــحــلم، مــنــذ كــان، بــزورة
لـــبس الحُــليّ لـــهـــا نـــدًى وأزاهـــرا
لـو كـان يمـكـنـهـا الـرُبى، لـتـسـابـقت
لأعــزِّهـــا، تـــســـعى الـــيك حـــواســـرا،
وتـــقـــطــعت خُــصل الـحـســان ونُـــثّــرت
بـــدل الـــكـــروم عـــلـى الـــتلال غـــدائـــرا

قال في وصف سلمى الكورانية :

تــعـجّب الـلـيل مـنـهـا عـنـدمـا بـرزت
تـسـلـسل الـنـورَ في عـيـنـيه عـيـنـاهـا
فـظـنـهـا، وهي عـنـد المـاء قـائـمـة
مـنـارةً ضـمـهـا الـشـاطي وفـدّاهـا !
وتـمـتـمت نجـمـة في أذن جـارتـهـا
لمـا رأتـهـا وجُـنّـت عـنـد مـرآهـا :
«انـظـرن، يـا إخـوتـا ؛ هـذي شـقـيـقـتـنـا
فـمن تُـراه عـلـى الـغـبـراء ألـقـاهـا ؟
«أتـلـك من حـدّثت عـنـهـا عـجـائـزنـا
وقـلـن إن مـلـيـك الجـن يـهـواهـا ؟»

فضلاً عن التصنع المتواتر ، كثيراً ما تشين شعر بشارة المبالغة الفاحشة. نكتفي بذكر ثلاثة أمثلة عليها، خوفاً من إضجار قرائنا : يقول بعد موت فوزي المعلوف «**تعرّى روض البيان من السجع**»، وفي رثاء الياس فياض :

خــبـا كل سـاطـع في سـمـاهُ
وذوى كل زاهـــر في جـــنـــانهْ

وفي وصف انهيار صرح شامخ : «**جبل من البنيان زُلزل فوقهم** .»

مع كل العيوب التي فصّلناها وأثبتناها بالبراهين الدامغة، نرى الأخطل الصغير يجاهر في «نياشين» – وهي كلمة غير عربية – بفرط إعجابه بذاته، وذلك من أقصى درجات الكبرياء والادعاء. هاكم تلك الأبيات بحذافيرها :

أيــفــرضــون عــلـى مــثــلـي ملابــســهم

ويــســألــون ثــيــابي عن نــيــاشــيــني

كــأنــني لم أكن عــنــوان فــخــرهم

يــوم انــطلاق الــقــوافي في المــيــادين ؟

إني لمن مــعــشــر، لــولا يــراعــتــهم

مــا كــان لــبــنــان غــيــر المــاء والــطــين !

من المعلوم أنه لا يجوز، في جميع الأقطار المتمدنة، لقاضٍ، أياً كانت درجته في مراتب القضاء، ان يصدر حكماً في شؤونه الشخصية . قد نسي بشارة أو تناسى ذلك المبدأ السديد، فتوهم عن غرور محض، أنه في مقدمة نوابغ شعرنا العصري الناهض. أما نحن، فإننا لا نشاطره ألبتة ذلك الرأي الفائل. مع اعترافنا بأن في قصائده بعض الدرر، وإن شابتها شوائب، يضطرنا النقد الجريء النزيه الى التصريح بكثرة ما فيها من اللؤلؤ البهرج. هذا لا يروق سطوعه إلا عيون جاهلي أصول الأدب الصحيح، الثابتة في كل عصر ومصر، في أرقى بلاد العالم، بدليل كون أعظم أدباء الخافقين يتقيدون بها ولا يحيدون عنها أصلاً ؛ ولولا ذلك لما بقي جمال مؤلفاتهم كاملاً فتانا في ترجماتها الى أشهر اللغات .

الأب رفائيل نخلة اليسوعي

****

ابيض

الأخطل الصغير
شاعر الشعب والحرية والإنسانية

توفيق إبراهيم

للأخطل الصغير مكانة رفيعة في عالم الشعر يحسده عليها كبار الشعراء في جميع الأقطار العربية. وهو رجل ظريف، أنيق الشكل. لطيف المعشر، مرهف الحس، رقيق الشعور حاضر النكتة. وعندما يتلو قصائده الرائعة أمام مستمعيه ورواد مدرسته تتدفق خواطره الشاردة من رموش عينيه البراقتين ، وتترقرق درر الألفاظ على عقيق شفتيه الرقيقتين، وتتألق الصور الشعرية في صفاء ذهنه المتوقد وتتناثر كالأحلام المجنحة، وتذوب كما يذوب الأرج الناعم في مهب الريح.

وشاعرناالكبير، بل أمير الشعراء، ينظم القصيدة وينحتها نحتا دقيقا، وينقحها بروية وإتقان ويسكب عليها أرجاً من روحه وفيضاً من جروحه، فتأتي آية في الروعة والإبداع. إنه أمير الكلمة الحلوة والمصور المبدع الخلاق، قصائده الخالدة جواهر نادرة تتألق على لوحة الفن بأجمل الصور وأطرف الألوان. طوى الثمانين من عمره وما يزال يتمتع بنضارته ورونقه وخفة روحه. وهو الشاعر الوحيد الذي ينعم ويتمتع بتقدير ومحبة العالم العربي على اختلاف مذاهبه ونزعاته، وأول من رصع جيد الشعر العربي الحديث بأغلى الجواهر والعقود.

والأخطل الصغير شاعر الشعب الثائر، وعدو الاستعمار والمستعمرين. ثار على الظلم التركي، وتمرد على الجور والطغيان، ووقف بوجه الانتداب الفرنسي وقفة الند للند، وصفع «أمنا الحنون» تلك الصفعة الموجعة عندما خاطب وطنه الحبيب لبنان بقصيدة أقتطف منها هذا البيت الرقيق الموجع:

كـــثـــرت عــــلـــيك الأمـــهـــات ومـــا درت
أرحــــــامـــــــهن وكـل أم ضـــــيـــــغـم

■ الرحمة، نيسان ١٩٦٧، العدد ٤ ، السنة الثالثة.

أجل، لقد كثرت علينا الأمهات والجدات، والأوصياء الأعداء الألداء، وكلهم ضياغم ووحوش تتكالب على أرزاقنا وخيرات بلادنا.

إن الشاعر الذي يتحدى الاستعمارالفرنسي في أوج مجده، ويصفع «أمنا الحنون» بمثل هذا البيت الرقيق الموجع، هو أمير الشعر العربي دون منازع.

وعندما كشف الاستعمار البريطاني أوراقه وطلع علينا بمشروع «صهينة» فلسطين.. ثار الأخطل الصغير ونظم رائعته الخالدة وقذفها حمماً مدمرة في وجه هذا الاستعمار. وكان لصيحاته الهادرة دوي الرعود في صدور المستعمرين. قال حفظه الله:

يــا فـلــسـطــين الــتي كــدنــا لمــا
كــابــدته من أسى نــنــسى أســانــا
نــحن يــا أخت عــلى الــعــهــد الــذي
قــد رضــعــنــاه من المــهــد كلانــا
يــثــرب والــقــدس مــنــذ احــتــلــمــا
كــعــبــتــانــا وهــوى الــعُــرب هــوانــا
قم إلى الأبــطــال نــلــمس جــرحــهم
لمــســة تــســبح بــالــطــيب يــدانــا
قم نجع يــومــا من الــعــمــر لــهم
هــبه فــصح الــصــوم، هــبه رمــضــانــا
إنمــا الحق الــذي مــاتــوا له
حــقــنــا نمــشي إلــيه أين كــانــا
ضــجت الــصــحــراء تــشــكــو عــريــهــا
فــكــســونــاهــا زئــيــراً ودخــانــا

وهذا البيت الأخير تردده قبيلة عربية في صحراء «موريتانيا» معروفة بقبيلة «البيضان». وقد روى لي أحد أفراد تلك القبيلة قصيدة طويلة للأخطل الصغير عنوانها «على ضفاف بردى»، منها هذه الأبيات الجميلة التي يصف فيها شاعرنا الكبير «أبناء جفنة»:

إني وقــفت بــهــا أســائل عن فــتى
من آل جــفــنــة رائح أو غــاد

الحـــامـلـــين الــشــمس فــوق وجــوهـــهم
والحـــامـــلــين الـــشـــهب في الأغـــمـــاد
رفـعـوا الـشـآم عـلـى الـصـفـائح والـنـدى
وبـــنـــوا من الـــصـلـــبـــان بـــيت الــضـــاد

فلا يسعنا إلا أن ننحني بخشوع أمام روعة تلك الأبراج الشامخة، والصور الساطعة والقوافي المتألقة في سماء الشعر العربي الرفيع. لقد جمع الشاعر بأسلوبه الرشيق الشفاف بين دقة الوصف.. والرقة والعذوبة.. وسمو الخيال وقوة التعبير. وها هو الأخطل الصغير يصف نفسه بنفسه ويعطينا صورة صادقة حية عن الثورة الهادرة المتفجرة في صدره:

ولـــربمـــا خـــدعـــتك صـــفـــحـــة هـــادئ
مـــني وفي الأحـــشـــاء عـــصف ريـــاح
إني إذا جـــنت ريـــاح ســـفـــيـــنـــتي
ذهب الجـــنـــون بـــحـــكـــمـــة الملاّح

أما القصائد الخالدة التي ارتفعت بشاعرنا الكبير إلى ذروة الشعر والشهرة والمجد فهي تلك المراثي التي توجت جبين الأهرام بأكاليل الغار، وغناها النيل ورددتها أمواج دجلة والفرات، ومنها قصيدته المشهورة في رثاء سعد زغلول ومطلعها:

قـالـوا دهت مـصـر دهـيـاء فـقـلت لـهم
هل غـيّض الـنـيل أم هل زلـزل الـهـرم؟
قـــالـــوا أشـــد وأدهى قـــلت ويـــحـــكم
إذن لـقـد مـات سـعـد وانـطـوى الـعـلم

وقصيدته الرائعة في رثاء أمير الشعراء أحمد شوقي ومطلعها:

قف في ربى الخـلـد واهـتف بـاسم شـاعـره
فـــســـدرة المـــنـــتـــهى أدنى مـــنـــابـــره
وامـسح جـبـيـنك بـالـركن الـذي انـبـلـجت
أشـــعـــة الـــوحي شـــعـــراً من مـــنـــائـــره

ومنها:

شوقي، أتذكر إذ «عاليه» موعدنا
نمنا وما نام دهر عن مقادره؟
شوقي، سلوا الأفق هل ثارت عجاجته
لما انطوى المتنبي في دياجره؟
في موكب الشعر والأقلام مطرقة
فإن أرادته غصت في محابره
سألتنيه رثاء خذه من كبدي
لا يؤخذ الشيء إلا من مصادره

أما قصيدته الرائعة في رثاء الملك فيصل الأول فقد روى لي الصديق يوسف ابراهيم يزبك أن بغداد قد زحفت عن بكرة أبيها لتلثم يد الأخطل الصغير بعد خروجه من القاعة التي جرت فيها حفلة تأبين الملك الراحل. وقد أصبحت قصيدة الشاعر اللبناني الكبير حديث الشعب العراقي بأسره، ومطلعها:

لبست بعدك السواد العواصم
واستقلت لك الدموع المآتم
ود لو يفتديك صقر قريش
بالخوافي من الردى والقوادم
أسندوا البيت بالصدور فقد ماد
وخانت جدرانهن الدعائم
فيصل العُرب أي غمديك للفخر؟
أغمد الندى؟ أغمد العزائم؟
لك في كل ذروة من فؤاد
منبر فوقه مصلٍّ وصائم

والعراق لا يزال يردد قصيدة الأخطل الصغير في رثاء الفيلسوف العراقي جميل صدقي الزهاوي، ومطلعها:

قولي لشمسك: لا تغيبي
وتكبدي فلك القلوب

بـــــغـــــداد، يــــا وطن الجـــــهـــــا
دِ ومـــــــرتـع الأدب الخـــــــصـــــــيب
غـــــنَّـــــاك دجـــلـــــة والـــــفـــــرا
ت قـــصـــائـــد الـــزمن الـــعـــجـــيب

ومنها:

بـــــغـــــداد، مـــــا حـــــمل الـــــسـرى
مـــــنـي ســـــوى شـــــبـح مـــــريب
جـــــفـــــلـت لـه الـــــصـــــحـــــراء والـ
تـــفت الـــكـــثـــيب إلى الـــكـــثـــيب
وتـــــنـــــصـــــتت زمـــــر الجـــــنـــــا
دبِ من فـــــويـــــهـــــات الـــــثـــــقـــــوب
يــــتـــــســــاءلـــــون وقـــــد رأوا
قـــــيس المـــلـــــوح في شـــــحـــــوبي
والـــتـــمـــتـــمـــات عـــلـى الـــشـــفـــاه
مـــخـــضـــبـــات بـــالـــنـــســـيب
يــــتـــــســــاءلـــــون: من الـــــفـــــتـى الـ
ـــــعـــــربي في الـــــزي الـــــغـــــريب؟

وفي المهرجان الكبير الذي أقمناه للأخطل الصغير في بيروت عام ١٩٦١ شاء الشاعر العراقي الكبير محمد مهدي الجواهري أن يرد التحية بأحسن منها، فنظم قصيدته على القافية والوزن نفسهما ومطلعها:

لـــبـــنـــان يـــا خـــمـــري وطـــيـــبي
هلا لمـــــمت حـــــطـــــام كـــــوبي
هـلا أعـــــدت لـي الـــــصـــــبـــــا
نـــشـــوان يـــرفل بـــالـــطـــيـــوب
نـــزق الـــشـــبـــاب عـــبـــدته
وبـــــرئـت من حـــــلـم المـــــشـــــيب

ومنها:

الأخـــــطل الجـــــبـــــار جـــــا
ءَ الـــكـــوفـــتـــين عـــلـى «نجـــيب»
وأبـــو الـــعـلاء عـــلـى بـــنـــا
تِ المـــاء تحـــدى بـــالجـــنـــوب
وذعـــرت صـــحـــراء الـــعـــرا
قِ بمـــوكب الـــنـــار المـــهـــيب
وأتـــيت لـــبـــنـــانـــا بـــجـــا
نـــحـــتـــين من ريح غـــضـــوب
مـــثل المـــســـيح إلى الـــســـمـــا
ءِ وقـــد حـــمـــلت عـــلـى صـــلـــيب
كـــأسي تـــصـــفّق بـــالـــغـــمـــا
مِ بـــكف غـــيـــداء لـــعـــوب
ســـخـــرت عـــصـــافـــيـــر الـــســـمـــا
ءِ بـــخـــائـــفـــين من الـــوثـــوب
بمـــزعـــزعـــين تـــوجـــســـاً
ومـــحـــزّمـــين عـــلـى الجـــنـــوب
واســـتـــصـــغـــرت «زمـــر الجـــنـــا
دبِ» في فـــويـــهـــات الـــثـــقـــوب

هذه تحية شاعر العراق الكبير الذي شبه نفسه بـ «جنادب العراق» عندما أطل على سمائنا وشاهد من خلال ثقوب الطائرة عصافير لبنان طليقة حرة تسخر به وتثأر للعندليب اللبناني من «الجندب العراقي» المحزم بحزام الطائرة.

أما روائع الأخطل الصغير الغزلية فهي تلك القصائد التي غناها مطرب الجيل الأستاذ محمد عبدالوهاب، ومنها «الهوى والشباب» ، «جفنه علّم الغزل»، «يا ورد مين

يشتريك»، «الصبا والجمال»، وكذلك قصيدته «اسقنيها بأبي أنت وأمي» التي لا تزال درة الغناء الشعري في حنجرة أسمهان.

هذه لمحة خاطفة وصورة مصغرة عن عبقرية شاعرنا الكبير الذي كحَّل أهداب الشعر العربي بألوان ريشته الساحرة وكتب صفحة خالدة من صفحات العزة والكرامة في تاريخ لبنان وطن النجوم ومعقل المجد والحرية.

هذا وأجمل ما في الأخطل الصغير ذلك الصدر الرحب، المرصع بأوسمة الشرف التي أوحت إليه هذه الأبيات الساطعة سطوع الشمس في وضح النهار:

أيفرضون على مثلي ملابسهم
ويسألون ثيابي عن نياشيني؟!
كأنني لم أكن عنوان فخرهم
يوم انطلاق القوافي في الميادين!
إني لمن معشر لولا يراعتهم
ما كان لبنان غير الماء والطين

هذا هو الأخطل الصغير، شاعر الشعب، شاعر الحرية، شاعر الإنسانية، الذي احتفلنا بتكريمه عام ١٩٦١ وأقمنا له ذلك المهرجان الضخم في قصر الأونيسكو الذي تحول إلى سوق «عكاظ» وجرت فيه مبايعة الأخطل الصغير إمارة الشعر العربي.

توفيق إبراهيم

****

ابـــــــــــــــــــــيــض

مدخل الى دراسة
الشعر العربــي الحديث

أنطون غطاس كرم

فيما كان خليل مطران يتوق إلى هذا التحدي من كمال الصياغة والنفس المديد والصنع الوعر، قيض للأخطل الصغير[١] أن يتلقى، على نحو الخليل، ثقافة مزدوجة، وأن يأخذ أصول الضاد على أحد أساطينها عبدالله البستاني[٢]. وكان البستاني أستاذه من أنبه المعنيين باللغة وفقهها، قبسها عن ناصيف اليازجي والشيخ يوسف الأسير. ووضع معجمه، وروى القديم، وشطَّر معلقة عنترة، ونظم الشعر على سيادة في العروض. وترجم عن الفرنسية واقتبس، وألف في المسرح منظوما ومنثورا. وقد انحدرت هذه الأصالة اللغوية الأدبية، وهذا الازدواج الثقافي منه الى طلابه وفيهم: شكيب أرسلان (١٨٧٠–١٩٤٦)، وديع عقل (١٨٨٢–١٩٣٣)، أمين تقي الدين (١٨٨٤–١٩٤٧)، شبلي الملاط (١٨٧٨–١٩٦٣) والأخطل الصغير.

حتى لينتهي الى الخاطر، ونحن على قراءة «الهوى والشباب» و «شعر الأخطل الصغير» أن صاحب هذا النتاج يمور بين ذوقين أدبيين هما وليدا ثقافتين مفترقتين، وأن هذين الذوقين ينفصلان الى حد، في أول عهده، ويتمايزان؛ ثم ينصهران مندمجين في الحقبة المتأخرة من منظومه.

أما الذوق الأدبي الأول فقد شارك فيه المخضرمين من حيث بنية القصيد، وطبيعة الموضوع، وحياكة الإنشاد ؛ ولا يخلو ان تلتمس، هنا وثمَّ، بعضا من مصطلحاتهم وقوافيهم ولمعاً من أغراضهم. ولكنما هذا القدر المشترك قد لطفته من ثقافة الأخطل

■ من كتاب صدر سنة ١٩٦٧ عن الجامعة الأميركية في بيروت في عيدها المئوي ١٨٦٦ ـ ١٩٦٦ .

الصغير عوامل. منها رجوعه إلى الموروث العربي من خلال كتاب الأغاني بالأخص. ويستوقفك من هذه الموسوعة أن تكوينها النثري مباين للمحنطات الحريرية والانحطاطية التي حركت ميول العروضيين ومقلدي الآداب القديمة في القرن التاسع عشر؛ وفي كتاب الأغاني ما يشبه البيان المرسل أنيق على غير افتعال، يسير على غير ابتذال، مشرق على حلاوة تردك عفوا او كأن. متنوع على مستوى المتحاورين من لغى الأقوام من السوقة والأعاجم الى أشد العلماء تزمتاً. كما يستوقفك أنه مختارات شعرية سيقت على الألحان، فإذا منظوم القدامى يأتيك منه على قيمتين: أنه شعر وأنه غناء. وأن الطرب هو الغرض كيفما دارت الوسائل. ويعنيك أيضا منه بالنسبة الى الأخطل الصغير ما اجتمع فيه من الإباحة والفتك ومن صفاء العذريين. حتى يتهيأ أن المكتبة العربية قد انفتحت لشاعرنا من خلال كتاب الأغاني تاريخاً وقصصاً وأخباراً وأدباً وغناء . ويترجح لديك أن تلك الحلاوة العفوية المرسلة في ديباجته، وأن طلاوة الغناء والإباحية التي شدها الخفر في غزله، والشهوة المقنعة بالبراءة أو بالعبث الحائر بين تحقيق الشهوة والامتناع، وأخبار عمر ونعم، وعروة وعفراء، لا ترى تفسيرها إلا في هذا المنبت الأول.

ومن هذه العوامل الملطفة أيضا أنه انصرف الى الصحافة، وسلخ في جريدة «البرق» حقبة من دهره. وما كان سبيل الى فصل الشاعر عن الصحفي: فكما تسنى للصحيفة حينذاك أن تبيت موئلا لجمهرة من الأدباء وسجلاً لنتاج شعري يأتيها من الأعلام الشعراء في تلك الحقبة، ومن أقلام المهجريين فتبثه في الناس وتعممه؛ كذلك تسنى للأخطل الشاعر أن يستل من الصحافة بعض قضاياها، وأن يدمجها في أحواله الفنية على ما يشبه الالتزام، بل يتضح كيف أن الهول العثماني قد فرض عليه الحيطة والتقية بحيث لا يجهر بالتحدي الصراح، فيتخذ من الغزل ومن لوحات الطبيعة حيلة فنية لتغطية ذاك التحدي السياسي، ويبطن بالغزل الرقيق أغراضه السياسية اللماحة، مما لم يسنح في الشعر القديم، ورافق هذا الحرص المستتر معظم شعره المتصل بقضايا العصر. يقل مجاهرة في العهد العثماني ويزداد صراحة في عهد الانتداب.

بل إنني أذهب الى أن اليسر الذي لا بد منه في الأداء الصحفي كان داعيا من دواعي اليسر في تركيبه الشعري، وإن ثبت لديك أن العبارة الصحفية في جريدة «البرق» لم تتأنق لتظل على مستوى الجمهور الأعم، فلا مراء أن الصحافة قد صرفت الشاعر عن الكد، والإغراب، والتركيب المجهود، والمنظوم المقفل، والفكر المستعمق، الى لون من الإشراق السهل الذي أسعف على تعميم منظومه في الناس، وأعده للمنابر حيناً وللغناء حينا. ويلوح لي، فوق ذلك، أن المتنفس الصحفي كثيرا ما كفاه مؤونة الشعر، إذ استرفدت «البرق» بعض شواعره وخواطره ونشاطه، فقل منتوجه الشعري رغم طواعية العروض، وطول معاناته القريض زمانا مديدا.

أما الذوق الأدبي الثاني فمرده الى أن هذا العامل الصحفي بالذات جعل جريدته ترجمانا لمختلف النشاطات الأدبية، ولا سيما ما انبث فيها من نقل الآداب الرومنطيقية وطلائع النتاج المهجري، حتى اختلط المجموع فرنسيّه ومهجريّه، فكان ذاك امتدادا لما تلقاه في دراسته الثانوية[٣]. وبصر بالرومنطيقية تنتقل الى الذوق العربي بفضل الترجمات أو مسوقة على صيغ المهجرين. وهكذا اشتبك الرافدان في تكوينه، ثم ترى لديه أن القصة الرومنطيقية تمتزج بالشعر الرومنطيقي الخالص، أو تستلهم أخبار الحب من «الأغاني» وتزفها الى المستهلك العربي قصصا شعريا مماثلا للمقتبس الغربي. حتى إذا تبقى من قوالب القدامى رواسب فأثارت حفيظة المجددين عليه، راح يسهم في تعميم الأثر الذي خلفته مبادئ الثورة الفرنسية عندنا، ويرافق الحركة القومية والتعاطف الاجتماعي واليقظة الإصلاحية العامة ويدرأ الظالم العثماني، ويربط هذي المفاهيم بفاجع العالم العربي ولبنان، ولا سيما ما دار في مأتم الحرب العالمية الأولى مجاعة ومشانق واستبدادا. ثم إن الطبيعة قد اكتست أشكالا وألوانا وقيمة استاتيقية وحالات نفسية مرت إليه بالعدوى من شعر الفرنسيين ومن نثر جبران، وطفق، على غرارهم، يستعين برسومها استكمالا لتركيب القصيد؛ فإذا كبا به الموضوع، أو هبط القصص الى مستوى النثر، اعتصم باللوحة الوصفية ليستعيد مرتفعه الشعري أو ضمن موضوعه المحلي مقتطفات مترجمة أو مقتبسة من شعر الرومنطيقيين في ضرب من المجاز المرسل. (انظر بعض مقتبساته مثلا وتضمينه في قصيدة عروة وعفراء: الهوى والشباب ص ٧٠ – ٧١ بعض أبيات الشاعر الفرنسي ألفرد ده موسه).

غير أن المجددين الذين عيروه باقتباسه الأجهزة القديمة، عابوه أيضا بالسرقة عن شعراء فرنسا(٤). ولكن هذا المقتبس الصريح ما عتم أن ذاب ليفنى في حقيقة الشاعر وفرديته. ومن هنا أن الأخطل الصغير يمثل في الشعر العربي الحديث مرحلة مكملة، ولا يمثل بداية في النوع. هي مرحلة اقتباس وصهر وتفاعل، وليست مرحلة توليد لمذهب أدبي جديد. ومن هنا أيضا موقفه المعتدل من نزاع المحافظين والمجددين. وصحيح القول أن هذا النزاع لم يجاوز الأعراض السطحية لأنه لم يستعمق نقديا وفلسفيا وعلميا، ولا هو أحاط بثقافة أدبية إنسانية شاملة كفيلة بأن تصبو به الى منحى مفارق لمنحاه: فإما أخذ عن القدامى عبر المخضرمين، وإما اقتباس مسطح لبعض آثار الفرنجة، يعقبها صهر معتدل خلو من التجلي الخلاق.

ولما شاعت مفاهيم الرمزيين في العقد الرابع من هذا القرن وقع للأخطل من شعرائها جهاز تعبيري مختلف عن أنماط الرومنطيقية الغالبة على ماضي نتاجه وهكذا تراه لا يعول على العمق الفكري، فيقف عند حكمة شوقي العارضة، وتستمر فيه نكهة عمود الشعر، ويتخلله نسيم الغناء العربي الحديث حتى يبلغ المنظوم الشعبي(٥)، ويتبدل المصهور من ثقافته الأدبية الى عطاء ماهد للرومنطيقية المتجسدة في شعر الياس أبوشبكة.

☆☆☆☆☆

فإن أَبْين ما يستوقفك من بناء المركب الثقافي في شاعرية الياس أبوشبكة، إنما يرد في أعلى ما يرد، الى تكوينه بالمسيحية، بل إنني أذهب إلى أنه لا يدرك بكلية شاعريته، انطلاقا من هذا التكوين المسيحي. حتى كأنه هو الأصل وكل ما تبقى فروع لهذا الرافد، وتكملة. وأقول، على سبيل القطع، إن هذه الثقافة بعينها هي التي ذوبت فيه موشور الرومنطيقية بألوانها جمعاء، على اعتبار أن الرومنطيقية، وما اتصل بالتصوف منها، موروث مسيحي. ولذا أيضا ظل شوقي، وعلي محمود طه، وأحمد زكي أبوشادي من جماعة أبولو، عند ظواهر الرومنطيقية وأعراضها ولم يلجوا هيكلها الروحي. وهذه هي الآفة التي سقط فيها رزوق وشوقي ضيف عندما درسا شعر أبي شبكة، إذ غفلا عن الطبقة الثقافية الأولى التي نمت فيها غذاءاته الأُخر.

أنطون غطاس كرم

الهوامش

١ – ولد في عام ١٨٨٤ . تعد الآنسة أبوجودة الآن رسالة للماجستير في الأخطل الصغير. راجع ديوانيه: الهوى والشباب (دار المعارف ١٩٦١، مع مقدمة بقلم سعيد عقل)؛ مجموعة جريدة «البرق»؛ مجلة المعرض ١٩٢٨ ـ ١٩٣٢؛ مجلة المكشوف ١٩٣٦ ـ ١٩٣٩ . شرارة، عبداللطيف: الأخطل الصغير في سلسلة «شعراؤنا» دار صادر ودار بيروت ١٩٦١ .

٢ – ١٨٥٤ ـ ١٩٣٠ . انظر بشأنه: داغر، يوسف أسعد: مصادر الدراسة الأدبية، ج ٢ ، ص ١٩٣ ـ ١٩٥ تذكار اليوبيل، بيروت ١٩٢٨؛ مناظرة لغوية أدبية بين الأساتذة عبدالله البستاني، عبدالقادر المغربي، أنستاس الكرملي، القاهرة، مكتبة القدس ١٣٥٥هـ؛ يوبيل عبدالله البستاني الذهبي، مجلة الحارس، المجلد (٥) عام ١٩٢٨ .

٣ – راجع الرسالة التي وجهها الينا أحد طلاب مدرسة الحكمة في ذلك العهد ١٨٩٨ ـ ١٩٠٦ وقد أوردنا خلاصة ما تضمنته في محاضراتنا في جبران خليل جبران، القاهرة ١٩٦٤ ، ص ٢٣ ـ ٢٥ . وانظر بخاصة ما هو متعلق بنظام التدريس ومنهاجه والعناية بمطالعة نتاج الأدباء المحدثين أمثال فرنسيس المراش، وأديب إسحق. وغني عن البيان ذكر الأدب الكنسي، وترجمة التوراة، والإلماع الى بعض الأساتذة الفرنسيين القادمين من «سان سولبيس» و «وروان».

٤ – راجع مآخذ الياس أبوشبكة وعصبة العشرة عليه في مجلة المعرض، ثم في مجلة الجمهور، ومآخذ كرم ملحم كرم في مجلة العاصفة، ولا سيما ما جاء منها في قصيدته:الهوى والشباب، والمسلول من حيث اقتباسه عن الفرنجة؛ وقصيدته «مآسي الحرب» من حيث اقتباسه أجهزة القدامى ومطلعها: «المهى أهدت إليها المقلتين... والظبا أهدت إليها العنقا» وقصيدته «يا عاقد الحاجبين».

٥ – الهوى والشباب ص ١٥٧ ـ ١٥٨ .

****

ابـــــــــــــــــــــــــــيـــض

بشارة عبدالله الخوري

صاحب جريدة البرق ـ الأخطل الصغير

أبو عبدالله ـ أمير الشعراء

الياس خليل زخريا

سافر أمس صديقنا «أبوعبدالله» سفرته القريبة في الأرض البعيدة.

تمدد في بزته الجديدة الأنيقة، وسبحته اليسر، وناظريه الهادئين الباردين، وعكازه المتوكئ القصير، وتابوت مشرع الباب من الخشب السنديان المحفر الملمع، وشمعتين نصرانيتين، طويلتين من الجبل، واقفتين وحدهما في مسرجتي النحاس، عن اليمين والشمال، تحت العلم تتمتمان على جدران القاعة الواسعة، العارية، في صمت المدينة الجامعية الصاخبة.

نظرت إليه ملياً، فكأنه هو نفسه.

مطل وحده من الزاوية في شرفة مكتبه الى رصيف «الشهداء» في ساحة العاصمة بين النخلات العاليات، وبركة الماء العثمانية التي انصب فوقها تمثال بحري غريب لشهداء غير غرباء.

.. وينساب «الأخطل الصغير» بخياله على مسارب نظارتيه.

ويتنقل بجسده النحيل المفتول فتلاً على عصاه المتعبة المتزنة.

ويقتنص هنا، ويتربص هنا، وينتظر انتظاره هناك ويكر الدقائق على حبات سبحته القصيرة. ويبتسم ابتسامة شفافة دائمة كأنها الرضى الى كل شيء والاستخفاف

■ الأديب، ١٩٦٨ ، السنة ٢٧، عدد: ٩، ص: ٢.

بكل شيء. ويلف، ويدور، ويرود، ويتأمل، ويرحب، ويغض النظر. يدخل في قنطرة من قناطر البرج ليخرج من قنطرة برجية أخرى. يستقبل في عرض الطريق بالشم والتقبيل، ... وقد يغرق في التودد.. ... وقد يتناهى في الجفاء.

ثم تراه يفيء عند كأس، ودن، في ضجة أو خلوة، أو نشوة منتشية لا أبهة، ولا ترف، ولا مظاهر ثراء، في حي كان زاخرا بالمظاهر ومدارج الرتب وأبواب الفخفخة وبيوت الثراء وسارية العلم ونفخ البوق.

ويصحو صحوه عند الالتفات في غمزة، أو لمزة، أو رفة عين وينسحب من المجلس، على السكت، انسحابا خفيا.

وقد تراه يتوارى على الوقار في أكمام ثيابه تحت نظارتيه الدائمتين.

وقد تراه ينزوي على التبصر في مداخل نفسه وحفيف أجنحته.

وقد تراه ينفعل انفعال النار في دفع الريح.

وقد تراه ينطفئ انطفاء الموت في برودة التراب.

يعربد ويثور.. إذا ما غمزت قناته. ينفر ويجافي.. إذا ما قوطعت كلمته. يحقد وينقم.. إذا ما مست قافيته.

يحب النقد مديحا في شعره ومديحا في نثره في كل شعره وفي كل نثره.

فإذا ما تحرك القلم أو اللسان في لفظة قلقة من ألفاظه، أو إلى بيت مضطرب من أبياته، أو على صورة غير مكتملة من صوره، أو قصة شاردة من أقاصيصه، انتفض كما ينتفض الثأر، فلم يترك للناقد نثرا قائما ولا شعرا منتظما ولا رأيا سليما، وقد يجرحه في خلقه، في أدبه، وفي أهل بيته.

إني إذا جــــنَّت ريـــاح ســـفـــيـــنـــتي

ذهب الجـــنـــون بـــحـــكـــمـــة الملاح

وأشياء، وأشياء، من حكايات العمر في رفقة طويلة غنية، في ثلث قرن، نتركها الى الغد لروايات الخبر ومجالس الحديث المنبسط.

☼☼☼☼☼

ويعود «أبوعبدالله» من تطوافه النائي في الساحة إلى غرفته، إلى بيته، إلى داره. كـانت غرفته تلك، أيامذاك، في غربي ساحة الشهداء، أو في جنوبها، كل داره، كل بيته.

فيها «البرق» والمطبعة، والمحبرة، والدفاتر القديمة، والسجلات الجديدة، والمكتبة، والرسائل، والديوان، والمسند، والمائدة، وأدراج الضيافة، وسلة المهملات العتيقة، وخزانة الثياب، وأخبار المحبين، وأثاث كامل من أثاث الدنيا غير الكاملة.

كانت هذه الغرفة، هذه الدار، أعمق ما كانت. إنها الصومعة اللبنانية العالية التي نزل فيها على نصف قرن في شق من كرسي واحد بقميص واحد، على اللاهوت الشعري، ثلاثة قدامى «ابن أبي ربيعة» و «ابن هاني» العباسي، و «أبوالطيب».

ورقّة عفوية فطرية «كالصوت للطير أو كالنشر للزهر» على حبكات مطيبة في سهولة التسلسل، ولين الحوار، وحرارة السرد، وتنغم الكلمة، وسكب القافية، وإبراز الصورة، والاقتباس العيني والخطف الأذني، وتأملات التتبع، وجمال الأرض، ولذائذ هن من غير لذائذ «نعم وعمر».

ثم دالية عجيبة تفتح في الجسد، وفي النفس، مغالق السر، ومكامن اللذة، ومصاعد الجموح.

ثم حكمة دهرية انصهرت فيها الأحداث، والبطولات، انصهار الماء في الغمام، والغمام في السماء، والسماء في الضمير المتيقظ المتعطش أبداً الى معطيات الجمال، وقرابين الحق ومقدسات الحرية.

ثم طموح دنيوي عجيب الى فوق.

قد يغضب فلا يتمرد إلا في الكبرياء، والترفع، والتعالي، ونحت الصور، وإطلاق الخيال، وبناء القصيد بناء الصعوبة الفخمة.

وقد يجنح أحيانا الى مثل: «التأمر»، أو التولي، أو التحكم، أو القناعة الوديعة، المنحدرة عن الضجر والحرمان الى القليل القليل من أوسمة هؤلاء الحاكمين، الفقراء، المحتاجين الى من يرفع قدرهم في عين الكلمة.

أو قل معي في غبار تلك الصومعة التي سمعتها أمس تقهقه قهقهتها في وجه قاعة الاستقبال الكبيرة، الكبرى، من قاعات كلية الحقوق في الجامعة اللبنانية.

وفوق هذا، وذاك، قبة صافية من قباب الجبل، رفعها «الأخطل الصغير»، ورفاق «أبي عبدالله» وتلاميذ صاحب «البرق» - وقد كان معلما سخيا من معلمي الجيل - على هذه الدنيا العربية، الواسعة، تستظلها الأرزة فلا تيبس، وتنبسط فيها الصحراء الحالمة فلا يجف فيها الماء، ويمتد تحتها الريف فلا ينقطع فراته ولا ينضب نيله، ويتدفق بردى، جارنا بردى، فلا يبقى في واديه الخصيب إلا هذا القلب اللبناني العربي الذي يخفق كالشعاع على قمة حرمون، ويذوب كالندى على ضفاف الغوطة، ويسيل كالأمل على «العاصي» المتفجر من قلب الصومعة الهرملية من عندنا في الجبل الأخضر.

ويسألون الوادي الدمشقي عن قديم هوى «هذا الفتى العربي في الزي الغريب» فلا يجدون غير خفقات قلبه مع المجد، والسرى، والسراب، والأمل الأكبر، الى الرمل، والنخيل وجبال الشمس في واحات الزمن.

ويوم نادينا، شاعرنا، بهذه الأسماء الثلاثة:

«أبو عبدالله - الأخطل الصغير - أمير الشعراء» كنا نشعر بأن هناك اسما رابعا فوقها تنتهي فيه هذه الروافد اللفظية.

تتساقط عن مجده ويبقى، تنتثر عن دوحه ويدوم. ألم يعشق «بشارة عبدالله الخوري» نفسه كما يعشق البلبل حنجرته؟!

ألم تكن هذه الأسماء تمدحا به، نعوتا عابرة في معدنه.

ألم يلقب نفسه باسم شاعر بني أمية فخورا بمفاخره مطمئنا الى نصرانيته، ومكانته، ومجاله، وأفيائه في مشارف الأفياء، حتى إذا سرى اسمه، وتناقل على ألواح القلوب، تضايق فخلعه، وتألم فأنكره، وتمنى علينا مرارا في محبتنا له أن نهمل التسمية:

«ذلك عبث من أيام الصبا في طفولة الشاعرية».

ألم يناج أبا الطيب:

طلبت بالشعر دون الشعر مرتبة

فشاء ربك أن لا تدرك الطلبا

ويسعى إليه منظمو مهرجان الإمارة، شعراء الكهولة الراغبين في الإرث غير الموروث، فيرحب باللقب، ويهلل بالتتويج، ويحني رأسه العالي لإكليل المهرجان وصولجانه.

وألتقيه بعد «التأمر» وأذكره ولا أهنئه، فيعتب بجفاء ويودع بقساوة، وكم وددت حقاً لو تحركت فيه علي شاعريته الغضبى فهجا كما كان يهجو، وحطم كما كان يحطم، غير أنه أنطوى عنا في لين الغربة على عتابه الأخير، وموته الأخير.

وأدركت أن أقصى ما كان يطمح إليه «بشارة عبدالله الخوري» في أوائل حياته وأواخر هذه الحياة الدنيا لقب «أمير الشعراء» وإن كان في قرارة ذاته واثقا بأنه ليس للشعر إمارة وليس للإمارة (ولي عهد) وليس لولاية العهد (إكليل أو صولجان).

ويا صديقي.. يا أمير الشعراء.

لا أوتارك انقطعت عن عودك.

ولا شموسك توارت عن مشارفك.

ولا أقمارك غابت عن ضلوع جبلك.

أراك في نفسي كأنك الجبل.

غرد يا أبا عبدالله ففي كل واد حداء من قلبك.

سلم قلبك من الموت.

الياس خليل زخريا

****

ابيض

رحلة..... في شعر
«الأخطـل الصغيــر»

حسين مروة

(١)

هي «رحلة» بالمعنى الدقيق للكلمة.. فلكي ندخل، اليوم، هذا العالم الشعري الخاص الذي أنشأه «الأخطل الصغير» لنفسه ولجيله، لا بد أن نستعد للأمر قبل الإقدام عليه، لأننا سندخل عالما آخر غير عالمنا المعاصر.

سندخل بمقاييس للشعر تختلف، جذريا، عن هذه المقاييس التي نمارس بها اليوم عملية التذوق والتلقي والتواجد الفكري والروحي مع الشعر المعاصر الذي صارت علاقتنا به جزءاً من علاقتنا بكل ظاهرة من ظاهرات التحول العاصف في عصرنا.

لا بد لنا، إذن، من إعداد أنفسنا «للتأقلم» الذوقي والفكري والوجداني في «مناخ» شعري انقطعت، أو كادت تنقطع، بيننا وبينه علاقات الألفة القديمة، حتى لنخشى ـ إذا عدنا إليه الآن ـ أن نستشعر الغربة معه، أن يستدرجنا الشعور «بالاغتراب» الى التورط بأحكام جائرة بعيدة عن الموضوعية..

غير أن «الأخطل الصغير» سيعيننا على هذا «التأقلم» دون عناء كبير، فإن عالمه الشعري من الشفافية والطرافة وصفاء الجو بحيث سنجد، في رحلتنا إليه، أننا لسنا بعيدين جدا عن تخوم عالمنا المعاصر. بل سنجد ـ الى ذلك ـ أن هاجسا روحيا خفيا يتنبه فينا، فجأة، منذ أول إطلالة على دنياه، فإذا بنا نحس في داخلنا أصداء هذا الهاجس توحي إلينا أن ندخل دنيا لنا فيها نبضات وجدان، ونبرات غضب، ومشاعر

■ الآداب ، عدد ٩، ص ١١،سنة ١٩٦٨

آلام ومسرات، ولنا عندها أشياء من حياتنا وأشواقنا وتطلعاتنا لا تزال طرية خضراء، لأنها متصلة بجذور أشيائنا الحاضرة.

صحيح أن جيل «الأخطل الصغير» قد انتهى منذ أكثر من ربع قرن، وأن الجيل الذي يعاني الآن حياة العصر، بكل قلقها وعنفها وبكل حدة الصراع بين تناقضاتها وبكل حيوية هذا الصراع، قد أنشأ لنفسه مناخات شعرية جديدة شديدة التعقد والتوتر والتفجر، لكن «الأخطل الصغير» ذاته بقي في نهاية جيله يقف على تخوم جيلين، فلم يغرق هناك في قاع الزمنية الكلاسيكية، ولم يغترب هنا كل الاغتراب عن إرهاصات التحول والتفجر المعاصرين، وإن لم يدرك ما انكشفت عنه هذه الإرهاصات من جديد، وما كان له أن يدركه بعد أن استنفد العمر طاقاته.

فنحن، إذن، في هذه الرحلة الى عالمه الشعري، نعاني وحشة الاغتراب كثيرا، وإن كنا ـ على كل حال ـ سنشعر بأننا معه في جيل ليس هو بالجيل الذي يحمل همومنا أو يستوعب الأطر التعبيرية القادرة على تحمل هذه الهموم.

(٢)

ونبدأ «الرحلة» الآن من نقطة الانطلاق الأولى في شاعرية «الأخطل الصغير». نبدأ من قضية الشعر:

نريد، أولاً، ان نتعرف الشعر كما يتصوره بشارة عبدالله الخوري نفسه.. فكيف يتصوره؟ ما أبعاده وحدوده في رقعة الحياة؟.. ما دوره في ديالكتيك الحياة؟..

نستطيع أن نعرف هذا كله في كثير من شعره، ولكن له «صلاة» يضرع فيها الى ربة الشعر، ضراعة المؤمن المفعم قلبه صدقا وإخلاصا، أن تلهمه الشعر الذي يريد.. في هذه «الصلاة» الخاشعة نعرف كيف يريد الشعر لنفسه، أي كيف يتصور الشعر في أعلى مستوياته وفي أكمل صوره:

الهميني، يا ربة الشعر، شعرا
كالنور والنار

كالهواء، كالأطيار، كالفكر حرا
يلفح الأدهار
كالأهازيج في الوغى تترجع
إن ثائر ثار
كدوي الأمواج إذ تتدفع
بعيدة الأغوار
ربة الشعر، الهميني قصيدا
ترجّع الأطيار
الهميني شعرا طليقا جديدا
يوزع الأنوار

هكذا الشعر في صورته الكاملة عند «الأخطل الصغير»، بل صورته المثلى. والمسألة هنا ليست أن الشاعر صادق في «صلاته» هذه أو غير صادق.. حتى افتراض عدم الصدق هنا يؤكد أن الصورة بحدودها كلها قائمة في ذهنه، تكشف عن مكانها الخفي في طموحه.. ولكن طبيعة «الأخطل الصغير» نفسها تفترض صدق هذه الضراعة في «صلاته». فهو ينطوي على ثورة في أعماقه نعرفها منه في سيرته وفي شعره معا. وقد تميز بهذه الوحدة بين سيرته وشعره دون ازدواجية ولا تعقد. من هذه الثورة الهادئة الوديعة أكثر الأحيان، المتفجرة بعض الأحيان، استوحى «صلاته» الى ربة الشعر: فهو يريد الشعر نارا تلفح الأدهار، يريده طلقا كالهواء والأطيار، حراً كالفكر، ثائرا كالأهازيج في معركة الثائرين، بعيد الأغوار تدوي الأمواج المتدفعة في نواحيه.. يريد الشعر جديدا طليقا يرفض الركود والقيود.. يريده لا يكتفي بأن يضيء ذاته، فليكن نورا يوزع الأنوار ليضيء الآخرين، ليضيء الحياة... ليس الشعر عنده وسيلة ترف فني وحسب:

وهل الشعر غير ما امتلك
النفس، فحلّى كأسا وحل وثاقا؟

الشعر أن يمتلك النفس: للامتلاك هنا محتواه الوجداني الضاربة جذوره الى أعماق النفس، فهو يعني صدق التجربة واستيعابها المشاعر كلها حتى الامتلاك.. وبعد هذا، على الشعر أن يمنح الإنسان حلاوة الحياة والبهجة الروحية، وأن يحرره كذلك، أن يحل وثاقه، كل وثاق يستعبد أو يقيد طاقاته أو يعيق نموه وتطوره وانطلاقه، فردا ومجتمعا.. بهذا المفهوم للشعر امتدح «الأخطل الصغير» حافظ ابراهيم، شاعر النيل، وهو يرثيه:

ما نسينا لك القصائد حمراً
قطع الشرق دونها الأطواقا
فغسلت الجراح بالسلسل العذب
وصيرت كل خلْفٍ وفاقا

للشعر، إذن، وظيفة تتجاوز الامتناع الفني المحض، لتجمع الى الإمتاع هذا قوة الفعل في حركة التطور والتحرر الاجتماعيين.. ليس الشعر تلقيا وانفعالا وحسب، فهو ـ كذلك ـ فاعل ومحرك ومحرر.. وكيف يكون الشعر هكذا: محركا، ومحررا، إذا لم يكن هو نفسه ـ أي الشعر ـ متحركا، ومتحررا؟.. من هنا كان شعر «الأخطل الصغير» زاخرا بالحركة وديناميية التحرر.. وإذا لم يخرج في حركته وتحرره على الشعر العمودي، شعر البيت الكامل المقفى، فقد تصرف كثيرا بقواعد هذه «العمودية» تصرفا له طابع الجدة والاستقلال. وهذا نموذج من تصرفه:

يا مجدُ
يا فنُّ
يا جنونْ
لم تُبقِ مني
الليالي،
سوى
خيال خيالي،

✡✡✡✡✡

لا النَّحْلُ
يرشف شهدي

ولا الفَراش
وكان جيدي
وخدِّي
لها فِراشْ

✡✡✡✡✡

أبَعَدما
كان نهدي يُروي
العطاشْ،
أصبحتُ
أصبحت وحدي..

✡✡✡✡✡

يا مجدُ
يا فنُّ
يا جُنونْ
أين الهوى
والفتونْ
والعصبةُ المعجبونْ

على أن طبيعة الحركة والتحرر في شعره لا تقتصر على البنائية الخارجية. فقد تركت آثارها، كذلك، على البناء الداخلي في معظم هذا الشعر، حتى شعر الطرب الغنائي الصرف منه. فنحن نجد دينامية الحركة والتحرر في محاولات بشارة الخوري خلق الأبعاد الوجدانية لشعر الغزل والحب، وتجاوز الصور النفسية والصيغ الشعرية المألوفة عند شعراء جيله في هذا الباب.. فهو، مثلا، مفتتن بالجمال وبطرب الشراب، كما يفتتن غيره من الشعراء، ولكن كيف تتميز عنده صورة هذا الافتتان، وكيف يمتلك الافتتان نفسه، وكيف يتحرك في وجدانه:

فـــتن الجـــمـــال وثـــورة الأقـــداح
صـبـغت أسـاطـيـر الـهـوى بـجـراحي

في هذه الحركة الشعرية تنبع أكثر من صورة أسطورية ملونة بدم الجراح، ولكنه اللون غير المأساوي، بل هو يضفي على الجراح نفسها لون الفتنة والبهجة بلمسات بسيطة وسريعة وغزيرة الإيحاء.. وكثيرا ما نستشف، خلل موجة الصفاء الشفاف، امتزاج حب الحياة وحب الجمال معا في حركة وجدانية واحدة داخل الحركة النغمية الخارجية الباهرة الألق والتنوع:

أنا لا أشيّع بالدموع صبابتي
لكن ألفُّ جناحها بجناحي
غذيتها بدم الشباب وطيبه
وهرقت في لهواتها أفراحي

....

....

من كان من دنياه ينفض كفَّهُ
فأنا على دنياي أقبض راحي
إني أفدّي كل شمس أصيلة
حذر المغيب، بألف شمس صباح

هذه اللهفة الصارخة، في البيت الأخير، نكاد نحسها تتفجر أذرعة من الشوق والرغاب. تتسارع الى عناق شمس الأصيل تشدها كي لا تغوص في لجة المغيب، وكي تغير مسار حركتها العدمية الى مسار الوجود اللانهائي..

وتتخذ الحركة الشعرية، وهي تعبر عن شغفه بالجمال، ظاهرة أبعد عمقاً في الوجدان حين يتحدث عن ذكرى له غذاها بأكثر ما مضى من صبوته، ثم جاء يغذيها بما بقي:

بأخي هوى متماسك في أضلعي
سمح، على شيع الجمال مفرّق
شقت مرائره أسىً وتأوهاً
إن فاته الحسن الذي لم يخلق

جاء يغذيها ـ بعد ـ بقلبه، هذا الذي انعقد الإخاء بينه وبين الهوى على تماسك وسماحة وتوزع بين صنوف الجمال.. ولكن العجب في «أخي الهوى» هذا أنه لا يرتوي من الحسن بما هو كائن، فهو يتمزق مرارة وأسى من طموحه وتطلعه الى ما لم يخلق بعد من صنوف الحسن والجمال.. ليس هذا من باب الإغراب والاستحالة، أي ليس هو نوعا من الافتعال كما قد يدخل في تصور ناقد ما، وإنما هو تعبير ديناميكي عن شغف هذا القلب بالجمال الى أقصى حدود الشغف والوله.. إنها صرخة «جوع» جمالي هائلة مثيرة تعبر عن نفسها بمحتوى النغم الداخلي لا بحركته الخارجية وحسب.. وقد تبلغ هذه الصرخة منتهى العنف حين تعبر عن هاجس جمالي آخر مع طرب الشراب:

يـــا ذابح الـــعـــنـــقـــود خـــضَّب كـــفّه

بـــدمـــائه، بـــوركت من ســـفـــاح!

(٣)

.. وقد يتحول الهاجس الجمالي عند «الأخطل الصغير»، الى إحساس عميق يقترب أحيانا من الإحساس المأساوي.. ذلك حين يصطدم وجدانه الشاعري بإحدى المفارقات القائمة في علاقات الإنسان بالطبيعة، أو علاقاته بالأرض والوطن والناس الآخرين، فتتحرك الثورة الكامنة في أعماقه حينذاك، ثم يتخذ الهاجس الجمالي هنا ظاهرة العاطفة الوطنية.. نجد مثل هذا الإحساس في مثل قصيدة «سلمى الكورانية».. هذه القصيدة تتحدث عن ظاهرة الهجرة في لبنان وعن المهاجر اللبناني.

إنه موضوع اجتماعي بذاته، ولكن «الأخطل الصغير» يتناول الموضوع انطلاقا من هاجسه الجمالي نفسه في قضية حب. والجمال والحب يجدان وحدتهما الكاملة دائما في شعره. فقصة الحب هنا تتطور إلى مواجهة وجدانية وطنية معا تنشأ من تفريق الهجرة بين قلبين عاشقين. وفي المواجهة هذه يتحقق اصطدام الهاجس الجمالي بإحدى المفارقات المحركة لثورة الشاعر. في هذه المفارقة حركة ديالكتيكية لها عمق إنساني مأساوي، ولكن يكمن في ثناياه حافز للرفض والتمرد. فحين تبلغ قصة الحب هنا ذروة التوتر يبرز وجه لبنان أيام الانتداب، وتبرز المفارقة الديالكتيكية المثيرة هكذا:

لبنان، ما لفراخ النسر جائعة
والأرض أرضك أعلاها وأدناها

ألـلـغـريب اخـتـيـال في مسـارحـهـا
ولـلـقـريب انـزواء في زوايـاهـا

من ظن أن الرياحين التي سقيت
دموعنا الحمر قد ضنت بريّاها؟

كأن ما غرس الآباء من ثمر
لغير أبنائهم قد طاب مجناها

وما بَنَوه على الأحقاب من أطمٍ
لغير أبنائهم قد حل سكناها

لا، لم أجد لك في البلدان من شبه
ولا لناسك بين الناس أشباها

لو مسَّ غيرك هذا الذل من أسد
لعضَّ جبهته سيف وحنَّاها!..

في هذا الإطار نفسه من تحول الهاجس الجمالي، عند «الأخطل الصغير»، الى إحساس وطني، نشهد تحولات تتنوع أشكالها الفنية، بقدر ما تتنوع حوافزها ومناسباتها الآنية التاريخية، ولكن يبقى مصدر التحولات هذه واحدا، وجوهر الرابطة بينها واحدا، هو الحساسية الشاعرية المرهفة الى حد القدرة على كشف العلاقات القائمة بين الأشياء المتفارقة بقدر ما هي قائمة بين الأشياء المتجانسة.. من هنا يحدث هذا التحول غالبا ـ إن لم نقل دائما ـ في شعر «الأخطل الصغير» من الهاجس الجمالي الى انفعالات إنسانية أو وطنية أو قومية أمام التحديات والمفارقات في علاقات الإنسان المختلفة، ولا سيما علاقاته الاجتماعية. وقد يبلغ هذا التحول الانفعالي ـ كما ذكرنا من قبل ـ عمقا وجدانيا يصل به الى حدود الإحساس المأساوي. نجد الأمثلة على ذلك في قصائد عدة كتبها الشاعر متأثرا بأحداث طارئة، بعضها ذو طابع محلي لبناني، وبعضها ذو طابع عربي شامل، وآخر ذو طابع إنساني عالمي، وقد تجتمع في الحادث

الواحد هذه السمات كلها، كما في قصيدة «١٩١٤».. وهي القصيدة التي أوحتها أحداث الحرب العالمية الأولى وفجائعها اللبنانية والعربية والعالمية.

في قصيدة من وحي ليلة من ليالي الشاعر في إحدى القرى اللبنانية ينطلق أولاً مع الهاجس الجمالي في مجلس له بين نفر من أهل الأدب والفن، ثم في تمثال فني رآه هناك من صنعة نحات لبناني:

ودمـيـة عـنـدمـا صـافـحـت صـانـعـهـا

أكـبـرتـه عـبـقـري الـفـن نـحـاتـا

رمى بـهـا في عـبـاب الحب لـؤلـؤة

ونـاطـهـا في جـبـين الـحـسن مـشـكـاتـا

وتأخذ الشاعر، في هذا المناخ الجمالي، نشوة شاعرية ما إن تبلغ مدى هناءتها في وجدانه حتى تتنبه حوافز التحول، إذ تستيقظ علاقة المفارقة في وهج النشوة، وينهض فجأة ديالكتيك التحدي هكذا:

سـوانح من صـفـاء لا تـلـوح لـنـا

في حـالـكـات الـشق إلا أويـقـاتـا..

نـلـقي عـلى راحـتـيـهـا أنـفـسـاً نـهـكت

فـعل الـغـريق رأى في الـقـرب مـرسـاتـا

ثم يصعد التحول من هذا الإحساس الذاتي المأساوي الى إحساس اجتماعي وطني يحمل الحرارة المأساوية نفسها.. ذلك إذ أحدثت حركة التحدي في الهاجس الشاعري ما تحدثه الحصاة تلقى في صفحة الماء.. فإذا بدائرة المفارقات التي تتحدى نشوة الشاعر تعقبها دائرة أخرى من المفارقات أوسع منها، فإذا بالتحول ينتقل من صراع الهاجس الجمالي مع مفارقات الذات الى الصراع مع المفارقات في نطاق المجتمع.. وكان المجتمع هنا لبنان نفسه أيام الانتداب الفرنسي:

لـبـنـان، يـا جـنـة الأرواح، مـا فـعـلت

بك الـلـيـالي.. فـعـاد الـعـرس مـأسـاتـا

قـــد كـــبّــروك لأمـــر صـــغّـــروك به،
قـد فـخـمـوا الاسم، لـكن حـقّـروا الـذاتـا
في كل طـــرفـــة عـــين أنـــظُمٌ جـــدد
من سـوء حـظك قـد ظـنـوك مـلـهـاتـا
كـأنمـا كـنت لـوحـاً في مـكـاتـبـهم
تـمـضـي الأكف به مـحـواً وإثـبـاتـا
فـتـيـان لـبـنـان، هـبـوا من رقـادكم
سـيّـان من نـام عن حق ومن مـاتـا

❊❊❊❊

على هذا النحو نجد حساسية الشاعر الجمالية في مواقفه من مختلف الأحداث والمناسبات في النطاق العربي الشامل. إننا نجده في ذروات من الانفعالات الشاعرية يتحول به الانفعال الى مواقف عربية تمجد علاقات الأخوة بين لبنان وأشقائه في العالم العربي، وتمجد نضال العرب في معركة الحرية، وفي معركة فلسطين بالأخص، ونجد المفارقات في هذا المجال كذلك تحفز هاجسه الجمالي للتحول من الانفعالات الذاتية الى الانفعالات القومية.

وفي غمرة الانفعال الحزين، إذ يرثي شوقي، وإذ الإحساس الشاعري يتصاعد مع الرؤى الجمالية المستثارة بنوع من الانتعاش للحادث، ينطلق الهاجس الفني، فجأة، من حدود الرثاء في نطاقه الفردي الى الحدود الوسيعة التي تشتمل لبنان كله ومصر كلها في إطار واحد من الأخوة بينهما:

لـبـنـان، يـا مـصـر، مـصـرٌ في مـطـامـحهِ
ـ كـمـا عـلـمت ـ ومـصـر في مـفـاخـرهِ
هـل كـان قـلـبك إلا في جـوانـحـه
أو كـان دمـعك إلا في مـحـاجـره
أو كـان مـنـبت مـصـر غـيـر مـنـبـته
أو كـان شـاعـر مـصـر غـيـر شـاعـره؟

وإذ هو يرثي سعد زغلول، وهاجسه الفني ينشىء دنيا من الخيالات والصور المجنحة بألوان أسطورية وملحمية، إذا به ينفلت من دنياه هذه الى دنيا الواقع بكل واقعيته، ليدخل قلب المعركة السياسية الوطنية التي كانت تحياها مصر يومذاك، وإذا به وجهاً لوجه مع رجال مصر الذين كانت تشغلهم أحداث المعركة في هذا الصف منها أو ذاك:

إني أخـــاف عــلــيــكم في تحــزبــكم
أن تـنـصـروا الـخـصم، وهـو الـخـصم والـحـكمُ
تــخــاصــمــون عــلـى ضــعف، وخــصــمــكم
هــو الــقــوي، عــلــيــكم لــيس يــخــتــصم
تــوحــدوا بـــاسم مــصــر في تجــهــمــهــا
وطــالــعــوا ثــغــر مــصــر كـيـف يــبــتــسم
ســـعـــد أرادكمُ حـــلـــفـــاً - فلا قـــســـمتْ
أجــزاؤكم - حب مــصــر لـــيس يـــنــقــسم

وفي رثاء فيصل الأول بينا يجهد الشاعر في ابتداع «الحالات» الشعرية الملائمة للموقف ولخصائص الشخصية المرتبطة به، إذا بحساسية الشاعر تستشف الأبعاد الأخرى للموقف، وهي الأبعاد السياسية التي تمتد إليها ظلال الشخصية هذه، فيأخذ التحول الشعري هنا مجرى آخر نحو تلك الأبعاد ذاتها.. فنرى الشاعر عند هذا المجرى الجديد، يذكر ما كان لفيصل الأول من علاقة بالحركة العربية الاستقلالية، وما كان لهذا العلاقة من ارتباط بوعود «الحلفاء» الغربيين وعهودهم للعرب عند اندلاع الحرب العالمية الأولى، ثم ما اقترفه هؤلاء «الحلفاء» من نكث لهاتيك الوعود والعهود.. وفي هذا المسار يتحول الإحساس الشاعري من نطاق الرثاء في حدوده التقليدية الى نطاق الموقف القومي، فنلحظ منذ يأخذ هذا التحول مداره الأوسع أن حرارة الواقع المأساوي قد أكسبت الموقف الشعري الجديد نبضا من الحيوية والصدق لم نكن نحسه في المدار الأول من القصيدة:

قل لـــتـــلك الـــعـــهـــود في رهـج الحـــرب
وفـي ســـكـــرة الـــقـــنـــا والـــغلاصمْ

قـد لمحـنـاك في عـيـون الـثـعـالي
ولمـسـنـاك في جـلـود الأراقم
حـدثـونـا عن الحـقـوق، فـلـمـا
كـبَّـر الـنـصـر، أعـوزتـنـا الـتـراجم
نـفـحـتـنـا بـهـا الحـروب سلامـا
ورمـانـا بـهـا الـسـلام أداهم
قل ـ وقـيت الـعـثـار ـ في نـدوة الـقـوم:
مـتى أصـبح «الحـلـيف» مـخـاصم؟
أين ذاك «الـهـيـام» في أول «الحب»
وتـلـك المـوشـحـات الـنـواعم؟
....
....
....
إن تحت الـصـدور جـذوة مـوتـور
وخـلـف الحـدود زأرة نـاقم

وفي الإطار نفسه كذلك، إطار التحول في الهاجس الجمالي، عند «الأخطل الصغير»، من دائرة الإحساس الذاتي الى دائرة الإحساس العام الأشمل، نلحظ في شعره تحولات من نوع آخر، هو النظر الى قضايا الإنسان ذات المنشأ الاجتماعي، أي تلك القضايا التي يعانيها الناس في المجتمعات الطبقية، أو تلك التي تعاني منها البشرية كافة أزمات القلق على مصير الحياة نفسها كمسألة الحروب العالمية.

وقد حان لنا هنا أن نوضح مفهوم الهاجس الجمالي الذي تكرر ذكره في «رحلتنا» هذه..إننا نقصد به غير معناه الساذج المبتذل.. فليس القصد به معنى الجمال المناقض للقبح بمفهومه البسيط، بل معناه الفني الذي ينبع من الرؤية الشعرية للأشياء ولعلاقات الإنسان مع الطبيعة والحياة والناس الآخرين، وللقيم الإنسانية المستمدة من هذه العلاقات. فكل رؤية فنية إبداعية الى الظاهرات الكونية أو الاجتماعية أو الى

دخائل النفس الإنسانية، وكل كشف للأبعاد غير المنظورة بالنظر العادي، القائمة وراء تلك الظاهرات ـ كل رؤية من هذا النوع، وكل كشف تحققه هذه الرؤية، بواسطة الشكل والمضمون في وحدتهما الجوهرية، يشكل العنصر الجمالي في الفن، أي الحقيقة الفنية. إن هذا العنصر هو ما سميناه في هذه الرحلة بـ «الهاجس الجمالي» لأنه الدافع الداخلي المشع عند الشاعر والفنان.

إذا رجعنا ـ بعد ـ الى حيث وصلنا من «الرحلة» في شعر «الأخطل الصغير» سنرى أشكالا جديدة من تحولات الهاجس الفني.. نعني تحول هذا الهاجس من الرؤيا ذات المضمون الغنائي الصرف الى رؤيا في قلب الظاهرات الاجتماعية، أي قضايا الإنسان في علاقاته الطبقية، أو في أزماته المصيرية الكبرى.

ففي مجال العلاقات بين الطبقات الاجتماعية، في ظلال الأنظمة الرأسمالية بالطبع، تمتد رؤيته الفنية الى ما وراء ظاهرة الفقر والغنى وسائر ظاهرات التمايز الطبقي، فإذا برؤيته هذه تكتشف، بلمح من الهاجس الفني النفاذ، بعداً واقعياً من أبعاد تلك الظاهرات، أو تكتشف ـ إذا شئنا التعبير بلغة العلم ـ واحدا من القوانين الأساسية التي تنشأ عنها تلك الظاهرات:

أيـــهـــا الأغـــنـــيـــاء! إن غـــنـــاكم
شـــيـــدته ســـواعـــد الـــفـــقـــراءِ
الـقـصـور الـتـي تـقـيـمـون فـيـهـا
من بـنـاهـا لـكـم سـوى الـفـقـراء؟
والـطـعـام الـذي تـلـذون.. من هم
صـانـعـوه سـوى الـفـقـراء؟
والـريـاحـين في الجـنـائن.. من هم
غـارسـوهـا لـكـم سـوى الـفـقـراء؟
والحـلـيب الـذي رضـعـتم صـغـارا
كـان من صـدر مـعـظم الـفـقـراء

....

....

....

لا تــــقـــولـــوا: وســـاوس من فـــقـــيـــر

دوخـــــــــــــتـــه طــــــــــــوارق الأرزاء

إن لـــلـــفــــقـــر ثـــورة لـــو عـــلـــمـــتم

تـــســـبح الـــنـــاس دونـــهـــا في الـــدمـــاء..

وعند زوال ظل السلطان عبدالحميد العثماني في العقد الأول من هذا القرن، نظر الشاعر الى قصر «يلدز» وقد سقط الظل الرهيب عنه يومذاك، فامتد به النظر الشاعري الى ما وراء هذا الحادث ـ الظاهرة من دلالات التحول التاريخي في ظهور قوة الشعوب لتحرير أعناقها من أنيار الاستبداد والاضطهاد والاستعباد، وظهور إرادتها في ضم وحدة صفوفها مع وحدة مصيرها:

لا بـــلـــغـــنـــا ذرى الحـــضـــارة إن لم

يَـمْحُ عـصـر الإخـاء عـصـر الـعـبـيـد

وفي حين كان «الدستور» مطلبا تنادي به جماهيرنا العربية لتحقيق مرحلتها الديمقراطية، وجدت هذه الجماهير مطلبها ذلك ينتفض في هاجس بشارة الخوري انتفاضة تدعو الى الثورة، هاتفة بأن «الدستور» لا يهبط على الشعوب هبوط الوحي من غير كفاح يتفجر من أعماقها كالأعاصير أو البراكين:

إن الـدسـاتـيـر لا تـعـطي أعـنّـتـهـا

إلا الأعـــاصـــيـــر من جنٍّ ومن بـــشـــرِ

من هـابط كـقـضـاء الـلـه مـكـتـسح

أو صـاعـد كـفم الـبـركـان مـنـفـجـر

وفي الحرب العالمية الأولى رأى الشاعر فجائعها الإنسانية في وطنه ذاته، من جوع وعري ومرض في أوساط الفقراء، ومن احتكار وجشع واستغلال رهيب في

أوساط الأغنياء، ومن تعسف وانهيار للقيم المثلى في أوساط الحكام، فاهتاج هاجسه الجمالي غضبا وحقدا شريفا، وانبرى يتفجر قصائد من لهب ينصب نقمة على التمايز الطبقي، وعلى عسف الطبقات الحاكمة والمستغلة، وعلى الحرب ومشعلي نارها الشريرة، وعلى وحشية المنتفعين بها حتى انتهاك الحرمات الإنسانية.. إننا نحس الآن، ونحن نقرأ هذه القصائد الغاضبة، أن الشاعر يعاني فيها أزمة نفسية وعقلية أسلمته حينذاك الى حيرة مرهقة في تفسير المحنة البشرية تلك، حتى لنراه يلجأ في حيرته الى مثل هذه المناجاة:

رب، لـــو شـــئت لمـــا ســـالت دمـــا
أمـــرك الأمـــر.. فـــمن ذا يـــنـــكـــر؟
ولمـــا يـــتّم من قـــد يـــتّـــمـــا
ولمـــا اســـتل الـــسلاح الـــعـــســـكـــر
....

....
من تـــرى يـــشـــرح لي ذنب الـــفـــقـــيـــر
أو - تـــرى - يـــظـــهـــر لي فـــضل الـــغـــني
يـــرثـــان الـــبـــؤس، والـــعـــيش الـــنـــضـــيـــر
ويـــقـــيـــمـــان مـــعـــا في الـــكـــفن؟

(٤)

السمة الغنائية، بمفهومها المدرسي وبمفهومها الأعم، هي السمة الشائعة في شعر «الأخطل الصغير».. ولكن غنائيته هذه لم تستسلم - إلا قليلا - الى الخطابية، أو الى الخواء الفكري. ولقد استطاع أن يضفي على خطابيته حيث وجدت، أو على الخواء الفكري حيث وجد في شعره، تلك الخاصة الجمالية المستقلة التي اجتمعت لها مجموعة من العناصر أبعدت عن شعره، في الغالب، تلك العيوب التي تشوب غنائية الشعر العربي في الجيلين السابقين بالخصوص. من هذه العناصر: مزية الصدق، ومزية الصفاء النفسي والتعبيري، ومزية الجدة والطرافة لا في النغمة واللفظة والعبارة فحسب، بل في الصورة الشعرية

كذلك، وفي طريقة التصوير الإيحائي للموضوع الشعري. إن عنصر الجدة والطرافة هذا، بجملة مقوماته، كثيرا ما ينقذ شعره من النثرية، أو التقريرية، حين ينزلق إليهما.. فهناك، مثلا، ألوان من الغزل عنده لا تخرج بمضمونها عن الغزل التقليدي المكرور في شعرنا، ولكن خاصة «الأخطل الصغير» أنه يخلع على مثل هذا الغزل طرافة في التصوير وفي العبارة تهيئ له مناخا شعريا خاصا يخفي وجهه التقليدي حتى ليوحي لنا بأنه جديد.. نذكر من ذلك أبياته المشهورة المغناة التي مطلعها:

بلغوها إذا أتيتم حماها
أنني مت في الغرام فداها

فهنا لا تقبض اليد على أمر جديد إطلاقا من حيث المضمون العام، ولكن طريقته في وضع الحقيقة الشعرية في إطار يوم القيامة حيث يتصور أن النعيم يكون جزاؤه في جهاده وتكون النار جزاء الحبيبة، وحيث يتصور مناجاة مع الله متشفعا إليه ثم ضارعا:

قلت: يا رب، أي ذنب جنته،
أي ذنب؟ لقد ظلمنا صباها..
أنت ذوبت في محاجرها السحر
ورصعت باللآلئ فاها
أنت عسَّلت ثغرها.. فقلوب الناس
نحل أكمامها شفتاها
أنت من لحظها شهرت حساما
فبراء من الدماء يداها..

نقول إن وضعه الحقيقة الشعرية في هذا الإطار الطريف قد أنقذ الصورة من لونها القديم الحائل.. وقد رثى «الأخطل الصغير» صديقه حافظ ابراهيم، فراح يمعن في توليد الصور الشعرية، دون أن يخرج أيضا عن المضامين التقليدية في الرثاء، ولكنه أوتي القدرة على التفرد بسكب هذه المضامين في ألوان من الطرافة المحببة حتى تبدو ابتكارا.. فإذا بنا نحظى في هذه القصيدة بكثير من الصور الممتعة التي تشبه هذه الصورة:

أنت والنيل ضفتان لمصر
تنبتان الأذواق والأرزاقا

هــذه الخـاصـــة في تـلـوين الـصـــور الـشـعـــريـــة بـالـطـرافة تـكـاد تـكـون أبـرز خصائص شعره، وكثيرا ما يجلوها في إطار من الحوار القصصي على غرار قصيدته المشهورة «هند وأمها»:

أتت هـــنـــد تـــشـــكـــو الى أمـــهـــا
فـــسـبـــحـــان من جـــمع الـــنـــيـــرين
فـــقـــالت لـــهـــا: إن هـــذا الـــضـــحى
أتـــاني، وقـــبَّـــلـــني قـــبـــلـــتـــين
وفـــــرَّ، فـــلـــمـــا رآني الـــدجى
حـــبَـاني من شـــعـــره خـــصـــلـــتـــين... الخ.

ولكن تبقى حقيقة لا بد من جلائها في الحديث عن غزل بشارة الخوري. فليست الطرافة بذاتها كافية لإنارة السمات المميزة لهذا الغزل. ذلك بأن من مميزاته كذلك أنه ليس غزلا وصفيا تصويريا في الغالب، بل يغلب فيه التحول الى حركة وجدانية تتعمق الحس الجمالي في الداخل، وهذا التحول يجعل من الوصف الخارجي ظاهرة حركية تشارك مشاركة أساسية في التعبير عن امتلاء الوجدان بنبضات الشاعر الجمالية. وهذا ما أشرت إليه حين قلت، من قبل، إن الجمال والحب يجدان وحدتهما الكاملة دائما في شعر «الأخطل الصغير».. فماذا يعني أن يقول الشاعر، مثلا، وهو يتغزل:

إيه ريـــحـــانـــة الـــريـــاحـــين فـــيـــضي
مـــــرحـــــاً، واملأي الجـــــوانح وجـــــدا
امــســحي جــبــهــة الــظلام تــفضْ نــوراً
ومـــرّي عـــلى الـــصـــخـــور فـــتـــنـــدى

هل يعني مثل هذا التصور للجمال، سوى الشعور الداخلي بالاندهاش من روعة الجمال المعين؟

وماذا يعني مثل هذا «الوصف» لصوت مطرب:

يـــا غـــابـــة الـــصـــوت الـــلـــهـــيـف كـــأنـه
تحت الـــظلام أشـــعـــة تـــتـــكـــلمُ

....

....

....

ثـــمـــلـت بـه الأزهـــار وهـي أجـــنّـــة
وتـــشـــوفت، فـــانـــشق عـــنـــهـــا الـــبـــرعم

هل هذا وصف وكفى؟ أم هو الدهشة الوجدانية أمام «غابة» من ينابيع النغم تندفق في مسمع الشاعر، فتنسكب في أوصاله ارتعاشا كانسكاب الشعاع المنعش، حتى يتصور هذا النغم يفعل فعل الشمس بالزهرة: تدركها في البرعم جنينا، فتتفتح زهرة كاملة من أثر الشعاع؟ أحسب أن الشاعر هنا لا يصف الصوت نفسه بقدر ما «يصف» أثر الصوت في وجدانه.. وكلمتا: «الغابة» و «اللهيف» في هذه الصورة، لا تعنيان دلالتهما الحرفية، بل دلالتهما في تصور الشاعر الخاص..

وفي هذا المجال لا بد أن تحضرنا قصيدة «عمر ونعم».. فقد أعاد الى عصرنا صورة من ابن أبي ربيعة في رائيته الطريفة، وجلا منها مشاهد غزلية بطرافة جديدة، هي طرافة «الأخطل الصغير» بخصوصها وخصائصها، وهي - أي قصيدة «الأخطل الصغير» - تضيف الى متعة الطرافة المتجددة إضاءات فنية هامسة ومقنعة في آن.

(٥)

تستوقفنا في هذه «الرحلة» مشاهد ملحمية، دون أن تغرينا بالقول إن شاعرنا قد جمع بين الطرفين المتباعدين: الغنائية والملحمية.. لا، فإنهما طرفان متباعدان بالفعل، وليس لشاعر أن يكون غنائيا وملحميا معا، ولكن قد يلتقيان التقاء عفويا عابرا ثم يفترقان، فالشاعر الغنائي لا يقوى على احتمال الأبعاد الموضوعية الشاسعة للملحمة.. والشاعر الملحمي لا يقوى على احتمال الانفعالات الذاتية الغنائية القصيرة الأنفاس..

أما «الأخطل الصغير» فشاعر غنائي وحسب. وإننا لنرتكب نوعا من الاعتباطية والتمحل إذا نحن أضفنا الى طبيعته، طبيعة أخرى ليست منه ولا هو منها.. غير أن ذلك لا ينفي أن يمتد نفسه، في بعض حالاته الشعرية الغنائية ذاتها، الى مدى يتيح له ان يجول جولة ملحمية موفقة، ولكن بخطى موقعة توقيعا غنائيا يعوقه عن الوثبات المغامرة، بل يرده سريعا الى أصالته الغنائية.. وقد تكون جولته الملحمية في ذكرى المتنبي هي الجولة الوحيدة التي يخطو فيها خطوات تقرب من المغامرات الملحمية.. ولعل رفقة المتنبي، في هذه القصيدة العامرة، قد وضعت «الأخطل الصغير» في جو خاص أحمى ذراعيه لخوض المغامرة بعض وقت.. أما جولته الأخرى في ذكرى الفردوسي فكانت أقصر من تلك في شوطها الملحمي، ولكنها جولة ممتعة بما امتزج فيها من عبق الشعر وروعة الموكب الكسروي وجلال الفتح الإسلامي العربي.. وفي رثائه للزهاوي نفحات ملحمية غنائية مزدوجة، ولا نقول جولات ملحمية. والواقع أن هذه المرثاة مع كونها مفعمة بحرارة الصدق والانفعال العاطفي، هي كذلك أشبه برحلة للفكر والشعر معا رفيقين حميمين يمضيان يدا بيد على وئام وانسجام يطوفان في دنيوات شتى من تاريخ الحضارة العربية والأدب العربي، ومن دنيا الصحراء العربية، ثم دنيا الجحيم حيث يلتقيان «دانتي» و المعري» يسألانهما:

أحـــقــيــقــة عـــرفـــا لـــظى؟
ام وصف مـــبـــتـــدعٍ نجـــيبِ

هو تطواف سريع خفيف المشقة، ولكنه مثقل بزادين دسمين لذيذين: زاد المعرفة، وزاد الفن المشبع بالبهجة والنقاء. هو ذا رثاء يتميز بالتفرد في نهجه وبساطته واستيعابه خصائص الموضوع بكاملها من غير تهويل ولا افتعال، تمشي في نواحيه لمحات ملحمية ولمعات غنائية منسكب بعضها في بعض كانسكاب الماء العذب بالخمرة المروّقة.

(٦)

في شعر «الأخطل الصغير» ظاهرة أخرى تسري في لفظاته وصوره ومعانيه ودلالاته، فتزيد الألفة الحميمة بينها جميعا ألفة أسمى وأوثق.. هي ظاهرة الطيبة

خالصة من الدخائل السود، ومن العقد النفسية. ولم يكن مبالغا ولا مدعيا حين وصف هو هذه الطيبة في مهجته:

مـهـجـة كـالـريـاض يـغـمـرهـا الـنـور
ويــرتــد عن ســمــاهــا الــظلام

ومن هذا المصدر الروحي ينبع الابتسام دائما في شعره.. ينبع حتى من خلل الدمع، بل نادرا ما نجد ابتسامة فيه لا تنبثق من دمعة:

في دمع بـسـمـتـهـا وفي صـلـواتـهـا
نـعـمى تـطل عـلى الـعـزاء وتـشـرقُ

✵✵✵✵✵

قــالــوا الــربــيع، فــقــلت مــا أنــكــرته
رشف الــدمــوع وردّهن تــبــســمــا

✵✵✵✵✵

يــغــسل الأنــفس الجــريــحــة بــالــدمع
فــيــكــســو تــلك الجــراح افــتــرارا

✵✵✵✵✵

هــذا الــذي لمس الآلام فــابــتــســمت
جــراحــهــا، ثم ذابت في مــحــاجــره

✵✵✵✵✵

صــمت يــفــيض بــيــانــا
ودمــعــة تــتــبــسَّم

✵✵✵✵✵

كـم مـن زغــاريــد عــرس
نــزعـت مـن فـم مــأتم

الخ.. الخ..

يصعب التسليم بأن ظاهرة هذا الاقتران دائما بين الدمع والابتسام، أو بين الحزن والفرح، أو بين المأتم والعرس، في شعر «الأخطل الصغير»، ليست أكثر من ظاهرة لفظية «بديعة» من فصيلة «الطباق» التزييني.. يصعب التسليم بهذا القول، لأن نقاوة شعره وصفاءه وأصالته، لا تسمح بتكلف مثل هذا الافتعال الشكلي المتكرر دون خلفية نفسية ثابتة.. إن هذه الظاهرة ـ في استنتاجي ـ هي ظاهرة انعكاس فني عفوي عن مزاج الشاعر، أعني تلك الطيبة التي يبدو أنها لم تقتصر على أن تحول الظلمة في نفسه الى ضياء دائما، بل لعلها تحولت عنده كذلك الى لون من المزاج الفلسفي المتفائل، سواء بعفوية خالصة أم بوعي وتأمل.

(٧)

وفي هذه المرحلة من رحلتنا في شعر «الاخطل الصغير» تتكشف لنا، أخيرا، ظاهرة تطور في بناء القصيدة عنده بالنسبة لجيله.. وقد يكون هذا الجانب منه عسير الرؤية لنا الآن في منظار المقاييس البنائية المعاصرة، ولكن من اليسير جدا رؤيته إذا نظرنا الى الأمر في إطاره الزمني الخاص. ففي هذا الإطار نستطيع أن نضع البناء الشعري عند «الأخطل الصغير» في مكان يشير الى الإرهاص بالتطور البنائي المعاصر نفسه. فإن شعره من هذه الجهة يمكن حسبانه حلقة اتصال بين عهدين لبناء القصيدة العربية: عهد كان فيه البيت بذاته وبمفرده هو الوحدة البنائية الأساسية في القصيدة، وعهد أصبحت فيه القصيدة بمجملها، ككل، تعتبر بناء واحدا متكاملا لا يؤدي فيه البيت، أو لا تؤدي فيه التفعيلات المتلاحقة، سوى دور الجزء في بناء الكل، على أن يكون كل جزء في مكانه الخاص به من هذا البناء، بحيث لو أخرج من هذا المكان الى مكان آخر في القصيدة لحدث الخلل في بناء القصيدة بكامله، ولتغير مدلول الفكرة نفسها، أو مضمون التجربة، أو نوع العلاقة بين ذات الشاعر والموضوع الشعري، أو النسيج الفني بكامل علاقاته الجمالية..

ونحن، في ضوء هذا المفهوم البنائي المعاصر، لا نستطيع القول بأن شعر «الأخطل الصغير» قد بلغ هذه المرحلة من التطور البنائي. وإنما الذي يمكن قوله أن هذا

الشـعر قد خطا خطوة تطـورية ملـحوظة في هـذا المجـال، بمعـنى أن قصيدة «الأخطل الصغير» جاءت لتعبر عن فكرة واحدة تقريبا، أو تجربة واحدة، أو لتدور على موضوع واحد، ولكن بقيت فيها بقية من العاهة البنائية القديمة في الشعر العربي، بحيث لو غيرنا وضـع هذا البيت وذاك، أو وضع هذا المقطع وذاك، في هيكل القصيدة الواحدة، لما اختلف الأمر كثيرا في تركيب الهيكل الكلي للقصيدة. على أن الخطوة التي أحدثتها قصيدة «الأخطل الصغير» كانت تجديدا واضحا يستحق الدرس الجدي.

(٨)

وختاما لرحلتنا هذه، لا أكتم جامعي «شعر الأخطل الصغير» وناشريه بصورته التي ظهرت عام الاحتفال لتكريمه على النطاق العربي منذ سنوات ـ لا أكتمهم عتبا يدنو من الملامة على كونهم أغفلوا عند جمعه ونشره، ذكر المناسبات والأحداث والتواريخ التي تتصل بهذا الشعر ويتصل بها، ويستمد منها مناخه الوجداني ودلالاته الشعرية، كما أغفلوا ذكر الأشخاص ذوي العلاقة بهذا المناخ وهذه الدلالات. لا ندري كيف ارتضوا هذا الإغفال وهم يعلمون ـ دون شك ـ أن ذلك سيحرم الدارسين والباحثين والنقاد في الأجيال اللاحقة رؤية الأطر التاريخية والمناخات الإنسانية الخاصة التي تمدهم بالعون على استكشاف الأبعاد الخفية الجوهرية التي يترامى إليها شعر «الأخطل الصغير»؟.

إننا نرجو أن يستدرك هذا الأمر في طبعة جديدة أكثر شمولا واستيعابا لشعر شاعرنا الكبير الراحل.

حسين مروة

****

رحلة..... في شعر
«الأخطـل الصغيــر»

حسين مروة

(١)

هي «رحلة» بالمعنى الدقيق للكلمة.. فلكي ندخل، اليوم، هذا العالم الشعري الخاص الذي أنشأه «الأخطل الصغير» لنفسه ولجيله، لا بد أن نستعد للأمر قبل الإقدام عليه، لأننا سندخل عالما آخر غير عالمنا المعاصر.

سندخل بمقاييس للشعر تختلف، جذريا، عن هذه المقاييس التي نمارس بها اليوم عملية التذوق والتلقي والتواجد الفكري والروحي مع الشعر المعاصر الذي صارت علاقتنا به جزءاً من علاقتنا بكل ظاهرة من ظاهرات التحول العاصف في عصرنا.

لا بد لنا، إذن، من إعداد أنفسنا «للتأقلم» الذوقي والفكري والوجداني في «مناخ» شعري انقطعت، أو كادت تنقطع، بيننا وبينه علاقات الألفة القديمة، حتى لنخشى ـ إذا عدنا إليه الآن ـ أن نستشعر الغربة معه، أن يستدرجنا الشعور «بالاغتراب» الى التورط بأحكام جائرة بعيدة عن الموضوعية..

غير أن «الأخطل الصغير» سيعيننا على هذا «التأقلم» دون عناء كبير، فإن عالمه الشعري من الشفافية والطرافة وصفاء الجو بحيث سنجد، في رحلتنا إليه، أننا لسنا بعيدين جدا عن تخوم عالمنا المعاصر. بل سنجد ـ الى ذلك ـ أن هاجسا روحيا خفيا يتنبه فينا، فجأة، منذ أول إطلالة على دنياه، فإذا بنا نحس في داخلنا أصداء هذا الهاجس توحي إلينا أن ندخل دنيا لنا فيها نبضات وجدان، ونبرات غضب، ومشاعر

■ الآداب ، عدد ٩، ص ١١،سنة ١٩٦٨

آلام ومسرات، ولنا عندها أشياء من حياتنا وأشواقنا وتطلعاتنا لا تزال طرية خضراء، لأنها متصلة بجذور أشيائنا الحاضرة.

صحيح أن جيل «الأخطل الصغير» قد انتهى منذ أكثر من ربع قرن، وأن الجيل الذي يعاني الآن حياة العصر، بكل قلقها وعنفها وبكل حدة الصراع بين تناقضاتها وبكل حيوية هذا الصراع، قد أنشأ لنفسه مناخات شعرية جديدة شديدة التعقد والتوتر والتفجر، لكن «الأخطل الصغير» ذاته بقي في نهاية جيله يقف على تخوم جيلين، فلم يغرق هناك في قاع الزمنية الكلاسيكية، ولم يغترب هنا كل الاغتراب عن إرهاصات التحول والتفجر المعاصرين، وإن لم يدرك ما انكشفت عنه هذه الإرهاصات من جديد، وما كان له أن يدركه بعد أن استنفد العمر طاقاته.

فنحن، إذن، في هذه الرحلة الى عالمه الشعري، نعاني وحشة الاغتراب كثيرا، وإن كنا ـ على كل حال ـ سنشعر بأننا معه في جيل ليس هو بالجيل الذي يحمل همومنا أو يستوعب الأطر التعبيرية القادرة على تحمل هذه الهموم.

(٢)

ونبدأ «الرحلة» الآن من نقطة الانطلاق الأولى في شاعرية «الأخطل الصغير». نبدأ من قضية الشعر:

نريد، أولاً، ان نتعرف الشعر كما يتصوره بشارة عبدالله الخوري نفسه.. فكيف يتصوره؟ ما أبعاده وحدوده في رقعة الحياة؟.. ما دوره في ديالكتيك الحياة؟..

نستطيع أن نعرف هذا كله في كثير من شعره، ولكن له «صلاة» يضرع فيها الى ربة الشعر، ضراعة المؤمن المفعم قلبه صدقا وإخلاصا، أن تلهمه الشعر الذي يريد.. في هذه «الصلاة» الخاشعة نعرف كيف يريد الشعر لنفسه، أي كيف يتصور الشعر في أعلى مستوياته وفي أكمل صوره:

الهميني، يا ربة الشعر، شعرا
كالنور والنار

كالهواء، كالأطيار، كالفكر حرا
يلفح الأدهار
كالأهازيج في الوغى تترجع
إن ثائر ثار
كدوي الأمواج إذ تتدفع
بعيدة الأغوار
ربة الشعر، الهميني قصيدا
ترجّع الأطيار
الهميني شعرا طليقا جديدا
يوزع الأنوار

هكذا الشعر في صورته الكاملة عند «الأخطل الصغير»، بل صورته المثلى. والمسألة هنا ليست أن الشاعر صادق في «صلاته» هذه أو غير صادق.. حتى افتراض عدم الصدق هنا يؤكد أن الصورة بحدودها كلها قائمة في ذهنه، تكشف عن مكانها الخفي في طموحه.. ولكن طبيعة «الأخطل الصغير» نفسها تفترض صدق هذه الضراعة في «صلاته». فهو ينطوي على ثورة في أعماقه نعرفها منه في سيرته وفي شعره معا. وقد تميز بهذه الوحدة بين سيرته وشعره دون ازدواجية ولا تعقد. من هذه الثورة الهادئة الوديعة أكثر الأحيان، المتفجرة بعض الأحيان، استوحى «صلاته» الى ربة الشعر: فهو يريد الشعر نارا تلفح الأدهار، يريده طلقا كالهواء والأطيار، حراً كالفكر، ثائرا كالأهازيج في معركة الثائرين، بعيد الأغوار تدوي الأمواج المتدفعة في نواحيه.. يريد الشعر جديدا طليقا يرفض الركود والقيود.. يريده لا يكتفي بأن يضيء ذاته، فليكن نورا يوزع الأنوار ليضيء الآخرين، ليضيء الحياة... ليس الشعر عنده وسيلة ترف فني وحسب:

وهل الشعر غير ما امتلك
النفس، فحلّى كأسا وحل وثاقا؟

الشعر أن يمتلك النفس: للامتلاك هنا محتواه الوجداني الضاربة جذوره الى أعماق النفس، فهو يعني صدق التجربة واستيعابها المشاعر كلها حتى الامتلاك.. وبعد هذا، على الشعر أن يمنح الإنسان حلاوة الحياة والبهجة الروحية، وأن يحرره كذلك، أن يحل وثاقه، كل وثاق يستعبد أو يقيد طاقاته أو يعيق نموه وتطوره وانطلاقه، فردا ومجتمعا.. بهذا المفهوم للشعر امتدح «الأخطل الصغير» حافظ ابراهيم، شاعر النيل، وهو يرثيه:

ما نسينا لك القصائد حمراً

قطع الشرق دونها الأطواقا

فغسلت الجراح بالسلسل العذب

وصيرت كل خلفٍ وفاقا

للشعر، إذن، وظيفة تتجاوز الامتناع الفني المحض، لتجمع الى الإمتاع هذا قوة الفعل في حركة التطور والتحرر الاجتماعيين.. ليس الشعر تلقيا وانفعالا وحسب، فهو ـ كذلك ـ فاعل ومحرك ومحرر.. وكيف يكون الشعر هكذا: محركا، ومحررا، إذا لم يكن هو نفسه ـ أي الشعر ـ متحركا، ومتحررا؟.. من هنا كان شعر «الأخطل الصغير» زاخرا بالحركة ودينامية التحرر.. وإذا لم يخرج في حركته وتحرره على الشعر العمودي، شعر البيت الكامل المقفى، فقد تصرف كثيرا بقواعد هذه «العمودية» تصرفا له طابع الجدة والاستقلال. وهذا نموذج من تصرفه:

يا مجدُ

يا فنُّ

يا جنونْ

لم تُبقِ مني

الليالي،

سوى

خيال خيالي،

✡✡✡✡✡

لا النَّحْلُ

يرشف شهدي

ولا الفَراش
وكان جيدي
وخدِّي
لها فِراشْ

☆☆☆☆☆

أبَعَدما
كان نهدي يُروي
العطاشْ،
أصبحتُ
أصبحت وحدي..

☆☆☆☆☆

يا مجدُ
يا فنُّ
يا جُنونْ
أين الهوى
والفتونْ
والعصبةُ المعجبونْ

على أن طبيعة الحركة والتحرر في شعره لا تقتصر على البنائية الخارجية. فقد تركت آثارها، كذلك، على البناء الداخلي في معظم هذا الشعر، حتى شعر الطرب الغنائي الصرف منه. فنحن نجد دينامية الحركة والتحرر في محاولات بشارة الخوري خلق الأبعاد الوجدانية لشعر الغزل والحب، وتجاوز الصور النفسية والصيغ الشعرية المألوفة عند شعراء جيله في هذا الباب.. فهو، مثلا، مفتتن بالجمال وبطرب الشراب، كما يفتتن غيره من الشعراء، ولكن كيف تتميز عنده صورة هذا الافتتان، وكيف يمتلك الافتتان نفسه، وكيف يتحرك في وجدانه:

فـــتن الجـــمــــال وثـــورة الأقـــداح
صــبــغت أســاطــيــر الــهــوى بــجــراحي

في هذه الحركة الشعرية تنبع أكثر من صورة أسطورية ملونة بدم الجراح، ولكنه اللون غير المأساوي، بل هو يضفي على الجراح نفسها لون الفتنة والبهجة بلمسات بسيطة وسريعة وغزيرة الإيحاء.. وكثيرا ما نستشف، خلل موجة الصفاء الشفاف، امتزاج حب الحياة وحب الجمال معا في حركة وجدانية واحدة داخل الحركة النغمية الخارجية الباهرة الألق والتنوع:

أنا لا أشيّع بالدموع صبابتي
لكن ألفُ جناحها بجناحي
غذيتها بدم الشباب وطيبه
وهرقت في لهواتها أفراحي

....

....

من كان من دنياه ينفض كفَّهُ
فأنا على دنياي أقبض راحي
إني أفدّي كل شمس أصيلة
حذر المغيب، بألف شمس صباح

هذه اللهفة الصارخة، في البيت الأخير، نكاد نحسها تتفجر أذرعة من الشوق والرغاب. تتسارع الى عناق شمس الأصيل تشدها كي لا تغوص في لجة المغيب، وكي تغير مسار حركتها العدمية الى مسار الوجود اللانهائي..

وتتخذ الحركة الشعرية، وهي تعبر عن شغفه بالجمال، ظاهرة أبعد عمقاً في الوجدان حين يتحدث عن ذكرى له غذاها بأكثر ما مضى من صبوته، ثم جاء يغذيها بما بقي:

بأخي هوى متماسك في أضلعي
سمح، على شيع الجمال مفرّق
شقت مرائره أسىً وتأوهاً
إن فاته الحسن الذي لم يخلق

جاء يغذيها ـ بعد ـ بقلبه، هذا الذي انعقد الإخاء بينه وبين الهوى على تماسك وسماحة وتوزع بين صنوف الجمال.. ولكن العجب في «أخي الهوى» هذا أنه لا يرتوي من الحسن بما هو كائن، فهو يتمزق مرارة وأسى من طموحه وتطلعه الى ما لم يخلق بعد من صنوف الحسن والجمال.. ليس هذا من باب الإغراب والاستحالة، أي ليس هو نوعا من الافتعال كما قد يدخل في تصور ناقد ما، وإنما هو تعبير ديناميكي عن شغف هذا القلب بالجمال الى أقصى حدود الشغف والوله.. إنها صرخة «جوع» جمالي هائلة مثيرة تعبر عن نفسها بمحتوى النغم الداخلي لا بحركته الخارجية وحسب.. وقد تبلغ هذه الصرخة منتهى العنف حين تعبر عن هاجس جمالي آخر مع طرب الشراب:

يا ذابح العنقود خضَّب كفّه

بدمائه، بوركت من سفاح!

(٣)

.. وقد يتحول الهاجس الجمالي عند «الأخطل الصغير»، الى إحساس عميق يقترب أحيانا من الإحساس المأساوي.. ذلك حين يصطدم وجدانه الشاعري بإحدى المفارقات القائمة في علاقات الإنسان بالطبيعة، أو علاقاته بالأرض والوطن والناس الآخرين، فتتحرك الثورة الكامنة في أعماقه حينذاك، ثم يتخذ الهاجس الجمالي هنا ظاهرة العاطفة الوطنية.. نجد مثل هذا الإحساس في مثل قصيدة «سلمى الكورانية».. هذه القصيدة تتحدث عن ظاهرة الهجرة في لبنان وعن المهاجر اللبناني.

إنه موضوع اجتماعي بذاته، ولكن «الأخطل الصغير» يتناول الموضوع انطلاقا من هاجسه الجمالي نفسه في قضية حب. والجمال والحب يجدان وحدتهما الكاملة دائما في شعره. فقصة الحب هنا تتطور إلى مواجهة وجدانية وطنية معا تنشأ من تفريق الهجرة بين قلبين عاشقين. وفي المواجهة هذه يتحقق اصطدام الهاجس الجمالي بإحدى المفارقات المحركة لثورة الشاعر. في هذه المفارقة حركة ديالكتيكية لها عمق إنساني مأساوي، ولكن يكمن في ثناياه حافز للرفض والتمرد. فحين تبلغ قصة الحب هنا ذروة التوتر يبرز وجه لبنان أيام الانتداب، وتبرز المفارقة الديالكتيكية المثيرة هكذا:

لبنان، ما لفراخ النسر جائعة
والأرض أرضك أعلاها وأدناها
أللغريب اختيال في مسارحها
وللقريب انزواء في زواياها
من ظن أن الرياحين التي سقيت
دموعنا الحمر قد ضنت برّياها؟
كأن ما غرس الآباء من ثمر
لغير أبنائهم قد طاب مجناها
وما بَنَوه على الأحقاب من أطمٍ
لغير أبنائهم قد حل سكناها
لا، لم أجد لك في البلدان من شبه
ولا لناسك بين الناس أشباها
لو مسَّ غيرك هذا الذل من أسد
لعضَّ جبهته سيف وحنَّاها!..

في هذا الإطار نفسه من تحول الهاجس الجمالي، عند «الأخطل الصغير»، الى إحساس وطني، نشهد تحولات تتنوع أشكالها الفنية، بقدر ما تتنوع حوافزها ومناسباتها الآنية التاريخية، ولكن يبقى مصدر التحولات هذه واحدا، وجوهر الرابطة بينها واحدا، هو الحساسية الشاعرية المرهفة الى حد القدرة على كشف العلاقات القائمة بين الأشياء المتفارقة بقدر ما هي قائمة بين الأشياء المتجانسة.. من هنا يحدث هذا التحول غالبا ـ إن لم نقل دائما ـ في شعر «الأخطل الصغير» من الهاجس الجمالي الى انفعالات إنسانية أو وطنية أو قومية أمام التحديات والمفارقات في علاقات الإنسان المختلفة، ولا سيما علاقاته الاجتماعية. وقد يبلغ هذا التحول الانفعالي ـ كما ذكرنا من قبل ـ عمقا وجدانيا يصل به الى حدود الإحساس المأساوي. نجد الأمثلة على ذلك في قصائد عدة كتبها الشاعر متأثرا بأحداث طارئة، بعضها ذو طابع محلي لبناني، وبعضها ذو طابع عربي شامل، وآخر ذو طابع إنساني عالمي، وقد تجتمع في الحادث

الواحد هذه السمات كلها، كما في قصيدة «١٩١٤».. وهي القصيدة التي أوحتها أحداث الحرب العالمية الأولى وفجائعها اللبنانية والعربية والعالمية.

في قصيدة من وحي ليلة من ليالي الشاعر في إحدى القرى اللبنانية ينطلق أولاً مع الهاجس الجمالي في مجلس له بين نفر من أهل الأدب والفن، ثم في تمثال فني رآه هناك من صنعة نحات لبناني:

ودمـيـة عـنـدمـا صـافـحت صـانـعـهـا
أكـبـرته عـبـقـري الـفن نـحـاتـا
رمى بـهـا في عـبـاب الحب لـؤلـؤة
ونـاطـهـا في جـبـين الحـسن مـشـكـاتـا

وتأخذ الشاعر، في هذا المناخ الجمالي، نشوة شاعرية ما إن تبلغ مدى هناءتها في وجدانه حتى تتنبه حوافز التحول، إذ تستيقظ علاقة المفارقة في وهج النشوة، وينهض فجأة ديالكتيك التحدي هكذا:

سـوانح من صـفـاء لا تـلـوح لـنـا
في حـالـكـات الـشق إلا أويـقـاتـا..
نـلـقي عـلى راحـتـيـهـا أنـفـساً نـهـكت
فـعل الـغـريق رأى في الـقـرب مـرسـاتـا

ثم يصعد التحول من هذا الإحساس الذاتي المأساوي الى إحساس اجتماعي وطني يحمل الحرارة المأساوية نفسها.. ذلك إذ أحدثت حركة التحدي في الهاجس الشاعري ما تحدثه الحصاة تلقى في صفحة الماء.. فإذا بدائرة المفارقات التي تتحدى نشوة الشاعر تعقبها دائرة أخرى من المفارقات أوسع منها، فإذا بالتحول ينتقل من صراع الهاجس الجمالي مع مفارقات الذات الى الصراع مع المفارقات في نطاق المجتمع.. وكان المجتمع هنا لبنان نفسه أيام الانتداب الفرنسي:

لـبـنـان، يـا جـنـة الأرواح، مـا فـعـلت
بك الـلـيـالي.. فـعـاد الـعـرس مـأسـاتـا

قــــد كــــبّـــروك لأمـــــر صــــغّــــروك به،
قــد فـخــمــوا الاسم، لــكن حــقَّــروا الــذاتــا

في كل طــــــرفــــــة عــــــين أنــــــظُمٌ جــــــدد
من ســوء حــظك قــد ظــنــوك مــلــهــاتــا

كــأنمــا كــنت لــوحــاً في مــكــاتــبــهم
تــمــضي الأكف به مــحــواً وإثــبــاتــا

فــتــيــان لــبــنــان، هــبــوا من رقــادكم
ســيّــان من نــام عن حق ومن مــاتــا

***

على هذا النحو نجد حساسية الشاعر الجمالية في مواقفه من مختلف الأحداث والمناسبات في النطاق العربي الشامل. إننا نجده في ذروات من الانفعالات الشاعرية يتحول به الانفعال الى مواقف عربية تمجد علاقات الأخوة بين لبنان وأشقائه في العالم العربي، وتمجد نضال العرب في معركة الحرية، وفي معركة فلسطين بالأخص، ونجد المفارقات في هذا المجال كذلك تحفز هاجسه الجمالي للتحول من الانفعالات الذاتية الى الانفعالات القومية.

وفي غمرة الانفعال الحزين، إذ يرثي شوقي، وإذ الإحساس الشاعري يتصاعد مع الرؤى الجمالية المستثارة بنوع من الانتعاش للحادث، ينطلق الهاجس الفني، فجأة، من حدود الرثاء في نطاقه الفردي الى الحدود الوسيعة التي تشتمل لبنان كله ومصر كلها في إطار واحد من الأخوة بينهما:

لــبــنــان، يــا مــصــر، مــصــرٌ في مــطــامــحــهِ
- كــمــا عــلــمت - ومــصــر في مــفــاخــرهِ

هل كــان قــلــبك إلا في جــوانــحــه
أو كــان دمــعك إلا في مــحــاجــره

أو كــان مــنــبت مــصــر غــيــر مــنــبــتــه
أو كــان شــاعــر مــصــر غــيــر شــاعــره؟

وإذ هو يرثي سعد زغلول، وهاجسه الفني ينشىء دنيا من الخيالات والصور المجنحة بألوان أسطورية وملحمية، إذا به ينفلت من دنياه هذه الى دنيا الواقع بكل واقعيته، ليدخل قلب المعركة السياسية الوطنية التي كانت تحياها مصر يومذاك، وإذا به وجهاً لوجه مع رجال مصر الذين كانت تشغلهم أحداث المعركة في هذا الصف منها أو ذاك:

إني أخاف عليكم في تحزبكم
أن تنصروا الخصم، وهو الخصم والحكمُ
تخاصمون على ضعف، وخصمكم
هو القوي، عليكم ليس يختصم
توحدوا باسم مصر في تجهمها
وطالعوا ثغر مصر كيف يبتسم
سعد أرادكمُ حلفاً - فلا قسمتْ
أجزاؤكم - حب مصر ليس ينقسم

وفي رثاء فيصل الأول بينا يجهد الشاعر في ابتداع «الحالات» الشعرية الملائمة للموقف ولخصائص الشخصية المرتبطة به، إذا بحساسية الشاعر تستشف الأبعاد الأخرى للموقف، وهي الأبعاد السياسية التي تمتد إليها ظلال الشخصية هذه، فيأخذ التحول الشعري هنا مجرى آخر نحو تلك الأبعاد ذاتها.. فنرى الشاعر عند هذا المجرى الجديد، يذكر ما كان لفيصل الأول من علاقة بالحركة العربية الاستقلالية، وما كان لهذا العلاقة من ارتباط بوعود «الحلفاء» الغربيين وعهودهم للعرب عند اندلاع الحرب العالمية الأولى، ثم ما اقترفه هؤلاء «الحلفاء» من نكث لهاتيك الوعود والعهود.. وفي هذا المسار يتحول الإحساس الشاعري من نطاق الرثاء في حدوده التقليدية الى نطاق الموقف القومي، فنلحظ منذ يأخذ هذا التحول مداره الأوسع أن حرارة الواقع المأساوي قد أكسبت الموقف الشعري الجديد نبضا من الحيوية والصدق لم نكن نحسه في المدار الأول من القصيدة:

قل لتلك العهود في رهج الحرب
وفي سكرة القنا والغلاصمْ

قـد لمحنـاك في عيـون الثعـالي
ولمسنـاك في جلـود الأراقم
حدثـونـا عن الحقـوق، فلمـا
كبَّر النصر، أعوزتنا التراجم
نفحتنا بها الحروب سلاما
ورمانا بها السلام أداهم
قل ـ وقيت العثار ـ في ندوة القوم:
متى أصبح «الحليف» مخاصم؟
أين ذاك «الهيام» في أول «الحب»
وتلك الموشحات النواعم؟
....
....
....
إن تحت الصدور جذوة موتور
وخلف الحدود زأرة ناقم

***

وفي الإطار نفسه كذلك، إطار التحول في الهاجس الجمالي، عند «الأخطل الصغير»، من دائرة الإحساس الذاتي الى دائرة الإحساس العام الأشمل، نلحظ في شعره تحولات من نوع آخر، هو النظر الى قضايا الإنسان ذات المنشأ الاجتماعي، أي تلك القضايا التي يعانيها الناس في المجتمعات الطبقية، أو تلك التي تعاني منها البشرية كافة أزمات القلق على مصير الحياة نفسها كمسألة الحروب العالمية.

وقد حان لنا هنا أن نوضح مفهوم الهاجس الجمالي الذي تكرر ذكره في «رحلتنا» هذه..إننا نقصد به غير معناه الساذج المبتذل.. فليس القصد به معنى الجمال المناقض للقبح بمفهومه البسيط، بل معناه الفني الذي ينبع من الرؤية الشعرية للأشياء ولعلاقات الإنسان مع الطبيعة والحياة والناس الآخرين، وللقيم الإنسانية المستمدة من هذه العلاقات. فكل رؤية فنية إبداعية الى الظاهرات الكونية أو الاجتماعية أو الى

دخائل النفس الإنسانية، وكل كشف للأبعاد غير المنظورة بالنظر العادي، القائمة وراء تلك الظاهرات ـ كل رؤية من هذا النوع، وكل كشف تحققه هذه الرؤية، بواسطة الشكل والمضمون في وحدتهما الجوهرية، يشكل العنصر الجمالي في الفن، أي الحقيقة الفنية. إن هذا العنصر هو ما سميناه في هذه الرحلة بـ «الهاجس الجمالي» لأنه الدافع الداخلي المشع عند الشاعر والفنان.

إذا رجعنا ـ بعد ـ الى حيث وصلنا من «الرحلة» في شعر «الأخطل الصغير» سنرى أشكالا جديدة من تحولات الهاجس الفني.. نعني تحول هذا الهاجس من الرؤيا ذات المضمون الغنائي الصرف الى رؤيا في قلب الظاهرات الاجتماعية، أي قضايا الإنسان في علاقاته الطبقية، أو في أزماته المصيرية الكبرى.

ففي مجال العلاقات بين الطبقات الاجتماعية، في ظلال الأنظمة الرأسمالية بالطبع، تمتد رؤيته الفنية الى ما وراء ظاهرة الفقر والغنى وسائر ظاهرات التمايز الطبقي، فإذا برؤيته هذه تكتشف، بلمح من الهاجس الفني النفاذ، بعداً واقعياً من أبعاد تلك الظاهرات، أو تكتشف ـ إذا شئنا التعبير بلغة العلم ـ واحدا من القوانين الأساسية التي تنشأ عنها تلك الظاهرات:

أيها الأغنياء! إن غناكم
شيدته سواعد الفقراءِ
القصور التي تقيمون فيها
من بناها لكم سوى الفقراء؟
والطعام الذي تلذون.. من هم
صانعوه سوى الفقراء؟
والرياحين في الجنائن.. من هم
غارسوها لكم سوى الفقراء؟
والحليب الذي رضعتم صغارا
كان من صدر معظم الفقراء

....

....

....

لا تـــقـــولـــوا: وســـاوس من فـــقـــيـــر

دوخـــــــــتـــه طـــــــــوارق الأرزاء

إن لـــلـــفـــقـــر ثـــورة لـــو عـــلـــمـــتم

تـــســـبح الـــنـــاس دونـــهـــا في الـــدمـــاء..

وعند زوال ظل السلطان عبدالحميد العثماني في العقد الأول من هذا القرن، نظر الشاعر الى قصر «يلدز» وقد سقط الظل الرهيب عنه يومذاك، فامتد به النظر الشاعري الى ما وراء هذا الحادث ـ الظاهرة من دلالات التحول التاريخي في ظهور قوة الشعوب لتحرير أعناقها من أنيار الاستبداد والاضطهاد والاستعباد، وظهور إرادتها في ضم وحدة صفوفها مع وحدة مصيرها:

لا بـــلـــغـــنـــا ذرى الـحـــضـــارة إن لم

يَـــمْحُ عـــصـــر الإخـــاء عـــصـــر الـــعـــبـــيـــد

وفي حين كان «الدستور» مطلبا تنادي به جماهيرنا العربية لتحقيق مرحلتها الديمقراطية، وجدت هذه الجماهير مطلبها ذلك ينتفض في هاجس بشارة الخوري انتفاضة تدعو الى الثورة، هاتفة بأن «الدستور» لا يهبط على الشعوب هبوط الوحي من غير كفاح يتفجر من أعماقها كالأعاصير أو البراكين:

إن الـــدســـاتـــيـــر لا تـــعـــطي أعـــنّـــتـــهـــا

إلا الأعـــاصـــيـــر من جنٍّ ومن بـــشـــرِ

من هـــابط كـــقـــضـــاء الـــلـه مـــكـــتـــسح

أو صـــاعـــد كـــفم الـــبـــركـــان مـــنـــفـــجـــر

وفي الحرب العالمية الأولى رأى الشاعر فجائعها الإنسانية في وطنه ذاته، من جوع وعري ومرض في أوساط الفقراء، ومن احتكار وجشع واستغلال رهيب في

أوساط الأغنياء، ومن تعسف وانهيار للقيم المثلى في أوساط الحكام، فاهتاج هاجسه الجمالي غضبا وحقدا شريفا، وانبرى يتفجر قصائد من لهب ينصب نقمة على التمايز الطبقي، وعلى عسف الطبقات الحاكمة والمستغلة، وعلى الحرب ومشعلي نارها الشريرة، وعلى وحشية المنتفعين بها حتى انتهاك الحرمات الإنسانية.. إننا نحس الآن، ونحن نقرأ هذه القصائد الغاضبة، أن الشاعر يعاني فيها أزمة نفسية وعقلية أسلمته حينذاك الى حيرة مرهقة في تفسير المحنة البشرية تلك، حتى لنراه يلجأ في حيرته الى مثل هذه المناجاة:

رب، لـــو شـــئت لمـــا ســـالت دمـــا
أمـــرك الأمـــر.. فـــمن ذا يـــنـــكـــر؟
ولمـــا يـــتّم من قـــد يـــتّـــمـــا
ولمـــا اســـتل الـــسلاح الـــعـــســـكـــر
....

....
من تـــرى يـــشـــرح لي ذنب الـــفـــقـــيـــر
أو - تـــرى - يـــظـــهـــر لي فـــضل الـــغـــني
يـــرثـــان الـــبـــؤس، والـــعـــيش الـــنـــضـــيـــر
ويـــقـــيـــمـــان مـــعـــا في الـــكـــفن؟

(٤)

السمة الغنائية، بمفهومها المدرسي وبمفهومها الأعم، هي السمة الشائعة في شعر «الأخطل الصغير».. ولكن غنائيته هذه لم تستسلم - إلا قليلا - الى الخطابية، أو الى الخواء الفكري. ولقد استطاع أن يضفي على خطابيته حيث وجدت، أو على الخواء الفكري حيث وجد في شعره، تلك الخاصة الجمالية المستقلة التي اجتمعت لها مجموعة من العناصر أبعدت عن شعره، في الغالب، تلك العيوب التي تشوب غنائية الشعر العربي في الجيلين السابقين بالخصوص. من هذه العناصر: مزية الصدق، ومزية الصفاء النفسي والتعبيري، ومزية الجدة والطرافة لا في النغمة واللفظة والعبارة فحسب، بل في الصورة الشعرية

كذلك، وفي طريقة التصوير الإيحائي للموضوع الشعري. إن عنصر الجدة والطرافة هذا، بجملة مقوماته، كثيرا ما ينقذ شعره من النثرية، أو التقريرية، حين ينزلق إليهما.. فهناك، مثلا، ألوان من الغزل عنده لا تخرج بمضمونها عن الغزل التقليدي المكرور في شعرنا، ولكن خاصة «الأخطل الصغير» أنه يخلع على مثل هذا الغزل طرافة في التصوير وفي العبارة تهيئ له مناخا شعريا خاصا يخفي وجهه التقليدي حتى ليوحي لنا بأنه جديد.. نذكر من ذلك أبياته المشهورة المغناة التي مطلعها:

بلغوها إذا أتيتم حماها
أنني مت في الغرام فداها

فهنا لا تقبض اليد على أمر جديد إطلاقا من حيث المضمون العام، ولكن طريقته في وضع الحقيقة الشعرية في إطار يوم القيامة حيث يتصور أن النعيم يكون جزاؤه في جهاده وتكون النار جزاء الحبيبة، وحيث يتصور مناجاة مع الله متشفعا إليه ثم ضارعا:

قلت: يا رب، أي ذنب جنته،
أي ذنب؟ لقد ظلمنا صباها..
أنت ذوبت في محاجرها السحر
ورصعت باللآلئ فاها
أنت عسَّلت ثغرها.. فقلوب الناس
نحل أكمامها شفتاها
أنت من لحظها شهرت حساما
فبراء من الدماء يداها..

نقول إن وضعه الحقيقة الشعرية في هذا الإطار الطريف قد أنقذ الصورة من لونها القديم الحائل.. وقد رثى «الأخطل الصغير» صديقه حافظ ابراهيم، فراح يمعن في توليد الصور الشعرية، دون أن يخرج أيضا عن المضامين التقليدية في الرثاء، ولكنه أوتي القدرة على التفرد بسكب هذه المضامين في ألوان من الطرافة المحببة حتى تبدو ابتكارا.. فإذا بنا نحظى في هذه القصيدة بكثير من الصور الممتعة التي تشبه هذه الصورة:

أنت والنيل ضفتان لمصر
تنبتان الأذواق والأرزاقا

هـذه الخاصة في تلوين الصور الشعرية بالطرافة تكاد تكون أبرز خصائص شعره، وكثيرا ما يجلوها في إطار من الحوار القصصي على غرار قصيدته المشهورة «هند وأمها»:

أتت هـند تـشـكـو الى أمـهـا
فـسـبـحـان من جـمع الـنـيـرين
فـقـالت لـهـا: إن هـذا الـضـحى
أتـانـي، وقـبّـلـنـي قـبـلـتـين
وفـرَّ، فـلـمـا رآني الـدجى
حـبَـاني من شـعـره خـصـلـتـين... الخ.

ولكن تبقى حقيقة لا بد من جلائها في الحديث عن غزل بشارة الخوري. فليست الطرافة بذاتها كافية لإنارة السمات المميزة لهذا الغزل. ذلك بأن من مميزاته كذلك أنه ليس غزلا وصفيا تصويريا في الغالب، بل يغلب فيه التحول الى حركة وجدانية تتعمق الحس الجمالي في الداخل، وهذا التحول يجعل من الوصف الخارجي ظاهرة حركية تشارك مشاركة أساسية في التعبير عن امتلاء الوجدان بنبضات الشاعر الجمالية. وهذا ما أشرت إليه حين قلت، من قبل، إن الجمال والحب يجدان وحدتهما الكاملة دائما في شعر «الأخطل الصغير».. فماذا يعني أن يقول الشاعر، مثلا، وهو يتغزل:

إيه ريـحـانـة الـريـاحـين فـيـضي
مـرحـاً، واملأي الجـوانح وجـدا
امـسـحي جـبـهـة الـظلام تـفضْ نـوراً
ومـرّي عـلى الـصـخـور فـتـنـدى

هل يعني مثل هذا التصور للجمال، سوى الشعور الداخلي بالاندهاش من روعة الجمال المعين؟

وماذا يعني مثل هذا «الوصف» لصوت مطرب:

يــا غــابــة الــصــوت الــلــهـيف كــأنه
تحت الـــظلام أشـــعــــة تـــتــــكـــلمُ

....
....
....

ثـــمــــلت به الأزهـــــار وهي أجــــنّـــة
وتــشــوفت، فــانــشق عــنــهــا الــبــرعم

هل هذا وصف وكفى؟ أم هو الدهشة الوجدانية أمام «غابة» من ينابيع النغم تندفق في مسمع الشاعر، فتنسكب في أوصاله ارتعاشا كانسكاب الشعاع المنعش، حتى يتصور هذا النغم يفعل فعل الشمس بالزهرة: تدركها في البرعم جنينا، فتتفتح زهرة كاملة من أثر الشعاع؟ أحسب أن الشاعر هنا لا يصف الصوت نفسه بقدر ما «يصف» أثر الصوت في وجدانه.. وكلمتا: «الغابة» و «اللهيف» في هذه الصورة، لا تعنيان دلالتهما الحرفية، بل دلالتهما في تصور الشاعر الخاص..

وفي هذا المجال لا بد أن تحضرنا قصيدة «عمر ونعم».. فقد أعاد الى عصرنا صورة من ابن أبي ربيعة في رائيته الطريفة، وجلا منها مشاهد غزلية بطرافة جديدة، هي طرافة «الأخطل الصغير» بخصوصها وخصائصها، وهي - أي قصيدة «الأخطل الصغير» - تضيف الى متعة الطرافة المتجددة إضاءات فنية هامسة ومقنعة في آن.

(٥)

تستوقفنا في هذه «الرحلة» مشاهد ملحمية، دون أن تغرينا بالقول إن شاعرنا قد جمع بين الطرفين المتباعدين: الغنائية والملحمية.. لا، فإنهما طرفان متباعدان بالفعل، وليس لشاعر أن يكون غنائيا وملحميا معا، ولكن قد يلتقيان التقاء عفويا عابرا ثم يفترقان، فالشاعر الغنائي لا يقوى على احتمال الأبعاد الموضوعية الشاسعة للملحمة.. والشاعر الملحمي لا يقوى على احتمال الانفعالات الذاتية الغنائية القصيرة الأنفاس..

أما «الأخطل الصغير» فشاعر غنائي وحسب. وإننا لنرتكب نوعا من الاعتباطية والتمحل إذا نحن أضفنا الى طبيعته، طبيعة أخرى ليست منه ولا هو منها.. غير أن ذلك لا ينفي أن يمتد نفسه، في بعض حالاته الشعرية الغنائية ذاتها، الى مدى يتيح له ان يجول جولة ملحمية موفقة، ولكن بخطى موقعة توقيعا غنائيا يعوقه عن الوثبات المغامرة، بل يرده سريعا الى أصالته الغنائية.. وقد تكون جولته الملحمية في ذكرى المتنبي هي الجولة الوحيدة التي يخطو فيها خطوات تقرب من المغامرات الملحمية.. ولعل رفقة المتنبي، في هذه القصيدة العامرة، قد وضعت «الأخطل الصغير» في جو خاص أحمى ذراعيه لخوض المغامرة بعض وقت.. أما جولته الأخرى في ذكرى الفردوسي فكانت أقصر من تلك في شوطها الملحمي، ولكنها جولة ممتعة بما امتزج فيها من عبق الشعر وروعة الموكب الكسروي وجلال الفتح الإسلامي العربي.. وفي رثائه للزهاوي نفحات ملحمية غنائية مزدوجة، ولا نقول جولات ملحمية. والواقع أن هذه المرثاة مع كونها مفعمة بحرارة الصدق والانفعال العاطفي، هي كذلك أشبه برحلة للفكر والشعر معا رفيقين حميمين يمضيان يدا بيد على وئام وانسجام يطوفان في دنيوات شتى من تاريخ الحضارة العربية والأدب العربي، ومن دنيا الصحراء العربية، ثم دنيا الجحيم حيث يلتقيان «دانتي» و المعري» يسألانهما:

أحـــــقـــــيـــــقـــــة عـــــرفـــــا لـــــظى؟
ام وصف مـــــبـــــتـــــدع نجـــــيبِ

هـو تطواف سريع خفيف المشقة، ولكنه مثقل بزادين دسمين لذيذين: زاد المعرفة، وزاد الفن المشبع بالبهجة والنقاء. هو ذا رثاء يتميز بالتفرد في نهجه وبساطته واستيعابه خصائص الموضوع بكاملها من غير تهويل ولا افتعال، تمشي في نواحيه لمحات ملحمية ولمعات غنائية منسكب بعضها في بعض كانسكاب الماء العذب بالخمرة المروّقة.

(٦)

في شعر «الأخطل الصغير» ظاهرة أخرى تسري في لفظاته وصوره ومعانيه ودلالاته، فتزيد الألفة الحميمة بينها جميعا ألفة أسمى وأوثق.. هي ظاهرة الطيبة

خالصة من الدخائل السود، ومن العقد النفسية. ولم يكن مبالغا ولا مدعيا حين وصف هو هذه الطيبة في مهجته:

مــهـجــة كــالــريــاض يــغــمــرهــا الــنــور
ويـــــرتـــــد عن ســـــمــــاهـــــا الـــظلام

ومن هذا المصدر الروحي ينبع الابتسام دائما في شعره.. ينبع حتى من خلل الدمع، بل نادرا ما نجد ابتسامة فيه لا تنبثق من دمعة:

في دمع بــســمــتــهــا وفي صــلــواتــهــا
نــعــمى تــطل عــلى الــعــزاء وتــشــرقُ

✲✲✲✲✲

قــالــوا الــربــيع، فــقــلت مــا أنــكــرته
رشف الـــدمـــوع وردّهن تـــبـــســـمـــا

✲✲✲✲✲

يــغــسل الأنــفس الجــريــحــة بــالــدمع
فــيــكــســو تــلك الجــراح افــتــرارا

✲✲✲✲✲

هـــذا الـــذي لمس الآلام فـــابـــتـــســـمت
جـــراحـــهـــا، ثم ذابت في مـــحـــاجـــره

✲✲✲✲✲

صـــــمت يـــــفــــيض بــــيـــــانــــا
ودمــــــعـــــة تــــــتــــــبــــــسَّم

✲✲✲✲✲

كم من زغـــــــاريـــــــد عـــــــرس
نــــــــــزعت من فم مـــــــــــأتم

الخ.. الخ..

يصعب التسليم بأن ظاهرة هذا الاقتران دائما بين الدمع والابتسام، أو بين الحزن والفرح، أو بين المأتم والعرس، في شعر «الأخطل الصغير»، ليست أكثر من ظاهرة لفظية «بديعة» من فصيلة «الطباق» التزييني.. يصعب التسليم بهذا القول، لأن نقاوة شعره وصفاءه وأصالته، لا تسمح بتكلف مثل هذا الافتعال الشكلي المتكرر دون خلفية نفسية ثابتة.. إن هذه الظاهرة ـ في استنتاجي ـ هي ظاهرة انعكاس فني عفوي عن مزاج الشاعر، أعني تلك الطيبة التي يبدو أنها لم تقتصر على أن تحول الظلمة في نفسه الى ضياء دائما، بل لعلها تحولت عنده كذلك الى لون من المزاج الفلسفي المتفائل، سواء بعفوية خالصة أم بوعي وتأمل.

(٧)

وفي هذه المرحلة من رحلتنا في شعر «الاخطل الصغير» تتكشف لنا، أخيرا، ظاهرة تطور في بناء القصيدة عنده بالنسبة لجيله.. وقد يكون هذا الجانب منه عسير الرؤية لنا الآن في منظار المقاييس البنائية المعاصرة، ولكن من اليسير جدا رؤيته إذا نظرنا الى الأمر في إطاره الزمني الخاص. ففي هذا الإطار نستطيع أن نضع البناء الشعري عند «الأخطل الصغير» في مكان يشير الى الإرهاص بالتطور البنائي المعاصر نفسه. فإن شعره من هذه الجهة يمكن حسبانه حلقة اتصال بين عهدين لبناء القصيدة العربية: عهد كان فيه البيت بذاته وبمفرده هو الوحدة البنائية الأساسية في القصيدة، وعهد أصبحت فيه القصيدة بمجملها، ككل، تعتبر بناء واحدا متكاملا لا يؤدي فيه البيت، أو لا تؤدي فيه التفعيلات المتلاحقة، سوى دور الجزء في بناء الكل، على أن يكون كل جزء في مكانه الخاص به من هذا البناء، بحيث لو أخرج من هذا المكان الى مكان آخر في القصيدة لحدث الخلل في بناء القصيدة بكامله، ولتغير مدلول الفكرة نفسها، أو مضمون التجربة، أو نوع العلاقة بين ذات الشاعر والموضوع الشعري، أو النسيج الفني بكامل علاقاته الجمالية..

ونحن، في ضوء هذا المفهوم البنائي المعاصر، لا نستطيع القول بأن شعر «الأخطل الصغير» قد بلغ هذه المرحلة من التطور البنائي. وإنما الذي يمكن قوله أن هذا

الشـعر قد خطا خطوة تطورية ملحوظة في هـذا المجـال، بمعـنى أن قصيدة «الأخطل الصغير» جاءت لتعبر عن فكرة واحدة تقريبا، أو تجربة واحدة، أو لتدور على موضوع واحد، ولكن بقيت فيها بقية من العاهة البنائية القديمة في الشعر العربي، بحيث لو غيرنا وضـع هذا البيت وذاك، أو وضع هذا المقطع وذاك، في هيكل القصيدة الواحدة، لما اختلف الأمر كثيرا في تركيب الهيكل الكلي للقصيدة. على أن الخطوة التي أحدثتها قصيدة «الأخطل الصغير» كانت تجديدا واضحا يستحق الدرس الجدي.

(٨)

وختاما لرحلتنا هذه، لا أكتم جامعي «شعر الأخطل الصغير» وناشريه بصورته التي ظهرت عام الاحتفال لتكريمه على النطاق العربي منذ سنوات ـ لا أكتمهم عتبا يدنو من الملامة على كونهم أغفلوا عند جمعه ونشره، ذكر المناسبات والأحداث والتواريخ التي تتصل بهذا الشعر ويتصل بها، ويستمد منها مناخه الوجداني ودلالاته الشعرية، كما أغفلوا ذكر الأشخاص ذوي العلاقة بهذا المناخ وهذه الدلالات. لا ندري كيف ارتضوا هذا الإغفال وهم يعلمون ـ دون شك ـ أن ذلك سيحرم الدارسين والباحثين والنقاد في الأجيال اللاحقة رؤية الأطر التاريخية والمناخات الإنسانية الخاصة التي تمدهم بالعون على استكشاف الأبعاد الخفية الجوهرية التي يترامى إليها شعر «الأخطل الصغير»؟.

إننا نرجو أن يستدرك هذا الأمر في طبعة جديدة أكثر شمولا واستيعابا لشعر شاعرنا الكبير الراحل.

حسين مروة

****

شعر الأخطل الصغير
شاهد لعصره

روز غريّب

إذا كان في وسعنا أن ندرس بعض الشعراء أو الأدباء بمعزل عن عصرهم، لأنهم انسلخوا من البيئة أو اعتكفوا في محراب الذات أو غرقوا في دنيا الخيال والأسطورة، فليس بشارة الخوري واحداً من هؤلاء، ولا نستطيع أن نتصوره منفصلاً عن زملائه المخضرمين: شوقي وحافظ ومطران والزهاوي، شبلي ملاط والياس فياض ونقولا أخوه، هؤلاء الذين تقاربت معانيهم كما تقارب عهدهم، فمدحوا ورثوا وافتخروا نظير أسلافهم القدامى، فإذا قال شوقي:

كان شعري الغناء في فرح الشرق
وكان العزاء في أحزانه

قال بشارة الخوري:

أنا في شمال الحبّ قلبٌ خافقٌ
وعلى يمين الحق طيرٌ شادي
غنّيتُ للشرق الجريح وفي يدي
ما في سماء الشرق من أمجاد

في هذه الأبيات وما يشبهها نلمح صلة المخضرمين بالقدماء من ناحيتين: ناحية الفخر بالذات وبالأمجاد الماضية، وناحية الأسلوب الخطابي المنبري الذي ربط الفريق الثاني بأهل البلاط والفريق الأول بالجماهير.

■ شعر، خريف ١٩٦٨، عدد ٤٠، ص١٢٥.

كان المخضرمون يقطفون ثمار البعث اللغوي الذي تمخض به القرن التاسع عشر، فيتنخلون ألفاظهم ويختارون أفضلها تعبيراً. وبهم استعادت الفصحى زهوها وتاهت برجوع عرشها المفقود.

وقد انفتحت أمامهم أبواب الثقافات الأجنبية فاقتبسوا وترجموا. وكثيراً ما يستوقفنا في شعرهم معنى طريف أو صورة جديدة، حتى نكتشف لهما أصلا في الشعر الفرنسي أو سواه من شعر الأمم الأخرى. لكن المخضرمين حرصوا في ترجماتهم على نقل المعنى دون الأسلوب، وربما تصرفوا في الأصل فكانوا معرِّبين أكثر منهم مترجمين.

وكان للشعر في عهدهم سوق رائجة، إذ كان عهد يقظة ووعي سياسي واجتماعي، نافس فيه الشاعر الصحفي في التعبير عن أماني الشعب وحاجات العصر. فهو بلبل المجالس وأمير المنابر، وشعره للناس لهو رفيع يفيئون إليه في أفراحهم وأحزانهم، بل هو عنصر أساسي في حياتهم الاجتماعية والثقافية، ومن أدركته حرفة الأدب ولم يمارس النظم لم يلق عندهم حظوة أو تقديراً.

في هذه البيئة التي سيطرت عليها عقلية القدماء نشأ «الأخطل الصغير» فتوفر على درس اللغة وآدابها حتى أحكم أساليبها ودانت له شواردها. وصح عزمه على مزاولة الشعر رغم نصيحة زميله الشاعر اسكندر عازار بأن يكتفي بالصحافة. ولفت بشارة أنظار زملائه بغزله الرقيق، وما لبث حتى أصبح شاعر مجالس الخمر والغزل، بعث فيها جو الموشحات بصورها المرحة المشرقة وموسيقاها العذبة، ولكن دون ركاكتها وابتذالها:

صدّاح يا مؤنس هذي الأراكْ **ما لـــــي أراك**
تشدو فسبحان الذي قد براك
تستقبل الفجر بصوتٍ رخيم **يحيي الرميـــم**
وتلثم الزهر بثغر بسيـــم **لثم النسيـــم**